

عویل الذئاب

رواية

زهدي الداودي

عویل الذئاب

رواية



دار اراس للطباعة والنشر

أربيل - إقليم كردستان العراق

جميع الحقوق محفوظة ©
دار اراس للطباعة والنشر
شارع كولان - اربيل
اقليم كردستان العراق
البريد الالكتروني aras@araspublishers.com
الموقع على الانترنت www.araspublishers.com
تأسست دار اراس في (٢٨) تشرين (١٩٩٨)

زهدي الداودي
عييل الذئاب - رواية
منشورات اراس رقم: ١٣٨٤
الطبعة الأولى ٢٠١٣
كتبة الطبع: ٦٠٠ نسخة
مطبعة اراس - اربيل
رقم الایداع في المديرية العامة للمكتبات العامة ٣٠٢ - ٢٠١٣
الاخراج الداخلي والغلاف: اراس أكرم
التصحيح: جمال كريم

ردمك:

ISBN: 978-91-979170-4-9

هذه الرواية

يقول الناقد الألماني مارسيل رايش – رانيسكي في كتابه (من يكتب، يستفز): "إن الروائي مسموح له مطلاً، كل شيء. في سبيل المثال يمكنه أن يقوم بمخالفات ضد المنطق أو ضد الذوق السليم. فقط شيء واحد غير مسموح له مهما كانت الأعذار: أن لا يبعث الملل في نفس القاريء".

إنطلاقاً من هذا المفهوم الذي عبر عنه بباب الأدب الألماني، لجأت أنا الآخر إلى الخروج، ليس على قواعد الذوق السليم، بل على بعض قوالب بناء الرواية التقليدية التي ينبغي على الكاتب الروائي الإلتزام بها. أعترف بأنني خالفت بعض شروط العرف الروائي وأستحق غضب بعض النقاد لهذا الخرق الإضطراري. ولكن، لماذا قمت بهذه المخالفة. هل قمت بذلك من باب فلسفة "خالف تعرف"؟.

الذي يعرفني لا يقتنع بهذا السبب.

فما هو السبب إذ؟

الرواية عالم رحب يتتحمل كل شيء. إنها كما يقول الناقد الروسي دمtri ساتونسكي في كتابه الرواية والقرن العشرون: "قصة نثرية بمساحة كبيرة". يمكن للروائي أن يشحذ هذه المساحة الكبيرة بالأفكار والسير الذاتية والرسائل والريبورتاجات والوثائق والأسطورة. إلخ، ولكن يجب أن يرتب بطريقة تلائم فن الرواية الحديثة التي تخلق من كل تلك الأشياء وحدة متكاملة يبلورها ويشارك فيها بطل واحد أو عائلة واحدة أو مجموعة أبطال رئيسين

وثانويين لها مساس معين بالخط الأحمر الذي يطوق الأحداث ويربطها بالحياة كشدة ورد يلفها خيط من سيقانها.

منذ فترة غير قصيرة، تتجاوز عشر سنوات وأنا (تحصرني) فكرة كتابة رواية تتناول سيرة حياة دكتاتور، لا على التعين "نشوؤه، صعوده ونهايته". كنت أحياناً أستسخف مشروعى الذى أراه مجرد فكرة طارئة ستتلاشى مع الزمن، إذ أن حشر شخصية، لا تعرفها ولم تختلط بها، ناهيك عن البروتوكولات التي تسير حياته في رواية طويلة، مسألة غير هينة. إن الكتاب وأي كتاب هو في الحقيقة بضاعة – في عين الناشر طبعاً – فمن من الناشرين على إستعداد للمغامرة بإنزال مثل هذه البضاعة إلى السوق؟

تركت الفكرة وشأنها، بيد إني لم أنسها، إذ أن الإنسان لا يمكن أن يجبر نفسه على نسيان شيء لا يريد أن يمحى من ذاكرته. وأحسست أن الفكرة بدأت تأخذ إستقلالها الذاتي وتنظم نفسها بنفسها بمعزل عنى وتخاطط من أجل الضغط على لأداء دورى فيأخذ الفكرة بجد. والمشكلة التي تحسم مسألة نسيان الفكرة أو عدم نسيانها هي "الضغط" الذى يمارس تجاه الكاتب، دون أن يدرى هذا شيئاً عن المصدر المحرك لل فكرة. هنا تبدأ مرحلة الحمل، حيث يتحول الكاتب إلى إمرأة حبل بالفكرة (الرواية) دون أي تماس جنسى، شأنه شأن مريم العذراء عليها السلام. وأحسست بالضغط الصادر على من الفكرة، حيث تريد الخروج إلى عالم النور بأسرع وقت ممكن. هذا الشعور الغريب لا يحس به سوى من يكتب أو يرسم أو ينحت أو يخترع، حيث يحولك إلى عبد يشدك إلى العمل الإبداعي الذى لا يمكنك الخلاص من قيوده، إلا بعد إنجازك له، حيث تستعيد حرثتك. أعتقد أن العمل الإبداعي هذا، كان يسمى في العصر الجاهلي بالوحى الذى ما زال جارياً في العصر الحديث، مع اختلاف طفيف في الجوهر. ولما كانت هذه العملية الإبداعية هي نتاج الموضوعية المعرفية(قانون التراكم الكمى يؤدى إلى التغير النوعي)، لذا يمكن

إعتباره خطوة تقدمية إلى الأمام.

وهكذا رضخت للأمر الواقع وبدأت أفكر في رسم خطة الرواية. وراحت الأفكار المتداخلة تتحقق بي من كل الجهات. الموضوع إذاً يتناول حياة دكتاتور ضمن صراعه المستميت من أجل السلطة ضد دكتاتور آخر، أقل وطأة منه، الأخير هو رئيس الدولة المعتمد والثاني، الذي يريد أن يحتل مكان الرئيس المعتمد بأي ثمن كان، هو مساعد الرئيس الذي يتصف بالشراسة والعداونية والغرور والتعذيب حتى الموت، لا يردعه رادع من إستعمال أبشع الوسائل في الإبادة الجماعية. وقبل أن أدير رأسني للبحث عن دكتاتور نموذجي، تتتوفر فيه المواصفات المطلوبة، فوجئت بطابور منهم يقف في خط طويل أمامي، حيث يرتدون الملابس العسكرية ويحملون مختلف أنواع الأوسمة والنياشين التي يستوحون منها بوزاتهم ويعتبرونها دلائل ثبوتية ملموسة كونهم عملوا إلى جانب دكتاتور أكبر، يعني في نظرهم ابن الشعب البار أو القائد الأب أو الزعيم الأوحد.

فكرت في إختيار نموذج واحد وتطويره بشكل يمثل جميع الجوانب السلبية التي تستحق لعنة القاريء، بيد إنني سرعان ما عدلت عن الفكرة بسبب عدم إقتناعي بموضوعيتي في تناول الشخصية بصورة عادلة، إذ أن الدكتاتور إنسان مثنا، له جوانبه الإنسانية المخفية أيضاً، بيد أنك مهما حاولت إظهار هذا الجانب الخفي وأعطيته صفة البراءة، لما تمكنك أن تقنع الآخرين بمصداقية رأيك. ناهيك أنهم يصفونك بالغفلة والسداجة فمن المستحيل، في رأيهم، أن يكون الذئب بريئاً. إن توبه الذئب في قتله. كما يقول المثل الشعبي، ثم أنني لا أريد الوقوع في مطبات السياسة والدعائية الساذجة. هذا بالرغم من أن تكون حيادياً تجاه دكتاتور لأمر في غاية الصعوبة.

وراحت أفكر طويلاً في إختيار البطل الرئيس والأبطال الثانويين الذين تلهفوا للعب الدور الرئيسي، إذ أن من إحدى صفات الدكتاتوريين، حب الظهور.

الشيء المهم عندهم هو أن يتتحولوا إلى مادة للكتابة ولا يهمهم بعد ذلك ما إذا كانت لهم ألم عليهم. ومع ذلك يعرفون كيف ينتقمون من من أساء إلى سمعتهم.

وراحت الأسماء تتتسابق للوصول إلى عتبة الرواية:

وهي مجموعة من الحالات البشرية التي يرقد أغلبها تحت مزبلة التاريخ. والبقية الباقيه تنتظر دورها الحتمي للركون إلى المصير نفسه.

تبين لي أنهم ضعاف النفوس أمام المدح. كل واحد منهم يريد أن يكون هو عنوان الرواية. في اللحظات التي كانوا يتتسابقون فيها من أجل الحصول على رغبتهم، ففرأى ذهني فكرة مفارتها أخذ عادة أو خصلة أو طبيعة معينة من كل دكتاتور وإصالقها بجسد أسوأ دكتاتور، تحول في أواخر أيامه إلى قره قوز. إنتفقوا بالإجماع على هذا الإقتراح. المهم هو ذكر أسمائهم التي أصبحت في طي النسيان.

وعلى الرغم أن الدكتاتوريين يكونون عادة أساساً مدميين، وهذا يعتبر أحد الشروط الضرورية في أن تحمل لقب الدكتاتور عن جدارة، فإنهم، نتيجة للفارق الفردي فيما بينهم يختلفون عن بعضهم بعضاً، ولذلك يكون التعامل معهم أمراً صعباً. هناك دكتاتور يبيد وأخر يقتل وثمة دكتاتور يبني ويهدم. ما الفرق بين الإبادة والقتل؟ الإبادة تكون تجاه أقلية يحتقرها الدكتاتور، فيأمر بإبادتها ودفنها في مقابر جماعية يخفيها في أماكن مختلفة سرية غير معروفة عند مواطني البلد. وتسمى هذه الطريقة من الجريمة بجرائم ضد الإنسانية. وأما القتل فيجري تجاه عدد من الثوار الذين يرميهم الدكتاتور بالرصاص في مكان عام بدون محاكمة ليجعل منهم عبرة لمن يريد التحرش بنظام حكمه. وماذا يسمى هذا النوع من الجرائم؟ لا أدرى.

إن القاتل حين يتبع بالقتل علناً، إنما لكي يثبت لمقابله إنه فعل ذلك إنطلاقاً من مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة". أو إنه مستعد لقتل العشرات بل المئات من البشر في سبيل العقيدة التي يؤمن بها هو، ولا يؤمن بها أولئك الذين، ربما

لهم عقائدهم الخاصة بهم. إن موقفه هذا المؤشر واضح إلى كونه كان جباناً
منذ طفولته ليس إلا.

كيف تساوي إذاً بين دكتاتورين، تورطا في قتل مجموعة من البشر الأبراء،
لا ذنب لهم سوى أن شجاعتهم دفعتهم لنقد الدكتاتور.

قتل إمرئ في غابة جريمة لا تغفر

قتل شعب آمن مسألة فيها نظر

يعيدنا هذا البيت إلى التأمل في الفروق الفردية بين دكتاتور وآخر.

إنني إذاً بين إحتمالين، الإحتمال الأول: أن أفشل في تقديم رواية ناجحة
(غير مملة) أي، إذا أحس القاري مني الصفحات الأولى بأن الرواية مملة، لا
يمكن من مواصلة القراءة، أكون قد فشلت في عرض شخصية الدكتاتور
وسيرته الذاتية وصراعه المستميت من أجل السلطة بصورة تشد القارئ إلى
الرواية.

الإحتمال الثاني: أن أنجح في شد القارئ إلى عالم الرواية، وجلب إنتباهه،
ذلك أن نجاح الرواية مرهون بموضوع حاسم، ألا وهو ما إذا كانت الرواية
مملاً أم مشوقة.

هنا، لابد لي أن أحدد موقفي من الإحتمالين. إذا إنتصر الإحتمال الأول، أي
الفاشل، فينبعلي أن أعيد النظر في مجلمل طريقة كتابتي التي قد تؤدي
إلى التوقف النهائي عن كتابة الرواية. وأما إذا إنتصر الإحتمال الثاني، فهات يا
قلم.

ولتوضيح المسألة بما يتعلق بالفن الروائي وسر الشخصيات الروائية وحركة
الأحداث والقوى المحركة لها ومن أوجدها أو أبدعها، فأقول بأنني لم أعايش
ولم أعش الأحداث شخصياً، أي إنني لست الشخص الرواقي. الشخص
الراوي كان يحكى لي الأحداث التي عاشها فعلاً. وكان يؤكّد علي دوماً، بعد

إنتهائه من رواية أحد المقاطع بأن يبقى ما يرويه لي سراً بيننا فقط. كنت أعرف أن دافعه للكلام هو كي يخفف من عبء الأحداث على نفسه وليس فضح جهة ما. كان لا يعرف بأنني بعد إنتهائه من رواية مقطع من حكاياته، أخلو إلى نفسي وأسجل ما رواه لي حرفيًا على الورق. كان لا يدرى بأنني كاتب روائي. ولكنه كان متأنداً بأتني لن أخونه.

زهدي الداودي

الطابور الطويل يزحف ببطء شديد بإتجاه الباب الحديدي بعد رحلة متعبة، لا يلبث أن يتوقف عن الحركة، حين يقف الرجل الذي يسمونه بـ(رأس الطابور) أمام موظف جالس وراء منضدة قديمة ينقل المعلومات المثبتة في هويته الشخصية إلى إستماراة تحتوي على الأسئلة المطلوبة. الطرف الثاني من الطابور، يمتد بعيداً إلى ما وراء الأفق الرمادي، بحيث تتلاشى نهايته وراء العواصف الرملية والأتربة المتصاعدة التي تبعث من رقعة من الوديان المتداخلة التي تتحرك فوقها حفارات عملاقة، تحيط بها مكائن ونقاط سوداء تتحرك وتتنقل من مكان إلى آخر. وبين فينة وأخرى تفلت موجة، تسدل ستاراً ترابياً على المكان، أشبه بغيمة هائلة، تخفي النقاط السوداء والمكائن عن الرؤية على مدى دقائق غير قليلة. وثمة نساء ورجال، يبدوا عليهم التعب والإرهاق، يحملون أكياساً بيضاء، تحتوي شيئاً ما، يأتون من جهة الأفق بموازاة الطابور كما لو أنهم يهتدون به. ييد أن الطابور القادم ما أن يقترب من البوابة الحدية، إلا ويترفع جانباً إلى بوابة خشبية أخرى يحرسها أفراد من شرطة الصحراء. إن هؤلاء بإنتظار وصول باصات لنقلهم إلى المدينة.

أفراد الطابور الأول الذي يقف أمام الباب الحديدي، يتسلمون من الموظف المسؤول الذي يحيط به مجموعة من الموظفين الصغار والعمال، كيساً مليئاً بالمواد الغذائية الناشفة وزجاجات المياه المعدنية. وعند تسليم الكيس يقول الموظف بلهجة ودية:

"حاول أن لا تسرف في شرب الماء وإنما لا تستعرض نفسك للخطر"
ثم ينادي على الشخص الذي يليه ويعيد معه العملية نفسها ولكن ببطء أشد.

ويتخذ مستلزم الزاد ضمن الطابور الآخر طريقه بإتجاه المكان الذي تتصاعد منه غيوم الرمال والأترية.

إن الطابورين في حركة ذهاب وإياب مستمرتين. تبدأ مع شروق الشمس وتنتهي مع غروبها، حيث يجذبون إلى الراحة في خيام ينصبها رجال أشداء من البدو يرافقون الطابورين. وأما الذين يعشرون على رفات شهدائهم، فيحصلون على ورقة تأييد من أحد موظفي هيئة الأمم المتحدة المتواجدين هناك مع كيس من قماش الخام يحتوي على الرفات والأدلة الثبوتية. آنذاك يحق للشخص أو العائلة العودة إلى بلدتهم أو مدينتهم بأحد الباصات المخصصة لهذا الغرض. وتحرك الباصات الموجودة هناك تحت إشراف هيئة الأمم. تستغرق عملية البحث والعثور على رفات الفقيد، أسبوعاً كاملاً، وبخلافه يحال صاحب الميت إلى أقرب مقبرة جماعية.

ولما كان جميع السائرين في الطابورين، تجمعهم مصيبة مشتركة، لذا كانت ثمرة رابطة روحية داخلية محكمة تشد من أزرهم وترتبط ببعضهم بعضاً. كانوا يسلون أنفسهم برواية أنواع القصص البطولية التي عاشها فقيدهم إلى أن اختفى ذات يوم ولم يعد إلى البيت، إلى أن تم العثور على رفاته الراقد داخل هذا الكيس.

سأله شقيق أحد الباقيين من الرجال الخمسة، الذين أُغتيلوا بصورة غامضة، وفي أماكن متفرقة، صديق أحد المغدورين من هؤلاء، دون أن يصدق ما سمعه:

"متى حدث ذلك؟"

أجاب الراوي، الذي عاشر الأحداث، كشاهد عيان رأى كل شيء بأم عينيه، والذي كان يروي الحكايات بلهجة صارمة كأنه يريد أن يثبت بأن الحق يقف إلى جانبه:

"حدث ذلك قبل أعوام طويلة وأزمان مختلفة، احتلط فيها الحابل بالنابل، لا يمكن حصرها بالدقة التي يتطلبها إنسان طبيعي عاقل ينظر إلى الأحداث بنظرة من يبحث عن أب القبيط كما يقول المثل. ولكن، كيف انتشر الحديث أو الخبر الطويل ووصل في حينه إلى هذا المكان المرعب الذي لا يعرف سكانه إلا لغة الهمسات والنظارات والإشارات؟ أناس حولتهم أقدارهم إلى مخلوقات تعيش منذ أمد بعيد في أنفاق تحت الأرض نسيت ضوء الشمس وشعاع القمر وألوان أوراق الأشجار ونسيت أيضاً التهم الموجهة إليها، بيد أن البعض من هذه المخلوقات، لا يزال يتذكر نتفاً من هذه التهم التافهة التي فحواها أن أحدهم قد تجراً وبلغت به الحماقة أن اتهم رئيس الجمهورية بأنه مارس الجنس في حينه مع الحمار أو اتهم نائبه بأنه مثليٌ وأمه عاهرة وبعض هؤلاء تحدى الحكومة ووقف بوجهها واقفاً إلى جانب المعارضه يريد إسقاطها بكل الوسائل. وثمة تهم عجيبة وغريبة أصقت بهم غدرًا وبهتانًا مثل شرب الخمر والتسلك والتحرش بالنساء أو تحريض وخلق التذمر ضد السلطة بحجة عدم وجود الكهرباء والماء وهيمنة الغلاء الفاحش على السوق. ويعلم الكثير من لهم أقارب في صفوف هؤلاء المنسين بأن معظمهم من المحامين والمدرسين والطلبة والمهندسين والأطباء والعمال والكسبة والفالحين وغيرهم كما وبين هؤلاء نساء باكرات كن عذرًا وآمهات مع أطفالهن وصبيان صغار لا يتجاوزن الخامسة عشرة. قسم منهم محكوم بالإعدام وقسم آخر لم يجر معه أي تحقيق منذ سنوات".

توقف الرجل برهة عن الحديث، كي يأخذ نفساً طويلاً ينشط من خلاله رئيشه المتعبن اللتين راحتا تضغطان على صدره. قال بعد أن أحس بالراحة في أنحاء جسمه:

"وظل الناس على مدى عقود من الزمن يحلمون بمن يأتي وينفذهم من هذا الظلم المسلط عليهم. وشاعت الأقدار أن يأتي من يزيح هؤلاء وينشر العدالة

والأمن بين الناس، بيد أن ما جاء لم يكن غيوماً محملة بمياه الأمطار التي كانت الأرض العطشى تنتظرها، بل سراياً منتشرأ على صحراء قاحلة، راح يتحدى في ظلمه من سبقهم.

كان سارق الأكفان الأبن أسوأ بكثير من سارق الأكفان الأب

سكت الرجل برهة وهو يتنفس بصعوبة ثم أضاف:

"إن سلاسل الظلم لم تقطع ولم تخف وسواء صدقت أم لم تصدق، فأننا سأظل لا أثر، فحسب، بل أرفع السلاح في وجوههم إلى أن ينصرني الله عليهم، تطاردهم الهزيمة الشنعاء إلى حيث الدرك الأسفل"

٢

طلب مساعد الرئيس من سكرتيره، وهو يمد يده لرفع سماعة التلفون، أن يترك الغرفة نحو ربع الساعة على أن يجلب معه فنجان قهوة عند عودته إلى مكانه. حين خلت الغرفة وتتأكد المساعدين أن كلامه لا يصل إلى مسامع أي إنسان آخر، تحدث عبر الهاتف مع مدير الأمن العام، هكذا بدون مقدمات أو الاستفسار عن الصحة والأوضاع سواء في محيط العائلة أو في مجال الأوضاع العامة والويل من يخرق هذه العادة التي يعرف بها معظم المحظيين به:

"هناك مهمة أحتج لها إلى نحو سبعة أشخاص، لا يعرفون الرحمة، من المحكومين بالإعدام. تتأكد من أنهم لا يثثرون وينفذون الأوامر بحذافيرها على أن يكونوا غير فضوليين. أعلم أن واجبهم هو تنفيذ الأوامر وليس النقاش الذي قد يؤدي إلى فقدان رؤوسهم. بعد إنتهاء مهماتهم سيعينون في جهاز الأمن أو الشرطة، طبعاً ليس بصورة عشوائية. كن دقيقاً في اختيارك الذي ستتحمل أنت مسؤوليته. مفهوم؟ عندك سؤال؟"

"نعم سيدى. كل شيء واضح. متى تحتاجهم سيدى"

"في أسرع وقت ممكن، ولكن المهم هو النوعيات"

كان مدير الأمن العام على اطلاع تام بالمحكومين بالإعدام أو الحكم المؤبد ويعرفهم واحداً واحداً. معظمهم من السجناء غير السياسيين المعروفين بالعاديين. كانوا موزعين في غرف إعدام انفرادية لا تبدو عليهم معالم الخوف إلا نادراً، يعتبرون أنفسهم أبطالاً يختلفون عن كل السجناء الآخرين. كان مدير الأمن العام يحتك بهم ويتظاهر باحترامهم، ذلك أنه يعتبرهم من المشكلات المحلولة التي لا تقبل الجدال وتشكل قوة غير منتظمة لمواجهة أعداء النظام في الأوقات الحرجة. وكان مساعد الرئيس يؤكد دوماً على ضرورة الاهتمام بهؤلاء الذين قد يحتاجونهم ذات يوم. وأنك إذا حشمت هؤلاء فانهم مستعدون للذهاب معك حتى إلى الجحيم"

كان مدير الأمن العام يعرف سيده جيداً ويعرف أساليبه في القضاء على أعدائه ومعارضيه، ذلك أنه شريكه الحقيقي في تنفيذ ولائم القضاء على من عليه أقل شبهة في معاداته. وعندما كان المساعد، كعادته دائماً بعد كل جريمة، يؤكد عليه بالحفظ على سرية العمل، يجيبه رأساً في كل مرة (السر عندي باب ضاعت مفاتيحه). وفكر مدير الأمن أن سيده لا شك يحتاج إلى هؤلاء البلطجية للقضاء على كتل المعارضة الدينية التي ساعدته في حينه للوصول إلى الحكم، ولكنه لماذا اختار بالذات هؤلاء البلطجية الذين لا قيم عندهم ولا أخلاق ناهيك عن الضبط وكتمان السر. ولأول مرة يفكر مدير الأمن العام بعمق في عملية إناطة الواجب إلى مثل هؤلاء الذين يسميهما الساقطين. وحين طال به التفكير دون أن يجد سبباً، صعد من أعماقه نداء يحذر وينبه إلى خطورة التفكير بهذا الشكل ويطلب منه أن لا يعرض عنقه إلى الذبح. نزع نظراته السميكه وقام من مكانه كما لو أنه نسى أمراً تذكره تواً. وقرر في نفسه أن لا يوسم ولا يتدخل في شؤون السيد المساعد الذي تغيرت أخلاقه وطبعته ومزاجه، على

أن يسعى بصورة سرية لمعرفة السر. أتته فكرة أن يسأل السيد المساعد عن المهمة التي تناط بهؤلاء كي يتمكن في ضوء ذلك من اختيار المجرمين المناسبين للعملية وإنما المسألة ستتيه وتضيع النقطة الأساسية، ولكن، ألا يعتبر ذلك تدخلاً في شؤون السيد المساعد؟ وويل من يغضب عليه هذا السيد المساعد الملعون، وما أدرك ما المساعد الملعون. لا سؤال ولا فضول ولا هم يحزنون. إنه موظف كبير بقي حتى الآن في خدمة الدولة بفضل عدم طرحه الأسئلة الغبية التي أدت إلى تدرج رؤوس خيرة أصدقائه، بل وخيرة أقرب أقاربه. السكوت إذاً من ذهب. وما عليه سوى أن يخدم المساعد ويقدم له الولاء والطاعة.

أتته رغبة جارفة للقيام بال مهمة ولا شك أن السيد المساعد سيبار هو شخصياً لإطلاعه عليها بعد نجاحها فلا داعي للفضول.

سبعة رجال أشداء من المحكومين بالإعدام. فكرة غريبة لا تخطر ببال أحد. هنا تكمن إذاً عبرية القائد الذي ينبغي أن يتخلص من لقب المساعد. ولماذا المساعد وليس الرئيس. هل هذا الرئيس الغبي أحسن منه؟ إذا أردت أن تدغدغ مشاعر المساعد، فاجعل الرئيس هدفاً للطعن به أو جعله موضوعاً لنكتة تفاصح فيها غباءه. من أين جاء هذا الرئيس الذي وضع نفسه على قمة السلطة؟ ألم يضعه المساعد هناك مضحياً بموقعه وضارباً عتاب المعاتبين في عرض الحائط. إن مثل هذا البطل لا يقتصر وويل من يستعرض عضلاته في وجهه.

كان من عادة مدير الأمن العام حفظ ملفات المحكومين بالاعدام، بعد إعادتها من مكتب رئيس الجمهورية، في مكتبه هو، إذ من عادته إجراء تحقيقات طويلة وعريضة معهم تتعلق بمعرفة سيرهم الذاتية والعشيرة التي ينتمون إليها، ذلك أن معظم العشائر يدافع عن أبنائهما ويحاول بكل الوسائل تخفيف حكم الاعدام وهكذا تجري المساومات بين الدولة والعشائر على حساب

عنق المحكوم الذي يترك أمره بيد رئيس العشيرة، وقد تلعب الرشوة الدسمة دوراً حاسماً في إنقاذ رأس المحكوم ليس من حبل المشنقة فحسب، بل إطلاق سراحه والعودة إلى البيتسالما معززاً، حيث يعمل له هوية جديدة ويجري تبديله مع أحد المجانين النازلين في مستشفى الأمراض العقلية التي يجري سحبه منها إلى مكان آخر لغرض اعدامه.

بعد إلقاء نظرة سريعة على الملفات التي جمعها سكرتيره، تبين لمدير الأمن العام أن عدد المحكومين بالإعدام هم ثلاثة شخصاً، ينتهيون إلى عشرات كبيرة وشبه متنقلة. سحب سبعة ملفات لمحكومين لا ينتهيون إلى أي عشيرة ثم أوعز إلى سكرتيره أن يعيد الملفات إلى أماكنها وهو يقول في نفسه: "تجنب شر القطاعي المتخلّف". المفترض في مثل هذه الحالات أن المدير العام يقوم بتوزيع الاستثمارات أو جداول الأعمال على موظفين مختصين، يرتبطون به مباشرة ويقوم هذا الموظف باستدعاء المحكوم من زنزانته وطرح الأسئلة المثبتة في الاستثمار عليه ويقوم الموظف بتسجيل الأجرمية في الاستثمار بعد مقارنته مع استثمارات قديمة سبق أن أجاب عنها المحكوم. أما بالنسبة إلى طلب السيد مساعد الرئيس الذي جاء مباشرة من عنده، فهو سري للغاية لا يجوز أن يطلع عليه حتى رئيس الجمهورية الذي هو الآخر يت俊ب التدخل في شؤون مساعدته. إنها مسألة معقدة بعض الشيء للإنسان العادي، ولكنها مفهومة من قبل المساعد ومدير أمنه العام.

اتصل مدير الأمن تلفونيا بمدير السجن وطلب منه أن يجلب له سبعة محكومين بالإعدام من الذين تم الاتفاق عليهم مع سكرتيره. ظن مدير السجن أن الأمر يتعلق بإعدامهم ولذلك استفسر بصورة لا إرادية ما إذا عليه اتخاذ الإجراءات اللازمة مع الجلادين. قال مدير الأمن بصورة عصبية: "يا حمار، من قال لك انهم سيعذبون. ستفقد رأسك ذات يوم بسبب لسانك الشرشار".

"العفو ثيدي. ثار عندي التباث"

"اسمع جيداً، اجلبهم خلال أقل من ساعة. رافقهم بنفسك، اشعارهم بالاحترام تجاههم، دون أن تتبدل معهم كلمة واحدة. مفهوم؟ يجب أن تتم العملية بسرية تامة. أقل تسرب للخبر سيؤدي إلى تدحرج رأسك، مفهوم؟"
"نعم ثيدي، مفهوم"

فضول داخلي يلح عليه لمعرفة هدف مساعد الرئيس من استدعاء سبعة رجال من المحكومين بالإعدام. كيف يمكنه كشف السر المستتر في صدر مساعد الرئيس؟ كلا، كلا. الاستعجال لمعرفة السر فيه خطورة كبيرة. عليه أن يتحلى بالصبر. ليس من الضرورة أن يعرف مدير الأمن العام كل شيء. إن الأيام هي التي ستكتشف كل سر، إذ أن حامل السر لا يمكن من حمل السر إلى الأبد.

وصل مدير السجن المركزي خلال أقل من ساعة بسيارة نقل مغلقة عائدة لإدارة الشرطة تحمل سبعة محكومين بالإعدام. استقبلهم مدير الأمن العام شخصياً. أدخلت السيارة إلى كراج خاص، طلب فيه مدير الأمن العام من سكرتيره أن يعيده مدير السجن المركزي إلى دائنته. بعد أن تم غلق باب الكراج، فتح المدير باب السيارة وطلب من الرجال السبعة أن يتربّلوا. كان المحكومون بالإعدام يعرفون مدير الأمن العام. على أثر ذلك اقشعرت أبدانهم وتحولت وجوههم إلى مجرد جلد جاف تغطيه معالم الخوف. إن المدير العام رجل ضئيل بعينين ضعيفتين، تبدو على ملامحه القسوة والعنف، إذا رأيته في الشارع لما أسترعى انتباهاك، ولكنه حين يحمل العصا أو السوط وينهض بالضرب على الشخص الذي يتحقق معه، آنذاك تعرف كم مكروه هذا الثعبان السام. تطلع المدير العام إلى وجوههم بدقة وعلم أنهم لم يتنسوا حفلات التعذيب التي جرت معهم. ولكنه حين تذكر كلام السيد المساعد بخصوص إشعارهم بنوع من الاحترام، رأى أن يطمئنهم ويخرجهم من هوة الصدمة

التي أصيّبوا بها. بعد أن قطعوا ممراً معتماً، قادهم إلى غرفة جانبية مفروشة بالأثاث الكامل مع مطبخ صغير وجهاز تلفزيون وفيديو مع منضدة طويلة تحيط بها تسعه كراسٍ فخمة. طلب إليهم بلطف أن يتذكروا أماكنهم عليها. كان المدير لا يزال يتحقق في وجوههم التي ما زالت مكتسبة بالخوف. كانت الساعة المعلقة على الجدار تشير إلى الواحدة والربع ظهراً. رحب بهم المدير بلهجة، بذل فيها جهده، أن تكون ودية ثم قال بعد أن هم يتركون الغرفة:

”لا شك اننا كلنا جياع وفي كل الأحوال حان موعد الغداء، سأرجع فوراً“

حين ترك المدير الغرفة، علق أحدهم بلهجة مرحة:

”والكعبة هاي آخر غدة وأخر يوم من حياتنا“

لم يستجب أحد لكلامه، إذ أن الجميع كان لا يزال حائراً وغير مصدق لما يجري حواليه. أحدهم حاول أن ينبهه بالاشارات إلى إحتمال وجود لاقطات. خيم عليهم الصمت لحين عودة المدير بعد دقائق. رغم محاولة المدير خلق نوع من الجو الآليف، فإنه لم يفلح في مهمته. كان يعرف جيداً بأن طبيعته جافة لا يمكن تغييرها.

”ولعل هذه الصفة المتأصلة فيه هي التي جعلته أن يتسلّم مهمة منصب المدير العام لجهاز الأمن.“

قالها في نفسه ثم اتّخذ مكانه في الصدارة وقال أن لديهم بعض الوقت للدردشة لحين مجيء الطعام، واصلمن دون مقدمات أو المبالغة بالترحيب بهم، لاسيما أنه هو نفسه لا يعرف سبب جمع هذا العدد من المحكومين بالإعدام:

”إخوان، أسمح لنفسي أن أتحدث معكم بصرامة وأقول بصرامة أيضاً بأنني أنا الآخر مثلكم لا أعرف سبب جلب سبعة محكومين بالإعدام، ولكنني أطمئنكم بأن حضوركم هنا ليس له أي علاقة باعدامكم. كل ما في الأمر هو

أن السيد المساعد قد طلب بصورة سرية هذا العدد من المحكومين بالاعدام.
ومن طبيعة السيد المساعد أنه يحب الشجعان الذين يتحدون الموت ولا يهابون شيئاً. إنه بصرامة يحتاجكم. لا أستطيع أن أتكلم أكثر من هذا. ستلتقون به إن شاء الله قريباً وسيتحدث معكم بالتفصيل حول المهمات التي ينطليها بكم.
وعليكم أن تكونوا صريحين وصادقين معه. واعلموا أن قرارات السيد المساعد
قاطعة لا تقبل النقاش"

قالوا بصوت واحد:

"نديه بالروح والدم"

آنذاك جاءت صحون الطعام الشهي. لم يشترك المدير معهم في تناول الطعام، معتقداً منهم أنه يجب أن يحضر إجتماعاً مهماً على أن يعود إليهم بعد نصف الساعة. بعد أداء مهمة جلب الطعام المتكون من الثريد الدليمي واللحم، ترك الخدم الغرفة. عند ذلك بدأت الهمسات تطفي على الجو المشحون بالخوف والشك في ما إذا كان الطعام مسموماً. قال أحدهم وهو يمد يده إلى قطعة لحم محمر:

"إخوان، إنهم إذا كانوا يريدون قتلنا فقبل المسينقة موجود في غرفة الإعدام وغرفة الإعدام غير بعيدة عننا، فلماذا كل هذا الإيراد والمصرف. هل لأن عيوننا سود؟ أنا أعتقد إنهم سيكتفوننا بالقيام بأعمال غير سهلة لا يعلم بطبعتها إلا الله العليم الحكيم، ولذلك أقول لكم كلوا وتحزموا"

قال أحدهم:

"والله هذا الكلام صحيح"

علق آخر:

"والله ما أستغني عن طعامي حتى لو فيه ألف سم"
رغم بدئهم بالأكل، فإن الشكوك كانت ما زالت تساورهم، ولكن اعتقاد

الأكثريّة وإصرارها بعدم وجود السم، جعلهم كلهم يتناولون الطعام بدون خشية أو تحفظ. بعد هنีهة من الإنفاس، دخلت إمرأة متلفعة بالسواد، بعينين جميلتين وهي تحمل صينية تحتوي على سبعة إستكانات شاي. وقبل أن تترك الغرفة أدارت عينيها في كل الوجوه التي راحت تحدق فيها بفضول ودهشة وإعجاب بدائي مع حنين إلى المرأة التي افتقدوها منذ أمد بعيد. قالت وهي تبعث من وجهاها إبتسامة مشرقة:

"المدير سيتأخر بعض الشيء، عليكم تحمل الإنتظار"

قال أحدهم بلغة فصيحة تدل على أنه متعلم:

"سوف ننتظره بكل شوق وإلى الأبد"

قالت وهي تغادر الغرفة:

"بارك الله فيكم يا إخوان"

خلال شربهم الشاي الذي أسكرهم بمذاقه، راحوا يتداولون أطراف الأحاديث الطويلة التي عاشوها ولا سيما تلك التي كانت تتعلق بمصالحهم، فهي من حيث شاؤوا أم أبووا جزءاً من حياتهم. مررت ساعة على إنتظارهم متذوقون أن يظهر المدير العام. مررت الساعة بسرعة من دون أن يشعروا بالملل، إذ أنهم استغرقوا بلذة في عالم ذكرياتهم، بيد أن الساعة الثانية قد بدأت ثقيلة مملة. ودفع بهم الملل إلى أن يقوموا من أماكنهم ويبحثوا في أنحاء الغرفة عن شيء يلهون به. ربما يتم العثور على لعبة الدومينو أو الطاولي أو أي لعبة أخرى. وفي الوقت الذي كان يبحث فيه خمسة أفراد دون تحفظ في أرجاء الغرفة عما يقضى على الفراغ، كان إثنان من الجماعة، يجلسان في مكانهما بوقار، دون أن ينبسا بشيء. كانوا لا يزالان بخلاف الآخرين يضربان أحمساً بأسداس ويحاولان أيجاد تفسير لهذه العملية التي لم يسبق لها أن عاشا مثلها. كان أحد الاثنين قد عاشر السياسيين وعاش معهم في سجون مختلفة وتعلم منهم إحترام الآخرين والاستماع إلى آرائهم. إستناداً إلى كل هذه

الخلفية من المعلومات، حاول تحليل الوضع الذي هم فيه الآن. قال بصوت خافت أن السلطة في مأزق معين تحتاج للخروج منه إلى قوة مقدامة غير سياسية. وأما طبيعة هذا المأزق، فلا يعرف بها إلا الله. وما أن يتم حل مشكلة السلطة، إلا وتبداً بإيادتنا، لأننا قد أطلعنا على سر لا يجوز الإطلاع عليه. إننا في كل الأحوال من الخاسرين. قال محدثه بصوت خافت أيضاً:

"ألا يمكننا إنقاذ أنفسنا من هذا المأزق؟"

قال صاحبه بلهجة قاطعة:

"مستحيل، نحن كتب علينا الإعدام ولن نتخلص منه إلا بقدرة قادر" عثرت المجموعة التي كانت تبحث عن لعبة ما لقضاء الوقت، على صندوق صغير يحتوي على لعبة الدومينو. وراحوا يلعبون بهفة. وأما الإثنان فرحاً يواصلان نقاشهما حول مصيرهما ومصير هؤلاء الملتئمين بلعبة الدومينو.

٣

من عادة مساعد الرئيس أنه في المسائل المهمة يستشير مستشاريه ومعاونيه، بيد أنه في المحصلة النهائية يعتمد على رأيه هو. جاء الآن دور توضيح عملية جلب الرجال السبعة المحكومين بالإعدام. قرر أن يفاتح مدير الأمن العام بالسر، ولكن ليس بالسر كله. وهو في كل الأحوال، سواء شاء أم أبى يجب أن يطلعه حتى على نصف الحقيقة خاصةً لأنه لم يقصر في إخلاصه له. ولذلك قرر أن يبرر المسألة بربطها بقضية مصير الدولة المعرضة لخطر التآمر. إذاً محاربة المتآمرين الذين يصعب إيجاد المستمسكات ضدهم، من قبل هؤلاء وإظهار الموضوع كما لو أنه جريمة عادية وبهذا تتم تصفيته كل الذين لا يعجبهم شارب السيد المساعد. مسألة صيانة حياة الجمهورية إذاً واجب وطني يقع على عاتق كل مواطن. في هذه الحالة، لا يمكن لأحد أن يتصور بأن السبب الحقيقي هو نشر الرعب في أرجاء البلاد ونزع ثقة المواطنين بالحكومة

الهزيلة التي يجب أن يزاح رئيسها ليحل محله مساعد الرئيس.

كانت قد انقضت ثلاثة ساعات على إنتظارهم، حين دخل عليهم رجل صارم الوجه وعبوس، نادى على الأسم الأول الذي قفز من مكانه صائحاً:

"نعم سيدى"

دقق الرجل في ملامحه وراح يقارنها بالصورة المثبتة في إحدى الأوراق وسأله، وهو يريه الورقة، ما إذا كان أسمه الثلاثي وتاريخ ميلاده ومكان ولادته صحيحة. هز الرقم (١) رأسه بالإيجاب، قائلاً:

"نعم سيدى"

أشر الرجل بيده أن يتبعه قائلاً:

"أمشي معى"

"نعم سيدى"

تركا الغرفة بخطوات سريعة. قطعاً ممراً طويلاً معتيناً والرجل يسرع في خطواته أكثر فأكثر. وقف الموظف المرافق أمام أحد الأبواب المنتشرة على جانبي الممر، فتح الباب وطلب من صاحبه أن يدخل. كانت الغرفة خالية سوى من منضدة وراءها كرسي جلس عليه المدير العام. أدى الموظف المرافق تحية عسكرية ثم أوقفه مقابل المدير العام بمسافة لا تتجاوز ثلاثة أمتار وترك الغرفة. كان المدير يقلب صفحات ملف وينقل نظراته بين وجه الرجل الواقف أمامه ومحتويات الملف:

"هل حصلت تغييرات في جدول أعمالك؟"

"لا سيدى"

"تكتب على؟"

"استغفر الله سيدى. أنا لا أكذب"

"شنو قصة إعتدائك على السجان؟"

"هذه الحكاية سيدى سجلوها عليّ في الدفتر دون علمي"

"إحك لي القصة باختصار"

"سيدي تكرم عاملني مثل الكلب فقلت له لو لا هذه النافذة الصغيرة لسحبتك إلى الداخل وقتلتك مثل الكلب"

"هذا تهديد بالقتل عليه عقوبة"

"سيدي، المبلل ما يخاف المطر"

"هل أنت مستعد لقتله إذا جلبته إلى هنا؟"

"سيدي سأشرب دمه"

"أريد منك أن تقتله فقط، دون أن تشرب دمه"

"أمرك سيدى"

ضغط المدير على زر الجرس، سرعان ما إنفتح الباب على أثره. دخل الموظف المارافق نفسه وأدى التحية العسكرية قائلاً:

"نعم سيدى"

قال المدير العام بارتياح:

"اجلب لي السجان زيدان"

بعد نحو ربع الساعة جيء بالسجان زيدان بالملابس المدنية، دشداشة وعقال. أخرج المدير من أحد أدراج المنضدة مسدساً سلمه إلى المحكوم بالإعدام. ما أن رأى زيدان المسدس بيده المحكوم حتى صاح بأعلى صوته:

"سيدي أنا بريء، والله بريء.. بريء.."

بدم بارد وجّه المحكوم رقم (١) فوهة المسدس باتجاه السجان وضغط على الزناد، رافقه دوي هائل هز أركان الغرفة الخالية. تطاير المخ واحتلّ بالدماء

التي التصقت بالجدار. وهمدت الجثة بعد أن تراقصت عدة دقائق. كتب المدير العام بسرعة عدة جمل في ورقة، سلمها إلى المحكوم بالإعدام رقم (١) وهو يقول: "ناجح". كان الموظف المراافق يقف وراء الأخير. بعد تسلمه الورقة طلب منه أن يتبعه.

بعد نحو بربع الساعة جاء الموظف المراافق بصحبة محكوم بالإعدام رقم (٢). سأله المدير عن أسم عشيرته، أجاب بلهجة حائرة:

"سيدي، أنا ما عندي عشيرة"

سأله باستغراب:

"يعني كمأة طالعة من الأرض لو فطر؟"

"سيدي، ألا تخضب علي إذا قلت الحقيقة؟"

"بالعكس، أنا أحب الحقيقة وأحترم رأيها"

"سيدي، أنا نغل ما أعرف أبيي"

قال المدير العام بلهجة إنتقادية هادئة:

"ولذلك قتلت أمك البريئة"

"الأمور بيد الله سيدي"

"ولكن الله لا يحضر على قتل الأبوين والأبراء"

بعد فترة صمت قصيرة، قال المدير:

"إذا اقتنعت بأن أمك كانت بريئة من التهمة الموجهة إليها، فماذا تصنع بمسبب قتلها أو الشخص الذي حرضك على قتلها؟".

أجاب بلهجة صارمة:

"سأقتلها سيدي"

أخرج المدير مسدساً من الدرج وسلمه للرقم (٢) ثم ضغط على الزر. دخل

مرافق آخر بصحبة أعرابي بالملابس الشعبية تم إيقافه لمسافة ثلاثة أمتار من المدير. أراد أن يتكلّم بيده أن المدير نهره وطلب منه أن يتحدّث حين يطلب منه الكلام. سأله ما إذا كان يعرف الشخص الواقف قربه. قال وهو ينظر باحتقار إلى الرقم (٢):

"سيدي هذا مجنون. إنه أبني ينكر أبوتي له وهو قاتل أمه" ما أن أكمل الرجل الجملة، إلا ودُوَّت الطلقة التي اخترقت صدر الرجل الذي هو على الأرض مضرجاً بدمائه. قال الرقم (٢) وهو يعيّد المسدس إلى المدير:

"بارك الله فيك يا سيدي. لأن أرتاح قلبي"

قال المدير وهو يسلّمه الورقة:

"ناجح"

أنذاك طلب منه المرافق أن يتبعه.

جاء المحكوم بالإعدام رقم (٣)، قاده الموظف المرافق إلى خارج الغرفة. بدا على المدير العام أنه مهتم بالملف بشكل خاص. كانت عيناه لا تفارقان سطور صفحات الملف، إلا لكي يلقي نظرة خاطفة على وجه المحكوم الذي يبدو هادئاً بريئاً يكاد لا يجلب الإنتباه، ناهيك من كونه محكوماً بالإعدام. واجهه المدير العام بالسؤال التالي:

"هل أنت بريء أم مذنب"

قال وإبتسامة تعلو وجهه:

"سيدي هل رأيت إنساناً يقول أنا مذنب؟"

قال المدير العام بوجه عبوس:

"بلا شقندحيات. هل زرت المدرسة؟ ما هو مؤهلك العلمي؟"

"سيدي رسبت سنتين في الخامس الأدبي، ثم تركت الدراسة"

"هل صحيح أنت نكحت أختي؟"

"نعم سيدتي"

"ومع ذلك تعتبر نفسك بريئاً. كيف تفسر هذا الموقف؟"

"سيدي، خيروني بين أن أنكحها أو أقتلها. ولما بدأوا يعورنها أمامي، دنت
نفسى. ثم أتنى لم أجد مبرراً لقتلها"

"هل حكمت لهذا السبب بالإعدام؟"

"نعم سيدتي"

سلمته الورقة قائلاً: "راسب". أراد الموظف المرافق أن يقوده إلى خارج
الغرفة، بيد أن المدير أوعز إليه أن يبقى في مكانه. بعد هنيئة جاء الموظف
المرافق بصحبة المحكوم رقم (٤). عندما وقف الرجل في المكان المعتاد نفسه،
ألقى المدير العام نظرة خاطفة على ساعته. فتح الملف دون أن ينظر إلى
محتوياته. حکى له قصة الرقم (٣) وطلب منه أن يبدي رأيه حوله وكيف ينفي
على الإنسان أن يتصرف معه. قال بجبن مقطب:

"كان عليه أن يموت سيدتي ولا يقوم بهذه الفعلة"

"هل أنت مستعد لقتله؟"

"نعم سيدتي، ولكني أحتج إلى مسدس أو سكينة"

بحركة خاطفة سحب المدير مسدساً من تحت المنضدة وأعطاه للرقم (٤). ما
أن تسلم هذا المسدس حتى وجهه باتجاه الرقم (٣) وأرداه قتيلاً. أعاد
المسدس إلى المدير العام بأعصاب باردة وهو يتمتم:

"شكراً سيدتي"

مع مرور ربع الساعة، جاء المحكوم بالإعدام رقم (٥). وقف في المكان
المخصص له وأدى تحية عسكرية واقفاً في حالة إستعداد عسكري. دون أن
ينظر إليه، راح المدير العام يقلب أوراق الملف الذي وضعه على المنضدة ثم

رفع رأسه مدققاً في قسمات وجه الرقم (٥). سأله بفضول:
"ماذا كنت تشتغل قبل دخولك السجن وصدر قرار الحكم عليك بالإعدام
شنقاً حتى الموت؟"
أجاب بفخر وقد ارتسم ظل إبتسامة مصطنعة على وجهه:
"كنت ذباجاً سيدى"
أصطعن المدير حالة من لم يفهم محتوى الجواب وقال:
"قل قصاب يذبح الحيوانات"
"لا سيدى، كنت ذباح أوادم"
"هل أنت مستعد لذبح أي إنسان؟"
"نعم سيدى، إذا تم دفع الثمن"
"كم تطلب لذبح الرأس الواحد؟"
"ورقة واحدة سيدى"
"تقصد مائة دولار"
"نعم سيدى"

سحب المدير العام ورقة من الرزمة الموضوعة على يسار المكتب. كتب بسرعة
عدة جمل ثم سلمها إلى المحكوم رقم (٥) قائلاً: "ناجح". عندها مسكه الموظف
المرافق من ذراعه وقاده إلى خارج الغرفة.

تأخر جلب المحكوم رقم (٦) بعض الشيء بسبب إصراره على ارتداء
ملابس العبيبة المزركشة التي تثبت كونه شيخ عشيرة. رفض المدير العام
مقابلته، كونه غير مؤهل لتحمل الواجبات التي ستتطلب بهؤلاء الرجال الأشداء،
وطلب بإعادته إلى زنزانته التي ينتظر فيها تنفيذ حكم الإعدام بحقه.
حين امتثل المحكوم رقم (٧) أمام المدير العام، سأله الأخير عن سبب وجوده
 هنا. أجابه الأول:

"الله وكيلاك سيدتي ما أعرف"

"ألم يحذكم أحد المسؤولين عن المهام التي ستقومون بها؟"

"لا سيدتي، الله وكيلاك"

"ماذا كنت تفعل قبل إلقاء القبض عليك"

"كنت أخطف الأطفال سيدتي، أعيدهم إلى أهلهما مقابل مبلغ يتم الإتفاق عليه"

"وإذا لم يكن في مقدور الأهل دفع المبلغ المطلوب؟"

"قتل الطفل سيدتي أو بيعه لمواطنين آسيويين منأكلة لحوم البشر"

"ما هو سعر طفل واحد مخطوف؟"

"٧٥٠٠ دولار سيدتي قابل للزيادة والنقصان. أحياناً نضطر لتسليم ثلاثة أوراق فقط

سلمه الورقة قائلاً:

"ناجح"

مسكه الموظف المراافق من ذراعه وقاده إلى خارج الغرفة.

٤

بقي من مجموع سبعة رجال خمسة فقط. اجتمع بهم المساعد في غرفة متواضعة خالية من الأثاث، ملحقة بمكتبه الرئيس. يبدو أنها خاصة للتحقيقات السريعة. ظلوا واقفين لأكثر من خمس دقائق، عندها طلب مساعد الرئيس من حمايته أن يتركوا الغرفة، كما وطلب من المحكومين بالإعدام أن يتخذوا أماكنهم على الكراسي القريبة من مكتبه البسيط. عندما ترك أفراد الحماية الغرفة، ابتسם المساعد، قائلاً:

"الآن نحن أحرار، تخلصنا من الحماية ومشاكلها وسنأخذ حريتنا في

الكلام. سنكون صريحين مع بعضنا بعضاً

سكت هنيهة، كان خلالها قد تسمر مستمعوه في أماكنهم ويتنفسون بصعوبة. قال باستعلاء عنجهي لا يخلو من الجلافة:

"كنتم سبعة أوادم، إثنان طارا. بقي خمسة فقط. على كل حال، الذي لا يعرف شغله يطلع له جناحان."

كان يضغط بيده على الملف الأصفر الملفوف، الذي وضعه على المكتب. وراح يسويه براحة يده قائلاً:

"كنتم سبعة أوادم. كان سلوككم أعنوج مثل هذا الملف، لذلك صدر بحقكم قرار الحكم بالإعدام شنقاً حتى الموت وأما أنا فسأحاول أن أضرب أولئك على فايالاتكم حتى أصنع منها صفحة سوية مثل راحة اليد، حتى تخدمون الوطن وتتخلصون من حكم الإعدام، فهل أنتم موافقون للتعاون معى؟"

قال أحدهم بصوت جهوري:

"أنت السيد نحن الخدم، نفديك بالروح والدم، ها ها ها..."

وراحوا يرددون الهاتف بصوت عالٍ وتكرار ممل. ارتاح مساعد الرئيس للهاتف الذي أشبع غريزته في التباكي. قال بوجه صارم وكلمات حادة:

"انظروا جيداً. أنا لا أرغم أحداً على إتخاذ الطريق السوي. عليكم الآن أن تحسموا أمركم مع أنفسكم. أنكم ستناطون بمهامات غير سهلة وخطرة، سيكون إتصالكم معي مباشرة دون أي شخص آخر. ستنتهي علاقتكم بي فقط حين يأخذنا الموت"

صعدت هتافات مختلفة:

"لا سمح الله يا سيدي.. الموت لأعدائك والبقاء لك..".

قال بارتياح:

"أفهم من كلامكم أنتم موافقون على نيل شرف الإنتماء إلى صفوف فصائل

خدمة الوطن، فهل هذا صحيح؟"

هتفوا بالإجماع:

"صحيح سيدى، نحن موافقون. نموت من أجلك وأجل الوطن.. الوطن أنت
وأنت الوطن. ها، ها، ها.. أنت الوطن والوطن أنت.."

سؤال وعيناه تستطلعان الوجه الباسمة:

" هل هناك سؤال أو ملاحظة؟"

أطبق عليهم الصمت، دون أن يفكر أحدهم بطرح سؤال، رغم أن الأسئلة
الكثيرة كانت تدور في رؤوسهم وتهزهم. كانوا لا يزالون لا يصدقون كونهم
جالسين مع السيد المساعد الذي يحكم البلاد وحده. ورغم أن اسمه_ كما قال
أحدهم - يأتي عادة بعد رئيس الجمهورية، إلا أنه في الحقيقة الواقع هو
الرأس الأول الذي يحكم البلد. وهذه الحقيقة يعرفها الجميع.

ضغط مساعد الرئيس على الزر المخفي تحت المكتب، وكان أن دخل أحد
أفراد حمايته. طلب منه أن يجلب الكارتون الذي يحتوي على الهدايا بعد عشر
دقائق. خلال هذه الفترة أخرج مصحفاً ملفوفاً بقمash أخضر من الدرج
ووضعه في منتصف المكتب. طلب منهم أن يقسموا واحداً إثر آخر بالصحف
على أن يبقوا ملخصين لمساعد الرئيس ولا يخونوه. جلب جندي الحماية
الكارتون ووضعه في منتصف المكتب. قال وهو يفتح الكرتون بسکينة صغيرة:

"لنر ما جلبه لنا الحظ واليانصيب. أنتم وحظكم"

بعد أن وقعت عيناها على محتويات الكارتون، قال بفرحة مصطنعة وهو
يضحك:

"الله..الله..الله.. تلفون يدوي - أضاف بدهشة- وهذا ليس كل ما في الأمر.
هناك مفاجأة أخرى. ظرف ثقيل لكل واحد منكم"

ثم طلب من كل واحد منهم أن يتقدم منه لاستلام هديته المكونة من تلفون

يدوي ومظروف يحتوي على رزمة من الدناتير، وراح مساعد الرئيس يصافحهم ويوزع عليهم الهدايا مع ورقة مستقلة صغيرة تحتوي على الرقم الخاص لتلفونه.

بعد الإنتهاء من مراسيم توزيع الهدايا، جاء دور الإختبار الأخير، فكر مساعد الرئيس الذي يمكنه، عند طرح أقل خطأ بإلغاء كل شيء وإرجاع أي واحد منهم إلى حيث أتى أو تصرفاته. وضع قائمة الأسماء أمامه وبدأ بالرقم (١) :

"ما هي واجباتك من الآن فصاعداً؟"

أجاب بلهجة عسكرية صارمة:

"سيدي أنا خادمك. واجباتي هي تنفيذ أوامرك"

"بارك الله فيك يا بنى"

وجه السؤال نفسه إلى الآخرين. كانت الأجوبة كلها متشابهة. وقبل أن يتركهم أمرهم بما يأتي:

- عدم الإحتكاك بالأهل مهما كانت درجة القرابة.

- عدم الإتصال بأي صديق.

- لا يستعمل التلفون اليدوي إلا مع السيد مساعد الرئيس.

- سيخصل كل واحد من المجموعة على بيت مؤثث. لا يجوز إعطاء العنوان لأي شخص مهما كان.

- لا يجوز أن يتزوج المنتسب أو يقيم علاقة مع امرأة إلا بموافقة مساعد الرئيس.

- لا يجوز أن يفتح حساباً في البنك إلا بموافقة السيد المساعد.

- خلال الأشهر الثلاثة الأولى يعيش المنتسب في أحد الأقسام الداخلية التابع لمكتب السيد المساعد، حيث يخضع للتدريبات العسكرية والدفاع المدني.

- أفراد المجموعة يزودون بهوية خاصة تحمل أسماء وتاريخ مستعار. عند عبور حامل الهوية من نقاط الحدود، يجب أن يقوم بحركة، تثبت كونه غير ملزم بعرض هويته.

- في فترة لاحقة يجري الإعلان بصورة رسمية عن هروب سبعة محكومين بالإعدام شنقاً حتى الموت من سجونهم. يحق للإذاعة والتلفزيون نشر الخبر لعدة أيام. كما وستجري تحقيقات للتوصيل إلى إيجاد أماكن الهاربين.

عندما اطلع نجل السيد المساعد الشاب، المسؤول عن خط الأمن والمخابرات في المنظمة السرية، على هذه التشكيلة الجديدة، التي وجدها خطيرة جداً، سأله أباًه عن واجباتها الأساسية وكيفية تمسيتها؟ وهل هي خاضعة لخطه أم تابعة لمكتب مساعد رئيس الجمهورية؟ فهو بصفته مسؤولاً عن هذا الخط لا يريد التدخل في شؤون والده، بل يريد فقط توضيح الأمور. ولكي يكون كل واحد مسؤولاً عن واجبه لا أكثر. في باديء الأمر اجتاحت الوالد موجة من الغضب وأحس بأن ابنه يريد التدخل في شؤونه، بيد أنه سرعان ما كتم غضبه الذي وجد أنه في غير محله، وأن من حق ابنه أن يعرف، مجرد المعرفة، موقفه من التشكيلة الجديدة.

كان قد جمعتهما المصادفة أن يلتقيا في مكتب الوالد الفخم، حيث دفع الحنين النجل كي يشرب فنجان قهوة عند الوالد ويدرس معه في بعض الأمور الأمنية الطارئة. وتذكر الأب أن الفكرة جاءت في الأساس من قريحة نجله. ابتسم الوالد بارتياح وهو ينظر إلى نجله بفخر:

"أنظر يا ولدي، إن لك الحق في أن تسأل كي تعرف حدود واجبك، ولكن ليس لك الحق في التدخل بشؤوني. هناك فرق كبير بين العائلة والدولة، هذا من جهة ومن الجهة الثانية، أريد أن أصارحك ببعض المسائل التي يجب أن تبقى سراً فيما بيننا".

صمت هنية، أخرج خلالها سيكاراة من العلبة الموضوعة على مكتبه. بعد أن

أشعلها ببطء وأخذ منها نفساً، واصل كلامه:

"صاحب فكرة إنشاء التشكيلة هو أنت. هل تتذكر قولك الذي أفصحت عنه قبل أشهر هنا في هذا المكان؟ وقلت لي أنه نتيجة للمعلومات المتجمعة لديك توصلت إلى حقيقة أن شلة رئيس الجمهورية بدأت تضيق علينا الخناق، لذلك يجب أن تتغدى بهم قبل أن يتغذوا بنا؟ والآن نحن في طريقنا إلى الغداء، لأنني أريد أن نخرج من مرحلة الكلام، فما هو رأيك الآن يا ولدي؟".

أجاب الأبن باندفاع:

"هذا هو الكلام المضبوط يا سيدي الرئيس طبعاً أذكر ذلك يا سيدي الرئيس وجئت إلى هنا اليوم كي أقول لكم الكلام نفسه. إننا يجب أن نعالج الأمر قبل فوات الأوان. إن الرجل تزداد شعبيته ولا يوجد أي انتقاد ضده، سواء من الناس أو الأحزاب العلنية والسرية"

"ولذلك يابني وبعد تفكير عميق في ملاحظاتك التي أخذتها من الواقع، قررت تشكيل النواة الأولى لحركة تقوم بمهمة نشر الرعب وتكتير جو الأمن في جميع أنحاء البلاد بشكل عام وفي العاصمة بشكل خاص، إذ أن هذا الشعب الأحمق والجاهل والكسول لا يستحق الهدوء والراحة. إنه يجب أن يعامل بالسياط. إن استراتيجنا إذاً هو خلق البلبلة والفوضى والخوف عند الناس. وإلا فإن هؤلاء الرعايا إذا أحسوا بأقل رخاوة من جانب السلطة، سيقابلون أوامر الدولة بالعناد. وفي الوقت نفسه ينبغي توجيه النكمة ضد شخص رئيس الجمهورية الذي ترك زوجته المسكينة وتعلق بإمرأة لا تحبه. وبهذا نسحب البساط من تحت قدميه ونرغمه على الإستقالة. أنا في الحقيقة لست من دعاة السلطة، ولكنني حين أرى رجلاً عسكرياً أمياً يقود البلد إلى الهاوية، يفرض علي الواجب التاريخي أن أؤدي مهمتي في إعادة المياه إلى مجاريها الطبيعية. إذا كانت ثمة جهة تقوم بفرض الأمن وإستتابه في البلد فهي نحن، وليس هذا الحمار العسكري الذي احترمناه أكثر من اللازم"

قام من مكانه، متوجهاً إلى نجله الذي ترك مكانه هو الآخر، قال وهو يقوده نحو الباب:

"هذا الكلام يبقى بيننا فقط، لا أريد أن تحكيه حتى لو والدتك، مفهوم؟"
"نعم بابا، مفهوم، ولكنني قبل أن أغادركم أحببت أن أنقل إليكم خبراً ذامعني، وهو أن الرئيس قد أختلف مناسبة وهمية كي يحتفل بها هو وشلته بعد يوم غد، حيث أوعز إلى عصابته لقيام بتظاهره تأييدية لسياسة الرئيس التي اعتبروها حكيمة وديمقراطية. ألا يعتبر هذا التصرف إساءة وقحة لأمن الدولة".

أجاب نائب الرئيس، وهو مندهش لعدم تسرب هذا الخبر إليه، قال:
"وماذا يعمل رجالنا في صفوفهم؟ هل رخوهن برم الدولارات؟ استدعهم كلهم واستدعى جناب حضرة مدير الأمن العام. حق معهم كلهم وسجل كل شيء بالتفصيل في المحضر. وأما بالنسبة إلى التظاهرة، فاتركوهم يفعلون ما يشاورون إلى أن يهدهم التعب، آتذاك طوقوهم من جميع الجهات وأضربوهم ضرباً مبرحاً والقوا عليهم القبض جميعاً دون إستثناء، هل كلامي مفهوم؟".

أجاب الأبن بهدوء:
"نعم سيدى الرئيس، مفهوم، ولكن ينبغي علينا أن نحسب حساب الخارج.
لا تنس أن الرئيس سيستغل لأمر ويقوم بحملة دعائية واسعة ضدنا سواء في الداخل أم الخارج. ما هي إمكاناتنا ونفوذنا في الخارج؟ أنا أعرف بأن معظم العاملين قد تحول إلى بوق له سواء في داخل الوطن أم خارجه، ناهيك عن فتح أبواب الإعلام أمام اليساريين والشيوعيين".

قال نائب الرئيس بإستخفاف:
"إننا إذا فكرنا في حساب كل سمسار، لما أستطيعنا أن نشتغل. نحن لسنا بحاجة إلى هؤلاء. إنهم هم بحاجة إلى مساعداتنا. عند أقل تدخل في شؤوننا الداخلية، يجب أن يحسبوا حساب قطع المساعدة عنهم. المهم قبل كل شيء هو

تنفيذ استراتيجيتنا، بإعلام الخارج بأن ما يعتبره البعض إستقراراً في هذا البلد ليس سوى ستارة تغطي الفوضى والفساد وحكم العصابات. وسنبدأ بالعمل قريباً جداً. وأما قصة اليساريين والشيوخين، فينبغي أن تكون حذرين تجاههم. سنضع حللاً لهم في الوقت المناسب"

٥

يعرف معظم الدائرين في فلكهما بأن الخلاف الأساسي بين كل من الرئيس مرزوق ومساعده خلف هو أن الأول لا يعترف بالثاني والثاني بدوره لا يعترف بالأول. والشيء الذي جمعهما في غفلة من الزمن هو نوع من القرابة البعيدة التي لا يعرف بأواصرها إلا الله. وحين يأتي ذكر عواد مثلاً، يقول عنه خلف مرة إنه ابن عمه، وأخرى إنه ابن خالته وعن طريق هذه القرابة الوهمية، تمكننا أن نثقاً ببعضهما بعضًاً. وهذا نفسها يعرفان أحسن من غيرهما بأن هذه الثقة ليست عميقاً وغير صميمية، بل مجرد شكل لتحقيق أمنية. كانوا يحلمان بها كنتيجة لتدور أحوال الدولة التي كان الرعايا فيما مضى يسمونها (ولاية بطين) التي كانوا في الوقت نفسه يتوقعون سقوطها في أي لحظة. ولما كان كل واحد منهمما، مرزوق وخلف، بحاجة ماسة إلى معونة الآخر، لذا ظهرت مسألة القرابة العشارية إلى العيان والميدان. كانوا يلتقيان في مضيف الشيخ محيسن الذي كان مشتركاً في جريدة الأخبار التي يرميها في إحدى الزوايا دون أن يقرأها. وكان يلتقطها كل من مرزوق وخلف ويطلعان عليها ويناقشان الموارد والأنباء الواردة فيها. كانوا يسافران إلى العاصمة معاً ويرتادان المقهى نفسه. استنتاج خلف من كلام مرزوق أن له تنظيمياً سورياً داخل القوات المسلحة، فأوحى إليه بشكل غير مباشر بأنه هو الآخر عنده منظمة سورية، ولكن بين الجماهير. بعد أن درساً بيانات المنظمتين تبين لهما أن لا فرق بين أهدافهما ووسائل تحقيقهما.

وشاء القدر أن تتأزم الأوضاع السياسية وتتفاقم أكثر فاكثراً. ورغم أن

الحكومة تعهدت بالاصلاح الجذري، فإن الجماهير لم تكف عن مطالبها التي لا تؤدي وبالتالي، إلا إلى سقوط الحكومة. وكان أن أنتبه الصديقان العدوان إلى حرارة الأوضاع وتمكنا من ركوب الموجة في اللحظة الحاسمة. وكان أن وجدا نفسيهما في قمة السلطة. ولو لا إلحاح مرزوق على ضرورةبقاء خلف إلى جانبه مع منظمته ثم لكونه ابن خالته، وهذه نقطة ضرورية لترسيخ الثقة في مثل هذه الأوضاع الدقيقة، طرده الضباط شر طرد تقىي اللحظة الحرجة التي حسمت المعركة لصالح مرزوق. ورغم أن عدم الارتياب تجاه خلف ظل يرافق المحيطين بمرزوق ويحاولون عمل شيء ضدّه، إلا أن خلف كان يقلب الآية ويوجه إليهم سهامه بنجاح إلى أن تمكن من أن يقضى على الشلة ويفتتها. لقد تسنى لخلف أن يجرد مرزوق من رجاله وبذلك تمكن من الاستيلاء على زمام أمور الأمن والمخابرات، سواء المدينة منها أم العسكرية.

كان من عادة خلف أبو السيف عند قيامه بإصدار القرارات الحاسمة، القيام بعقد إجتماع موسع يضم أولاده وإخوانه وأولاد عمّه وخالة الذين تناط إليهم عادة المهام الأمنية والمخابراتية. وكان الاجتماع يعقد في القرية وذلك في قصره الذي بناه خصيصاً مثل هذه الأغراض. كانت هذه الاجتماعات التي يسمونها حاسمة، تعقد عادة بصورة في منتهى السرية وفي الليل.

خلال ساعة واحدة تمكن الاتصال هاتفيًا وبالטלפון الخلوي بجميع أفراد الشلة. بدأ الإجتماع في تمام الساعة العاشرة مساء. افتتح خلف أبو السيف الإجتماع بكلمة ترحيبية شكر فيها الحاضرين لتجشّمهم عناء السفر. وبعد أن تحدث باسهاب حول الوضع الدولي والأمني في المنطقة، تطرق إلى السبب الرئيس الذي دعاهم لمناقشته وقال:

"ماذا سيحصل أو ما الذي ينبغي عمله إذا علمت أن جهة ما تريد أن تتغدى بك قبل أن تتغدى بها. والمصيبة أن هذه الجهة لم تكن عدوك، بل صديقك وقريبك من ظهر واحد. ناقشو هذه المعضلة بروح ديمقراطية سليمة وتَفَسَّـ غير حاقد"

رغم أن السؤال مطروح على الجميع، فليس بمقدور أحد المبادرة للإجابة عنه. الجميع في حالة إنتظار من يقع عليه الدور. وينبغي على المرشح للإجابة أن يكون حذراً في كلامه وأن لا يورط نفسه بالوقوف إلى جانب النقيض. إنه يجب أن يعرف ماذا يريد السيد المساعد. هناك جهة تهدد ليس السيد المساعد فحسب، بل تريد أن تهدد وتزيل الجهة التي يقودها. إنها معركة مصرية مخفية في الظل، تشملهم جميعاً. وهنا ينبغي التركيز على مسألة مهمة جداً، ألا وهي الشعار التالي: "من ليس معنا فهو عدونا".

قرر أن يسمع رأي كل فرد من الحاضرين، حيث راح يختار المتكلم بالتناوب، على أن يتكلم باختصار وصراحة. كان الجواب الذي اتفقوا عليه بالإجماع، كما يأتي:

"قبل أن يتعشى بنا مرزوق وزبانيته، ننعدى نحن بمرزوق وحاشيته في أقرب وقت ممكن".

علق خلف بلهجة المنتصر مبتسمًا:

"شوفوا شباب. فرقة الكاولية ما تدخل هذا القصر إلا بعد تحقيق الشعار الذي نموت من أجله".

أما تنفيذ الخطة، فسيشرف عليها السيد المساعد. قال خلف محاولاً بث الفرح والنكتة في الجو:

"ها يا شباب. ماكو هوسة شعبية؟"

وقف أحد إخوان خلف وهو يردد:

"شد حيلك خلف يا رئيسنا

أش ورطك يا مرزوق

ها..هاهاها..

أش ورطك مرزوق

يا مرزوق أش ورطك

في فجر الليلة نفسها تناقلت وكالات الأنباء والإذاعات الخبر الآتي:

"جرى في فجر هذا اليوم حادث اصطدام بين سيارة نجل رئيس الجمهورية وشاحنة كبيرة تحمل الحصو، أدى الحادث إلى وفاة نجل رئيس الجمهورية، رحمة الله وأسكنه فسيح جنانه. والتحقيقات جارية".

مع إطلاعه النهار في اليوم الثاني أخذ خلف مكانه في مكتبه حيث ألغى جميع المواعيد المرتبطة به وذلك لمراقبة تأثير وفاة نجل الرئيس على الجماهير ومدى رد فعل الأبووالرأي العام و موقفهم من الحادث. أتصل في باديء الأمر بمرزوق مباشرة يستفسره عن صحة الخبر. كان مرزوق في وضع نفسي سيء جداً، قال بألم:

"الخبر صحيح يا خلف، لقد كسر ظهري. يا ترى ما ذنب هذا المسكين. ليت هؤلاء الجبناء قتلوني أنا الذي أوصلت كل من هب ودب إلى قمة السلطة. هذا ضريبة من أخرجتهم من القاذورات"

أرتسمت إبتسامة صفراء على وجه خلف الذي أدرك أن جزءاً كبيراً من الرسالة موجه إليه وإلى بطانته. قال في نفسه: "طرز فيك وخرابي عليك وعلى بطانتك الجبانة"

ثم قال بصوت حزين مفتعل:

"رحم الله الشهيد والبقاء في حياتكم سيدى الرئيس. إن القتلة يجب أن ينالوا عقابهم. وسوف نطاردهم حتى لو صعدوا السماء السابعة. سيدى أعط أوامرك كي نبدأ باعتقال من يشتبه بهم. إن الحادث لا يبدو طبيعياً".

ورأى في نفسه أن هذه فرصة سانحة بإتجاه التحرك لنشر الفوضى والرعب في البلد.

قال مرزوق بصوت يائس:

"لا إعتقالات ولا هم يحزنون. دعوا الناس يقومون بأعمالهم ولا تشغلوهم بصراعاتنا على السلطة التي لا نشبع منها. نترك المسألة بيد الله"

تحولت أذني خلف إلى لقطين حساسين وراح يفكر في كل كلمة يطلقها مرزوق بوجهه: ما معنى نترك المسألة بيد الله؟ ثم ماذا يعني بعبارة أنا الذي أوصلت من هب ودب إلى قمة السلطة وأخرجتهم من الفاوزات. نترك المسألة بيد الله يعني أنه سينتقم بنفسه وأما من هب ودب، فيعنيني أنا ومجموعتي التي لا تُقتحم. ولنر كيف يلعب ابن خالته في هذه المعركة الفاصلة التي ستحسم أمر المجموعة.

ظل خلفطوال النهار رابضاً في مكتبه يتبع الإذاعات ووكالات الأنباء وهو يطارد آخر الانباء المتعلقة بوفاة مشكوك فيها نتيجة حادث شاحنة كبيرة تحمل الحصو وكذلك لمعرفة رد فعل المواطنين والقوى السياسية والعسكر. ولكي يتمكن منأخذ صورة متكاملة للوضع، كلف مجموعة من موظفيه ومستشاريه بتسجيل كافة الآراء الصادرة عن الجهات المختلفة. كما وأوعز إلى مؤسسات أمن الدولة والأمن الوطني والقومي والاستخبارات المدنية والعسكرية بمراقبة الوضع العام وتسجيل ما يصرح به المواطنين.

كان خلف قد اتفق مع تلك الجهات أن يقدموا تقاريرهم في تمام الساعة الثامنة مساء. وبعد ذلك يمكنهم الإنصراف إلى بيوتهم على أن يلتحقوا بالدوام في اليوم الثاني في تمام الثامنة صباحاً.

أعد له المستشار الأمني ملخصاً موضوعياً لما جاء في التقارير وقدمه له في تمام العاشرة مساء. لأول مرة يحس مساعد الرئيس بيده ترتجف، عندما مدھا إلى مستشاره الأمني، ليتسلم منه ملخص التقارير العامة. بقي خلف وحده في مكتبه وطلب من أفراد حراسه أن يصرفوا كل من يأتي لزيارته أو مراجعته وسحب رابط التلفون من مكتنه كي لا يزعجه الرنين، ثم راح يطلع على ملخص التقرير المتكون من عشرين صفحة وبيده قلم رصاص. فرأى

التقرير مرتين واقتتنع بموضوعيته، ولكنه استغرب للوضع العام ومزاج الجماهير، التي يسميهها عادة بالرعاع، على الساحة الوطنية، ذلك المزاج الذي يكاد في طريقه يصب إلى نوع من الوضع الثوري الذي إذا لم يقم ببعض الإجراءات الحاسمة لرأدها، سيؤدي حتماً إلى نشوب ثورة تهدم كل شيء. واستغرب أيضاً للشعبية التي يتمتع بها مرزوق وعائلته. وما أثارت دهشته أيضاً أصابع الاتهام الموجهة إليه وإلى رجاله من قبل تظاهرات شعبية تؤيد مرزوق والسياسة التي يتبعها. أنسد جبهته على راحة يده اليمنى وراح يددم بصوت يكاد لا يسمع:

"الأمور فالته إذاً. هذا الرجل يجب أن يكنس إلى البالوعة، هو وبطانته من العسكريين الأغبياء الذين لا يفید معهم سوى العصا"

أحس بأداجه تمتلئ غضباً. وأراد أن يقوم ببعض الإجراءات الفورية لمعالجة الأمور، بيد أنه لعن الشيطان وردد عدة مرات: الصبر من الرحمن. وكان حين يحتاجه الغضب، يضغط على أعصابه ويحسب إلى عشرة، حيث يهدأ ويقوم بوضع قراراته في ضوء الهدوء الذي يخلو من التوتر والغضب.

أعد قائمة بأسماء كبار الضباط الذين يساندون مرزوق الذي هو الآخر لا يقوم بخطوة دون إستشارتهم، كما وأعد مجموعة من القوائم تحتوي على أسماء السفراء والمديرين العامين في مختلف الوزارات. وكل من أدرج اسمه في القائمة يعتبر في عداد الموتى إن عاجلاً أم آجلاً والتهمة الموجهة إليهم هي إشتراكهم في مؤامرة لقلب نظام الحكم وأغتيال السيد رئيس الجمهورية.

بعد الإنتهاء من تسجيل ملاحظاته وأهم أفكاره على ورقة صغيرة، دعا حمایته إلى شرب الشاي معه والقيام بدردشة يتعرف من خلالها على مشاكلهم ومطالبيهم إن وجدت. رحب بهم واستفسر عن أحوالهم وأحوال عوائلهم وعن مشاكلهم إن وجدت. قالوا بالإجماع أنهم سعداء مع وضعهم الحالي ولا يهمهم سوى سلامته. وبفضلة لا يحتاجون إلى أي شيء. وبشرهم بالقرار الصادر

عن الهيئة الثورية العليا الذي يقضي برفع رواتبهم بنسبة ٢٠٪ مع صرف مخصصات خطورة الخدمة. وصعدت الزغاريد والهلاهل والهتاف بحياة السيد المساعد والتمنيات له بالصحة والسلامة والوصول إلى كرسي الرئاسة التي يستحقها بجدارة. ثم طلب منهم أن يشددوا في أمور الحماية ولا سيما أن البلد في طريقه للدخول في مرحلة جديدة تلعب فيها الدول الكبرى والمحاورة دوراً مهماً لا نعرف مدى خطورته على كياننا ولكن لا يهمكم ذلك أن مصير البلد في أيدي أمينة.

كان خلف، قبل أن يحضر مراسيم تقديم التعازي والدفن في السرادقات التي نصبواها بالقرب من منزل رئيس الجمهورية، قد سبق له أن أرسل وفداً من كبار السن ممن لهم صلة قربى مع الطرفين، ينصحونه بترك أمور رئاسة الدولة لشخص قوي لا يعرف الرحمة. وإنه في هذا العمر الذي بلغ أرذله، بحاجة إلى الهدوء وراحة البال والعبادة. أراد مرزوق أن يعرف من الذي كفه بهذه المهمة. أكدوا له أن لا أحد يمكن وراء الفكرة. وأنهم جاؤه من تلقاء أنفسهم يهزهم الخوف على حياته الغالية عليهم، فالحادث الذي فقد فيه نجله مرسوم من قبل أعدائه. وفي المرة القادمة يستهدفونه هو، فلماذا هذا التعلق الأعمى بالسلطة. قال بلهجة حاسمة وهم يجتمعون في غرفة خاصة ملحقة بالقصر:

"إنني لن أتنازل عن الرئاسة، ليس حباً بها وإنني لست من عشاق السلطة، ولكن كي أعرف من خلالها الأعداء الذين يتربصون بي. آنذاك سأقضى عليهم وأنسحب من الميدان لمن يستحقه".

تم نقل هذا الكلام إلى خلف قبل أن يصل إلى السرادقات. وكان تعليقه كما يأتى:

"إنه رئيسنا ووالدنا، سنقف إلى جانبه حتى الموت"
وفي الوقت نفسه تم نقل هذا الكلام إلى مرزوق. وكان جوابه:

"إن خلف عضيدي، ولكن كثرة من الناس لا تعرف بذلك" تصافحا وتعانقا بكل حرارة وشدة مصطنعتين. قال خلف مراراً وتكراراً: "إن دماء الإبن الزكية لن تذهب هدرا. سوف تراق الدماء وتتدرج الرؤوس وسنرى أي منقلب ينقلبون".

إجتاح رأس الرئيس خليط من الأفكار غير المتجانسة تجاه كامات مساعدة خلف، فهو من جهة يصدق كلامه إلى حد الثقة المطلقة. ومن جهة أخرى يشك في معظم كلامه الذي يبدو له أنه صادر من حيوانين في آن واحد. تارة يجد على شكل ثعلب ماكر وأخرى على هيئة ذئب غدار. والمشكلة الرئيسة تكمن في عدم التمكن من التغلب ليس على كليهما فحسب، بل على أحدهما. فالثلعلب إذا أحس بالخطر فإنه يتحول إلى ذئب لا أخطر منه، وأما الذئب فإذا أحس بالخطر فيتحول إلى نمر. والويل لمن يصادف هذه الحيوانات في الغابة.

وجد الرئيس نفسه ضعيفا أمام حيوانين يكمنان في جلد حيوان مفترس واحد. وأخبره نداء صادر من أعماقه أن كلام مساعدته خلف إنما موجه إليه هو بالذات. ولما كان مطلعاً بشكل جيد على طبيعة صاحبه، لذا أحس بخوف مصحوب بالشئم وانطبع على وجهه معالم القلق والشروع. شعر مساعدته خلف بما يهزه في الأعماق. وكان أن تنفس الصعداء لفهمه محتوى الرسالة. وقال خلف في نفسه:

"الوسيلة الوحيدة التي تخلصك من الموت المحقق، هو أن تتمثل للواقع المر وتنتازل عن منصب الرئاسة وأنت تحتفظ بماء وجهك"

تذكر الرئيس قائمة المواجهات الضرورية والمهمة التي تمكن بمساعدة سكرتيه من إلغائها بسبب المصاب الأليم. ولحت في ذهنه فكرة معالجة موعد مهم لم يتمكنوا من تغييره، هو زيارة الرئيس إلى دولة البلقان. وفكر أنه يمكنه ضرب عصفورين بحجر واحد، وهو تكليف نائبه بالسفر إلى هناك بالنيابة عنه، يعقبه مرسوم جمهوري بتعيينه سفيراً لبلاده هناك، حيث لا رجعة إلى البلد. طرح

عليه الفكرة قائلاً:

"شوف أبا السيف، إننا لم نتمكن من تأجيل موعد الزيارة إلى دولة البلقان بسبب أهميتها والزيارة مربوطة بالتوقيع على عقود إقتصادية مهمة لا يمكن تأجيلها، لذلك أقترح أن تقوم أنت بالزيارة وتحل مشكلتي:

قال مساعد الرئيس خلف بشبه توسل:

"إن عدم زيارتك شخصياً يعتبر إهانة لرئيس هذه الدولة المهمة بالنسبة إلى إقتصادنا، هذه من جهة ومن الجهة الثانية إننا في حينه اتفقنا معهم على بقائه هناك لفترة لا تقل عن ثلاثة أسابيع، تخضع فيها للعلاج الطبيعي، حيث المياه المعدنية والتadelik اليومي من قبل أجمل الملوك وثالثاً هناك خيوط مؤامرة تستهدف حياتك، اكتشفتها أجهزتنا الأمنية بقيادة مدير الأمن العام ولذلك يتطلب الأمر بقائي في البلد، بحيث أنك عند عودتك يكون كل شيء قد إنتهى وأنت مرتاح البال من القال والقول"

سرح الرئيس بفكرة بعيداً وهو يعلق:

"يبدو أن هناك تطورات جديدة في الأفق"

وعاد الرئيس إلى تأملاته من جديد وهو يقول في داخله:

"يا إلهي يا رب العالمين، ألا تقل لي مع من هو هذا المخلوق؟ أهو لي أم علي؟ ولكن يبدو أن الأوان قد فات. إننا نحن الذين اكتشفنا هذا المخلوق وقوينا ساعده. وعلمناه الرمادية كي يرمينا نحن أيضاً مع من يرميهم"

٦

أجلت السلطات البلقانية الزيارة، بإقتراح من الرئيس الضيف، إلى فترة أمدتها ستة أشهر، يقوم الطرفان خلالها بدراسة البروتوكولات وتحديثها من جديد. وإضافة ملاحق جديدة تعزز الأمن وتساعد على تطويرها في مجال القوات البرية والبحرية والعمل على نشوء صناعة التراكتورات وأدوات الانتاج

الزراعية. لاحظ نائب الرئيس خلف أن موقع الرئيس مرزوق يتتوطد يوماً بعد يوم. ومما زاد في شعبيته التركيز المستمر في أحاديثه وتصريحاته على القضاء على ظاهرة البطالة وتعزيز السلم وتوطيده في المنطقة وإهتمام الرأي العام العالمي والدول المجاورة للسياسة الجديدة المتبعة في هذا البلد الغني بثرواته الطبيعية. وراحت الوفود الرسمية وغير الرسمية ووفود الإعلاميين العالميين تتقاطر إلى البلد. ولأول مرة في تاريخ هذا البلد تصدر كتب باللغات الأجنبية عن السياسة المتبعة، دون أن تكون مدفوعة الثمن. وفتحت الصحافة أبوابها أمام الأقلام التقديمية والديمقراطية وجرى الحديث عن تحقيق جبهة وطنية تشمل كل القوى الوطنية، يكون واجبها توطيد وحدة البلد والسير قدماً لتحقيق أمنية الشعب في الحرية والرفاه الاجتماعي. وراحت الندوات الثقافية والسياسية والاقتصادية تعقد هنا وهناك، تتزاحم عليها آلاف المواطنين. كان في وسع الإنسان أن ينتقد كل دائرة حكومية وكل موظف مهما كانت درجة.

كان مساعد الرئيس خلف يراقب الأحداث وتتطوراتها باهتمام بالغ، من دون أن يبدي رأيه حولها، إلا في جلساته الخاصة وفي دائرة ضيقة جداً. وأمر وضع أجهزة الأمن العامة والاستخبارات في حالة إنذار وكلف أفراد الأمن بعمل قوائم بأسماء المحرkin الرئيسيين للنحوات والنقابات والنواحي والصحافة. وفي حلقة مغلقة مع مستشاريه، سأله أحدهم عن مصير البلد الذي تدفعه عواصف الفوضويين الهوجاء إلى حيث ما يسمى بالمد الشوري الذي يقودنا في النهاية إلى البلاشية. قال خلف والألم يعصره ويلوي معدته:

”لا تخف يا صاحبي، إن الحكم سيظل قومياً إشتراكياً. إن البلاشة يريدون أن يركبوا موجة (ريّسنا) لحين إسلام السلطة التي سنبقى نحتفظ بها إلى الأبد، رغم أنف دعاة الديمقراطية والتقدم والحرية“

كانت الجلسة تضم إلى جانب مدير الأمن العام، ثلاثة مديرين عامين للإستخبارات، يعتبرون من فطاحل التعذيب ونشر الرعب على مستوى البلد.

كانوا قد جاؤا للإستماع إلى رأي مسؤولهم وأخذ التعليمات منه بخصوص الأوضاع المستجدة، إذ أنهم يرون أن السبيل قد بلغ الزئب وأن المبالغة في الصبر قد تؤدي إلى كوارث هم في غنى عنها. علق خلف على رأيهم بخصوص الصبر، قائلاً:

"رفاق، إن أهم شيء في حركتنا التصحيحية التي سنقوم بها بالإستناد إلى عونه تعالى، هو الصبر وليس التهاون والعجلة. كل شيء مرسوم حسب خطة تتحرك مثل عقارب الساعة الثلاث، عقرب الساعة الكاملة وعقارب الدقيقة وعقارب الثانية. إنها ثلاثة أدوات تكمل بعضها البعض. إنها ثلاثة أشياء تتحرك في آن واحد. هل يمكننا إيقاف إحدى الأدوات وتحريك الآلاتين الآخرين؟. كلا. هذا لا يوصلنا إلى أي نتيجة. وإذا أرغمناها على التوقف تكون النتيجة خطأ. وإذا أخطأت الساعة، لا تضر أحداً. وأما إذا أخطأت الخطة، فتؤدي إلى كارثة تغرق البلد بالدماء"

مد رأسه باتجاه مدير الأمن العام وواصل:

"تمام؟ يا مدير الأمن العام، أم عندك رأي آخر؟"

أجاب مدير الأمن العام بسرعة كما لو أنه استيقظ من حلم عميق:

"تمام ورب العالمين وألف تمام. كنت يا سيدى النائب غارقاً في شرح الفلسفى العميق. إن شرحك فيه حلوة وعمق لا يضاهيه أي شرح آخر"
أدأر مساعد الرئيس عينيه بزهو وإستعلاء في عيون الآخرين، قائلاً:

"أعتقد إننا توصلنا إلى نتيجة منطقية، يدعمها شيء مهم جداً هو الصبر. وعندما تبدأ المعركة الفاصلة، فيجب علينا أن نحافظ على هدوئنا. هذه هي فلسفتنا، كما أكد على ذلك الرفيق مدير الأمن العام. أما تخطيطنا على أرض الواقع، فهو كما يلي:

١. ننتظر سفر رئيس الجمهورية إلى بلاد البلقان، إذ إننا لا نريد أن نتلاف

أعصابه، هو الشيخ الطاعن في أرذل العمر.

٢. سُنراقب الأوضاع ونرصدها باهتمام بالغ بعد عودته وستتحرك بموجب حركة الخط البياني. وينبغي أن نعرف بأن الانتهازيين المنحرفين قد يحاولون التخلص منه بقتله، لأنه قد يشكل عامل عرقلة لهم.
٣. في حالة هيمنة الهدوء والإستقرار، الذين هما في صالح الحكومة، ستنبع خطة خاصة تلائم الوضع ل تلك الفترة.

"هل هناك ملاحظة أو إستفسار رفاق؟"

كانت ثمة أسئلة وملحوظات تدور في رؤوس الآخرين، تمنوا لو يطرونها للنقاش، بيد أنهم كالعادة، تجنبوا إثارة غضبه.

بعد إنقضاء اللقاء، أشر مساعد الرئيس إلى مدير الأمن العام أن يبقى معه وخرج الآخرون. حين تأكد النائب من خروج الآخرين من الباب الخارجي، أقترب من صاحبه قائلاً أنه منذ مدة غير قصيرة تشغله فكرة تصاحبه ليلاً ونهاراً. وهو الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يثق به لطرحه عليه:

"فهل تتحمل عبء الفكرة التي أنوء تحتها وحدي؟".

أجاب صاحبه بارتياح كبير:

"سيدي، أنا أتحمل عبء العالم كله من أجلك"

علق المساعد وهو يتنفس الصعداء:

"هذا ما كنت أتوقعه منك"

قال بلهجة يغلب عليها التردد:

"أنا في الحقيقة يؤرقني مصير البلد الذي حوله الرئيس الشاب إلى ريشة في مهب الريح. أخشى أنه أصيب بالحرف. آنذاك سيقودنا كلنا إلى ألف داهية. إن هذه الشاعرة قد جنته هو المتصابي في آخر عمره. إننا يجب أن نقوم بعمل يحدد صلاحياته، إذ أنه يتدخل في كل شيء. أنا أفكر ليلاً ونهاراً

بطريقة نحدد من خلالها سطوته وتهوره. قل لي بصراحة كيف نتعامل معه. إننا إذا لم نجد علاجاً سريعاً لهذه المشكلة العويصة لأنهمتنا النيران. إن الإنقلاب عليه وعلينا يقف وراء الباب. تكلم بكل صراحة. أنا بحاجة إلى رأيك؟.

سكت برهة، أطبق خلالها الصمت عليهم. وأما كلماته الأخيرة فنزلت مثل الصاعقة على رئيس مدير الأمن العام الذي أحتج إلى بعض الوقت كي يلم شتات أفكاره. أدرك مساعد الرئيس أنه وضع صاحبه في موضع حرج وأنه حصره في زاوية لا يحسد عليها. ولكي يعيده إلى وعيه، طلب منه أن يكون صريحاً ولا يأخذ أي شيء بنظر الإعتبار. قال المدير وعلامات الحيرة بادية على قسمات وجهه:

"لو لم يكن الشايب قريبك ويجمعكم دم واحد، لعرفت كيف أضع أمامك العلاج الشافي لهذه المشكلة العويصة".

قال خلف بصوت فيه صرامة:

"قلت لك تكلم بكل صراحة. إننا نناقش موضوع مصير دولة وليس مصير عائلة خرائية. إننا حين تسلمنا مقاييس الحكم، هل فكرنا في عوائلنا أو عشيرتنا؟ إننا حين وضعناه على رأس السلطة إنما بسبب سنّه ورتبته العسكرية فحسب، وإلا فهو لا علم له ولا فهم. خذ الموضوع بجد يارفيق"

عادت إلى المدير سريرته الطبيعية وقال:

"هناك عدة حلول للتخلص من الشايب الذي بدأ يشكل فعلاً عامل عرقلة على طريق الثورة. الحل الأول تعينه سفيراً في البلد الذي يزوره. الحل الثاني إرغامه على التوقيع على ورقة يتنازل فيها عن رئاسة الجمهورية لمساعدته خلف أبو السيف لأسباب صحية. ولكي لا يشكل وجوده في البلد خطراً على الوضع، يجري إرساله إلى إحدى الدول الصديقة للعلاج الطبيعي والتلليل من قبل الشقراوات الناعمات. وعندما تكون أنت رئيس الدولة، نعرف كيف نضبط

الأمور ونعاقب الخارجين على القانون من أهل الجبال أو ما يسمى بإقليم ميدستان. وأعتقد أن الحل الثاني هو الإسلام. بقي أن تلم خيرة الأعضاء والقواعد الذين يعملون بكل إخلاص على خطنا.

ارتاح مساعد الرئيس خلف لكلمات المدير المقتضبة وعلق بصوت ممطوط: "لا أريد أن أمدحك، فأنت رجل لا يحتاج إلى مدح، ولكن اسمح لي أن أقول بأنك فعلاً، الرجل المناسب في المكان المناسب. أفهم منك أنك سترتبط مصيرك بمصيري كالعادة، أليس كذلك؟".

أجاب المدير بثقة مطلقة:

"وهل تريدينني أن أربط مصيري بمصير الرئيس الشايب؟ كنت فيما مضى معك والآن في الحاضر معك وسأظل في المستقبل معك" سأل المساعد بملامح جدية:

"هل من الممكن التكلم بحرية أم للجدران آذان؟".

"قطعنا كل الآذان المتعلقة على الجدران سيدي. خذ حريرتك في الكلام" كما سمعنا جميعاً هذا اليوم، تأجلت زيارة رئيس الجمهورية إلى ستة أشهر بناء على إقتراح السلطات البلقانية. هل تعتقد بأن ثمة مؤامرة في الطريق؟"

"كل شيء ممكن في هذه الأيام. إن مخابرات الدولة البلقانية قوية جداً ولا شك أنهم على إطلاع كامل على ما يجري في بلدنا. لنا معهم علاقات قوية. وهم يزودوننا بسرع رخيص كل ما نحتاجه، ولذلك لا يمكننا منع رجالهم من التحرك عندنا. وتلعب المصالح دوراً كبيراً في صنع القرار السياسي. ولذلك نجد أنهم على إطلاع واسع على كل شيء ولا سيما حدوث الانقلابات. إن تأجيل موعد الزيارة لمُؤشر على الشك بوجودها. وأما إذا أجلوها إلى إشعار آخر، فأتمنى أنهم قد وضعوا اليد على خطة إنقلابية.

قال المساعد بلهجة إستفسار:

"ما هو رأيك في رسم خطة أولية لإنقلابنا، حتى لا نظل ندور في حلقة مفرغة، محترفين بدون خارطة طريق؟".

"في حالة الإصرار على القيام بعمل ثوري نحتاج إلى خطة واضحة، وإلا مثمنا تفضيلات سبقي حائرين ندور في حلقة مفرغة. ولما كنت أنت صاحب الفكرة وقائد الانقلاب أو الحركة التصحيحية، لذا أرجو، إن أمكن، أن أطلع على أوليات الخطة ليتسنى لنا الدخول في تفاصيلها".

"الخطوة الأولى قبل ساعة الصفر. أي خلال فترة ستة أشهر الأولى نخلق في البلد جوًّا متواترًا يسوده الإرهاب والفوضى والقتل العشوائي بحيث أن المواطن لا يأمن على حياته وحياة أسرته، فيضطر للرکون إلى بيته، الأمر الذي يؤدي إلى أن يتمكّن تغيير الأوضاع من قبل أي جهة كانت. وبعد أن نتوصّل إلى خلق الحالة النفسية المطلوبة، نبدأ بالخطوة الثانية التي ستكون عبارة عن شقين، الأول الإستمرار على إرسال وفود السلام التي تطالب بالتنازل الطوعي عن الرئاسة، والثاني إرغامه بالقوة على التنازل. في حالة إصراره على عدم التنازل، نلجأ إلى إستعمال الخطوة الثالثة التي هي عبارة عن تحريك قواتنا ومؤسساتنا المسلحة وغير المسلحة والاستيلاء على الإذاعة. وأما ساعة الصفر فستكون اللحظة التي تطاو فيها قدماء أرض المطار، حيث يتم إلقاء القبض عليه. قال مدير الأمن العام:

"خطة محكمة سيدي وفي الوقت نفسه مرنة، يمكن تغييرها حسب الظروف المواتية وتطوراتها. فيها الخير وألف خير والله الموفق"

وأنصرفوا على أن يراقبوا الأحداث عن كثب وبدقة متناهية ويلتقى في القريب العاجل من أجل تحديد موقفهما من جواب الشايب بما يخص تنازله السلمي عن الرئاسة.

كان مكتب مساعد الرئيس المميز بفخخته وأبهته، مستقلًا وغير مرتبط بمكاتب القصر الجمهوري، ولذلك حين يحتاج الرئيس معاونه لبعض الإستشارات الضرورية، كان عليه الانتظار لفترة غير قليلة. ولم تلعب المصادفة أو ضرورات البناء أي دور في هذا التقسيم الذي أشرف عليه مساعد الرئيس شخصياً، بل هكذا أراد له أن يكون الأمر، ذلك أن المساعد كان يجسم الأمور بنفسه أولاً وأخراً. وكان الكل ، بهذا القدر أو ذاك، يعرف بهذه الحقيقة التي كان يعرف بها الرئيس نفسه. وكان سبب سكت الرئيس يعود إلى كون مساعديه خلف أبو السيف هو المسؤول الأول عن الخط العسكري التابع للتنظيم السري الذي يخضعون لقيادته. والتنظيم هو الذي يحل ويربط في كل الأمور. كان من المفروض أن يتولى المساعد خلف رئاسة الجمهورية، بيد أنه أناطها إلى الشايب مرزوق، على أن يتنازل عنها متى ما شاء التنظيم السري. وكان سبب التعيين هذا هو تأمين الأستيلاء على القوات المسلحة التي كانت لا تعترف بالتنظيم. وتمكن خلف أبو السيف فعلاً من السيطرة على الجيش الذي استطاع بالتدريج تحويله إلى أداة بيد التنظيم السري.

كان رئيس الجمهورية الشايب مرزوق على إطلاع تام بكل هذه الأمور، ولذلك كان يقف بالضد من مجلـل العملية. ولكنه كفرد كان عاجزاً عن تحقيق ما يصبو إليه من تغييرات لا تنسجم مع طموحات التنظيم السري. مثلاً أنه كان لا يستوعب مسألة قيادة السلطة السياسية العلنية من قبل منظمة سرية لا تخضع للقوانين ولا تعترف بالدستور. إن هذه الأفكار وغيرها جاءته من سياسيين كبار وعلماء من أبناء البلد، قابلوه في أوقات متباينة، طالبين منه رئيس جمهورية أن يلعب دوره في تطبيق القوانين وبنود الدستور وتحويل التنظيم السري إلى حزب سياسي يفسح المجال أمام الأحزاب السرية الأخرى للعمل العلني. وكان هؤلاء يختلفون في ظروف سرية وتعثر على جثثهم المزفقة

في الشوارع الخلفية من العاصمة أو داخل صناديق السيارات.

ورغم أن الرئيس كان يكره ولا يحبذ الزيارات المفاجئة، إلا أن مساعدته خلف أبو السيف، كان يزوره باسم القرابة والشراكة في قيادة الدولة ويزوره بأنواع التقارير المحسنة بالكذب والإفتراء، مدعياً أنها واردة من قواعد المنظمة. إن أزعج ما كان يعانيه الرئيس زيارته في الأوقات التي لم يتواجد في البيت. ويظل ينتظره ساعات وهو يدرش مع زوجته. وأما الهدف الأساسي لزياراته هو مراقبة تحركاته وتشخيص الضباط الذين يزورونه في البيت. وبأسم القرابة يذهب إلى المطبخ باحثاً في الثلاجة عن الطعام. ولطالما صادف في زياراته المفاجئة ضابطاً أو أكثر. كان لا يخرج من البيت، إلا بعد خروج الضابط، الذي يخضع إلى تحقيق طويل من حمايته بيعاز مسبق منه. وبعد أيام قلائل يختفي الضابط الضيف عن الأنوار ليتم العثور على جثته الممزقة في أحد الأزقة.

كل هذه الإجراءات التي كان يعمل من أجل تفاديه بمفرده، لم يجر التغلب عليها. وأشتدت عزلته أكثر فأكثر. ولم يكتفوا بإهانته سراً فحسب، بل كانوا يسخرون منه، لأنه عشق امرأة تصغره بعمرها من الزمن وهي لا تريده. بعد ثلاثة أيام من لقائه بمدير الأمن العام، أتصل المساعد هاتفياً بالرئيس، يطلب مقابلته للتحدث في شؤون البلد. أجاب الرئيس بلهجة غير مرحة قائلاً بإزعاج:

"أنا موجود في المكتب، يمكنك زيارتي متى ما شئت"

قال المساعد بإزعاج:

"لا في مكتبك ولا في مكتبي. سئلتني إما في بيتك أو في بيتي. ألا تعلم أن الجدران لها آذاناً قوية"

"إنشاء الله خير"

"الخير كله لك"

عرف الرئيس أن هناك شيئاً مهماً. قال بلهجة من يُرغم على الموافقة لشيء لا يريد أن يوافق عليه:

"ما رأيك في ربط اللقاء بتناول عشاء خفيف عندي؟"

"لا مانع لدي، ولكن يجب أن نكون وحنا"

"صار"

"عليها"

في تمام الساعة السادسة مساءً طوقت حماية مساعد الرئيس خلف أبو السيف دار رئيس الجمهورية دون أن يشعر بذلك أحد. تم إلقاء القبض على بضعة عابري سبيل. أجريت معهم تحقيقات أولية، جرى في ضوئها توقيفهم جميعاً. والغريب أن رئيس الجمهورية جاء متاخراً عن الموعد، فافتاظ المساعد وأفراد حمايته من التصرفات غير اللائقة بخامة الرئيس الذي ينبغي أن يكون قدوة للآخرين ولا يخضع لأوامر شرطي المرور. رغم ذلك كانت مشكلة التأخير ليست ذات أهمية عند مساعد الرئيس، بل المهم عنده أنه كان جائعاً. اعتذر الرئيس لتأخره بسبب حادث إصطدام سيارتين، مات فيه رجالن وصبي. وبعد أن تعانق الرئيس ومساعده، قال المساعد:

"المهم أنت وصلت بسلامة وأما التأخير فيعتبر مجرد علامة فارقة في حياتنا"

خلال تناول طعام العشاء قال المساعد أنه أضطر لنشر أفراد الحماية حول الدار لصيانتها من أعمال العنف التي بدأت بالظهور في العاصمة. سأل الرئيس باستغراب:

"أعمال العنف في العاصمة؟ من أين لك هذا؟"

قال المساعد بهدوء وهو يختلس النظر في الملامح القلقة للرئيس:

"لتقييت يوم أمس بمدير الأمن العام وسألته عن الأوضاع والمشاكل التي

تعانيها دائرته وما هي أهم الأشياء التي يحتاجونها للقضاء على الواقع الضعيف في الأمن والإستخبارات ومن هي الجهات التي تقوم بالمضاربات المالية التي تضر الإقتصاد الوطني وتضره في الصفيح. وأردت أن أعرف منه ما إذا كان خبر هروب سبعة محكومين بالإعدام شيئاً حتى الموت، خبر صحيح أم مجرد كلام. بالنسبة إن هؤلاء متوزعون الآن في أنحاء العاصمة ويعتبرون من أخطر الجرمين. والله وحده يعلم كيف ستكون النهاية"

عندما أكمل المساعد كلامه، واصل تناول قطعة لحم الدجاجة المشوية. أراد الرئيس أن يطرح عليه سؤالاً، بيد أنه إنتر أن ينتهي من مضغ لفته، ذلك أن السيد المساعد لا يستطيع الكلام خلال المضغ. إقترح المساعد أن يواصل الحديث بعد الإنتهاء من الأكل. ورغم ذلك فإن الرئيس لم يتحمل السكت، قال بلهجة مشوشة غير مفهومة:

"الدنيا مقلوبة ونحن لا نعرف بها".

لم يستجب المساعد لكلامه إلى أن انتهى من تناول الطعام، عندها رفع يده قائلاً:

"فيها البركة. الآن نستطيع البدء بالكلام"

سأله الرئيس بفضول:

"وماذا كان جوابه لأسئلتك؟"

قال:

"خبر هروب المحكومين بالإعدام صحيح. وجواباً لسؤالي ما إذا كانوا يحتاجون شيئاً للقضاء على مواطن الضعف في دائتهم، قال إنهم والحمد لله لا يحتاجون، إلا إلى شيء واحد فقط وهو إتباع سياسة واضحة لا تتقطع بين اليمين واليسار"

قال الرئيس بغضب:

"هل هذا كل ما نطقت به سيادته؟ قل لي هل هو مدير عام دولة ولاية بطيخ أم يوزباشي في دولة خان جفان. ما هي الإجراءات التي اتخذها تجاه المتلاعبين بمصير الاقتصاد الوطني. هل هو على علم بمسرحية الوفود التي تأتيني باسم القرابة وتطالبني بكل وقاية بالتنازل عن رئاسة الجمهورية. أين هي الديمقراطية. ألم ينتخبني الشعب بالإجماع. إن هؤلاء النماذج بحاجة إلى معاملة خاصة، وإلا فالكلام لا يفيد معهم؟"

فكر المساعد في مدى جدوى مواصلة النقاش معه. وبدأ له أن الرئيس ليس مصراً على البقاء في منصبه فحسب، بل أنه يمثل بوعي إتجاهًا جديداً غريباً على سياسة التنظيم السري التي لها خطها واستراتيجتها الخاصين بها. وتأكد أن الشاعرة التي منحها قلبه، تعلمته نهجاً جديداً في تسيير سياسة الدولة. وظل يفكر في طريقة تخلصه ليس من الرئيس الشاب فحسب، بل من هذه الساحرة اللعينة التي لا يدرى من أين هبّت عليهم.

كان الغضب لا يزال بادياً على ملامح وجهه حين عاد من الحمام، قال كما لو أنه يواصل كلامه الذي بدأ به من قبل:

"إن هذه الوضعية يجب أن تتغير. أبحث عن رجل مناسب أحسن منه، فهو في كل الأحوال له سمعة سيئة. أما معي عشرات التقارير من منظمة العفو الدولية ومنظمات حقوق الإنسان، تفضح أساليبه البربرية في التعذيب. إن هذا الصعلوك الذي قذفه القدر في صفوونا إذا لم يتأنب ويعرف حدوده، سينال مني فلقة لم يذقها في حياته"

قال المساعد بلهجة ماكراً ووجه متخفِّس، يوحيان أنه غاضب فعلاً، بيد أنه يحاول أن يتغلب على غضبه. ورأى أن الرئيس غير محق في تهجمه على مدير عامه المخلص الذي ينفذ أوامره بكل حذافيرها دون أن ينحرف عنها قيد شعرة:

"سيدي الرئيس، أنا لا أريد أن أدفع عن المدير العام، فهو قد حصل على

هذا المنصب بقرار خاص من الهيئة التورية العليا..

قاطعه الرئيس بغضـ:

"هل ت يريد أن تقول لي بأنني لا أعرفه؟ أم ت يريد أن تلقي علي محاضرة في الأخلاق؟ هل تتذكر مظهره عندما جئت به وكأنك كسبت صلاح الدين الأيوبي. إنه فاشل في الدراسة لا أخلاق له ولا ضمير. إنه من أجل الحصول على المال والوظيفة، لا مانع لديه من أن يقفز على الجثث وينبح الأطفال والنساء. كان كل رأسماله هو العنف، فماذا تتوقع من هكذا مخلوق؟"

كاد المساعد ينفجر من شدة الغضب وفهم من كلام وحركات الرئيس وملامح وجهه أنه أشد غضبا وأنه يعنيه هو. أراد أن يدافع عن رفيقه وصديقه، ولكنه خاف أن يعقد ويلوث الجو ويفسد الخطط التي رسماها، إذ تبين له أن المعركة القادمة التي سيضر بها أحد الجانبين، ستكون هي الحاسمة، آنذاك سيعرف ابن خاله وصديقه المخلص من هو خلف أبو السيف.

عاد السيد المساعد خلف أبو السيف برفقة حمایته إلى منزله، مهموماً يثقل كاهله ألم شديد يعصر قلبه ويحس بثقل كبير يجثم على صدره. لم تحس زوجته المتأثرة بأحساسه المضطربة وقلقه الشديد. ولكن تبدأ بحديث ما معه، سأله بلا أبالية رتبية ما إذا كان الطعام شهياً وماهي الأكلات التي طبخوها في قصر الرئيس الحال؟ أجاب بإستهزاء دون أن ينظر في عينيها أو يلتفت إليها وهو يهز رأسه:

"عرب وين وطمبورة وين"

عرفت الزوجة أنه محمل بمشكلة، بعد أن دققت في ملامح وجهه الخشبي. في هذه الحالات تتركه وحده وتنصرف إلى شيء آخر من ضمنه تحذير الأولاد وتنبيههم بعدم الإقتراب من بابا الذي يعاني من مشكلة:

"سنسمعها منه مباشرة"

طلب من أفراد حمايته أن ينصرفوا إلى مأواهم ويأخذوا قسطاً من الراحة، ذلك أنه سيقوم بجولة إستطلاعية في شوارع المدينة وينجز بعض الأعمال. قضى في مكتبه ساعة شرب خاللها قدحي شاي وأنجز بعض المعاملات التي تحتاج إلى توقيعه والنظر في قرارات الحكم بالإعدام شيئاً حتى الموت على نحو عشرين تاجراً بتهمة التلاعب بقوت الشعب بغية تقديمها إلى رئيس الجمهورية، وفي حالة إصراره على عدم التوقيع، فرق أن يوقعها هو نفسه. ومما زاد من همومه التقارير السرية لهذا اليوم والتي تؤكد شعبية رئيس الجمهورية الذي بفضله تم استباب الأمن والسلام في المجتمع. وتوصل إلى نتيجة مفادها أن جناحه سينعزل أكثر فأكثر ولذلك بات أمر تكدير الأمن وتخريبه مسألة أساسية في تحقيق سياسة "الربع الدائم". ورأى أن سياسة الربع الدائم ستخلق إنساناً قوياً يتحمل فكرة تأسيس جيش قوي مزود بأحدث الأسلحة الفتاكـة التي تكون ضمانة أساسية لتوسيع البلد الذي قطعت منه مناطق حساسة وغنية بالثروات المعدنية. وأما الوضع الآمن فيخلق مجتمعاً خاماً وكسولاً لا فائدة منه، الأمر الذي يريده جانب الشايب الرئيس مرزوق أفندي. بسط يديه على مكتبه الأنثيق الفخم وهو لا يزال يتربّح تحت عباء الإهانة غير المباشرة التي صبها الرئيس على رأسه. وحركته أسئلة راحت تصعد إلى دماغه واحدة تلو أخرى. أسئلة، يحتفظ بأجوبتها في رأسه، ولكن يا ترى هل هي أجوبة صحيحة أم أنها مجرد أوهام ومتنيات غير قابلة للتحقيق. وأصر في نفسه أنها ليست مجرد تمنيات، بل أفكار جاهزة يجب أن تجد طريقها إلى الواقع مهما كان الثمن. وزهبت به القناعة الذاتية بأن الشخص الوحيد الذي بإمكانه تحويل الأفكار إلى واقع ملموس، هو هو بالذات لا غير. إن الأشياء بدونه لن تتغير. وقد سبق للقدر أن خطط ذلك في مكان أمين أشبه باللوح المحفوظ. الرئيس الشايب قد تحول إلى حجر عثرة "كما يقولون" أو إلى عامل عرقلة لتحقيق أمني الشعب، ولكن أي شعب؟

الشعب الذي يريده هو. ولا جدوى من الشعب الذي لا يريده هو. أحس برغبته الجارفة في الإنقاص وسكب الدم، بيد أنه كعادته توقف عن التفكير في هذا الموضوع وحسب إلى العشرة. وراح يتحدث مع نفسه، دون أن يحس بذلك. إذا كان لابد من ذلك ولا يشكل خطراً لحياة الناس، فليكن هذا التفجير برباً وسلاماً، ليس على المؤمنين فحسب، بل على كل البشرية.

تذكر تفاصيل اللقاء الأخير مع الرئيس مرة أخرى، والتي عبّرَّ أراد نسيانها. والشيء الذي قفز إلى سطح ذاكرته بالدرجة الأولى هو هذا التركيز الحاقد ضد مدير الأمن العام. وهو يعرف طبيعة الرئيس جيداً فهو حين يحقد على أحدهم، فإنه لن يبقى في حدود حقده، بل يتتحول إلى فعل حقيقي لا يعرف التسامل، فهو عندما يهدد بالفلقة، يعني أنه سيطبقها فعلاً وسيفعل ذلك أمام أعين موظفيه الكبار. إنذاك يصدر الأمر الرئاسي بإعفائه من منصبه ولكي يهينه أكثر، يعيشه سائقاً في إحدى المديريات التابعة لوزارة الداخلية. وهذا يعني إسقاط أحد أركان جماعته. وهو إذ يستعرض التفاصيل، توصل إلى فكرة رسم خطة جديدة تدعم سياسة "الرعب الدائم" على أن تكون هجومية شرسة لا تعرف الرحمة. وقرر أن ينقل الحديث الذي جرى بيته وبين الرئيس إلى المدير العام بكل حذافيره كي يكون على إطلاع تام على ما خبأ له القدر. وبهذا يكون ولاؤه تماماً له لا تشويه شأنه ويخلص من تردداته في أن يكون عدواً عنياً لخط الرئيس. كما وقرر أن يطلعه على الخطة الجديدة ويشاركه في مناقشة محتواها.

وراح يسترسل في أحلام يقظته وما ينبغي عليه أن يفعله إعتباراً من هذه الليلة من أجل إسكات الشعب وضرب الفوضى والشغب وتطبيق سياسة "الرعب الدائم". وجده أن تطبيق هذه السياسة بحاجة إلى مسؤولية كبيرة، لا يريد أن يمارسها وحده. إذاً ينبغي عليه قبل كل شيء مفاتحة رفيق الدرب مدير الأمن العام. سأله نفسه:

"هل يذهب إليه أم يستدعيه إليه هو؟"

جاءه صوت من أعماقه:

"لا تذهب إليه، دعه يأتوك بنفسه. بعد القضاء على غريمك وقريبك، ستكون أنت الرئيس الأوحد. الرئيس لن يترك مكانه. الآخرون هم الذين يزحفون إليه. هل وجدتأسداً يزور ثعلباً في غاره، ناهيك عن أن الأسد لا يتمكن من الدخول في الغار الضيق"

أحس بغضبه أشبه بموجة قوية وعنيفة تتصرف بالصعود والنزول. تارة تلطم الصخور وأخرى تسها بهدوء. في الحالة الأولى يود لو يحرق كل شيء ويفجر الدماء ويقتل بصورة عشوائية كل من يصادفه من الأطفال والشباب والنساء. يود لو يشق بطون الحوامل بمديّة حادة ويخرج الجنين بألة جارحة ويرميّه للكلاب. وفي الحالة الثانية يحسب إلى العشرة ويُخفّ حقده الذي يخلفه في إحدى زوايا أعماقه كي يخرجه في الوقت المناسب. إنه لا ينسى الإهانة. والنسيان مفردة غريبة لا توجد في قاموسه. وأما مصلحته الشخصية ففوق كل شيء آخر، وإنّه هو مشغول برسم خططه في رأسه، سمع بعدة طرقات شبه خافتة على باب المكتب. إنه كبير أفراد الحماية الذي جرى الإتفاق معه لتنبيهه بالوقت. حين سمح له بالدخول، أدى التحية العسكرية، قائلاً:

"سيدي، مضت الساعة"

قال بصوت ممطوط هادئ وهو ينظر إلى ساعته اليدوية:

"الوقت يمر مثل السهم. على كل حال، أنا سأخبركم فيما بعد، لا داعي لتنبيهي. أنا بانتظار مدير الأمن العام فقط. لا تفسحوا المجال لأي مراجع مهما كان. قل لهم أن المساعد غير موجود"

"سيدي، وزير الثقافة يقول أن له موعداً معكم، ولكنه لا يقبل أن يسلم مسديسه. ماذا نفعل معه. إن موقفه ضد التعليمات؟"

قال بغضب:

"إذا كان وزير السخافة يخالف الأوامر، فماذا ينبغي على المواطن البسيط أن يفعل. صادروا مسدسه وأشبعوه ضرباً، من دون كسر عظم أو فقدان قطرة دم ومزقوا ملابسه ثم افسحوا له المجال لمقابلتي"
"نعم سيدى"

ترك الغرفة مؤدياً التحية العسكرية. بعد نحو خمس دقائق دخل الوزير، وقبل أن يفتح فمه، استغرق مساعد الرئيس في قهقهة طويلة وهو يقول:
" فعلوها معك أيضاً هؤلاء الأوياش..ها، ها، ها.. كم مرة نبهتكم إلى تعليمات الحماية؟ ولكنكم لا تفهون. والآن يمكنكم أن تتصرف. سأرسل لك موعداً آخر"

بعد أن ترك الغرفة واصل المساعد ضحكته ثم رفع سماعة التلفون وأتصل بمدير الأمن العام:
"أنا بانتظارك. حاول أن تصلكي في أسرع وقت ممكن. جلستنا ثنائية لا ثالث معنا"

"نعم سيدى، حاضر."

بعد فترة قصيرة لا تتجاوز نصف الساعة، ظهر المدير العام لشؤون الأمن بوجه عديم الإنطباع، يكاد لا يعرف شيئاً عن أمور الإبتسامة وعرف بتجربته وسلبياته أن ثمة مشكلة تتوجه نحوه في خط مستقيم. وفك في أعمال الخراب والبناء التي تعرقل الطرق وتؤخر البناء من دون أن يعلم الإنسان أسبابه. اتخذ المدير مكانه على أحد الكراسي الواقعة بين الرئيس والنافذة المطلة على حديقة كثيفة الأشجار. عندما أخذ مكانه، قال بلهجـة شـبه جـدية تـنوء تحت مشاعـر الفضـول:

"إنشاء الله خير"

سحب المساعد مؤخرته إلى الوراء معتمداً على قبضتيه الممسكتين بمسندى
الكرسي المتحرك، قائلاً:

"إن الله سبحانه وتعالى لا يعطيك الخير إلا إذا عملت من أجله. أي إنك
يجب أن تناضل من أجل الخير وإلا لن تحصل منه حتى على قرصنة خبر
شاعر، ولذلك نحن هنا، في سبيل تشديد النضال من أجل الخير والبركة"
لو تدري كم نحن نحتاج إلى كلامك الذهبي يا سيدي"

انحني على المكتب وهو يرفع قلم الرصاص ثم بدأ يحدثه عما دار بينه وبين
الرئيس من الأحاديث. وتوقف بعض الشيء عند كلمة "الفقة" ثم قال متسائلاً
بفضول:

"هل تعرف معنى كلمة الفقة؟"

أجاب بإبتسامة باهتة:

"نعم سيدي. شد اليدين والرجلين وإظهار المؤخرة فضربها بعصا أمام
الطلبة أو الناس بسبب مخالفات قام بها الشخص"

"تصور، إنه يريد أن يمارس معك الفقة أمام حشد من العسكر، ذلك
الأسلوب الذي انقرض، كوسيلة للعقاب، قبل أكثر من ثلاثة عقود من الزمن.
حين دافعت عنك نهرني بكل صلافة. إنه الآن صاحب خط جديد يريد فرضه،
ليس علينا نحن أصحاب ومتمني التنظيم السري فحسب، بل على كافة أبناء
الشعب. ألا يحتاج هذا الكلام إلى الوقوف بوجه طغيان العسكر بقوة السلاح؟"

ضرب بقبضته بقوة على المكتب قائلاً:

"هذا هو الموضوع الذي يجب أن تدرسه هذا اليوم. ينبغي أن نضع نقاطاً
ملموعة لا غموض فيها ولا ثرثرة. يهمني الآن رأيك"

أجاب بلهجة هادئة:

"سيدي، أنا قبل أن أكون جندياً للتنظيم السري، أعرفك أنت. وكنت دوماً

أسيير معك إلى حيث ما تريده، وكنت أفعل ذلك ليس من أجل الحصول على منفعة مادية أو معنوية، بل إيماناً بفلسفتك الإشتراكية القومية، ولذلك فإن رأيي من رأيك. أنت تخطط وأنا أنفذ".

كان خلف أبو السيف، مساعد الرئيس يتوقع منه هذا الجواب، إذ أنه يعرفه حق المعرفة: إنسان مطيع، يكره النقاش والجدال وينفذ الأوامر بإبداع. ويتصف بالقسوة التي يمارسها ضد الأعداء بلا رحمة. يعرف كيف يفقأ عين العدو أو يشرب مادة البنزين عنوة ويطلق الرصاص على بطنه بحيث بمنفجر كأي قبلة موقوتة. إن خلف أبو السيف لا يحتاج إلى من يقف بوجهه ويناقشه على أفكاره باسم الديمقراطية أو ي الفلسف الأشياء ويقف عقبة كداء أمام تنفيذ قرارات التنظيمالسري الثوري ولذلك فإن صاحبه مدير الأمن نموذج مقاس على قياسه، لا يمكنه أن يفرط به، إلا إذا اقتضت ذلك مصلحة التنظيم السري.

تململ خلف أبو السيف في مكانه بارتياح وقال:

"أنا في الحقيقة وضعت بعض النقاط الأساسية التي تخصل صميم الخطة، سأعرضها عليك بإختصار. وعند إنتهاءي من عرضها، يمكنك أن تبدي رأيك بكل صراحة:

أولاًً: هدفنا الأساسي هو إسقاط سلطة الرئيس الشايب بقوة السلاح.
ثانياً: تبدأ ساعة الصفر عندما ينزل من الطائرة وتطأ قدماه أرض المطار، بعد عودته من بلاد البلقان. تكون جميع قوات الأمن والمخابرات والشرطة تحت الإنذار رقم (ج).

ثالثاً: تستولي قطعات الجيش والقوات المسلحة التابعة لنا على جميع مراكز ومخافر ووحدات الجيش والشرطة والإذاعات والقنوات التلفزيونية في جميع أنحاء البلاد.

تنفذ هذه الأوامر فوراً مع بدء الإعلان عن ساعة الصفر"

بعد صمت غير قصير، أضاف بزهو المتصحر:

"هذه هي أهم نقاط الخطة المطروحة للنقاش. وبعد الإنتهاء من مناقشتها وإقرارها، تعرض على اللجان القيادية بدون ذكر ساعة الصفر. والآن جاء دورك أيها الرفيق المدير العام لمناقشة الخطة في ضوء خبراتك العملية الثمينة"

إنطبعت إبتسامة عريضة على فم المدير العام وقال:

"سيدي، إنك أستعملت طريقة ما قل ودل وقلت كل شيء في بضع جمل. إن قريحتك الثورية لم تترك مجالاً للمناقشة. يكفي أن نستوعب الخطة ونطبقها بإبداع وجرأة ومن ثم تكون نحن سادة الساحة. هذا رأيي ولا أريد أن أطيل أكثر"

علق خلف أبو السيف بفرح وإغبطة كبيرين:

"أنا ساكت رأيي الذي سبق أن قلته مراراً وتكراراً وهو أنك فعلاً، الرجل الصحيح في المكان الصحيح. أما ماما الآن ستة أشهر فقط وهي كما نرى فترة قصيرة وطويلة في الوقت نفسه. ولكننا سنجعلها قصيرة بالعمل المستمر من أجل إشباع قواعدنا بروح الثورة والإنتفاضة. والعملية بطبعتها سهلة (إجبار الرئيس على التوقيع) بيد أننا نصور المسألة أمام رفاقنا صعبة للغاية، وإلا فإنهم سيرثون إلى الخمول واللامبالاة"

"هذا الكلام صحيح سيدي، إنهم يجب أن يعتقدوا بأنهم أمام مهمة صعبة. إننا يجب أن نعيد إليهم ثقتهم التي فقدوها نتيجة لتصريحات الرئيس"

"أحسنت، بارك الله فيك. أنهم من كلامك أنك مع الخطة"

"قلباً وقولاً سيدي"

"إذاً، سنطبق سياسة الرعب الدائم من الآن فصاعداً"

"تقصد إعتبراً من هذه الليلة"

"أجل، إعتبراً من هذه الليلة"

الساعة الرابعة والعشرون.

سيارة مرسيدس سوداء، آخر موديل، مصفحة، حجم كبير، تحتوي على ثلاثة ضباط مسلحين ومزودين بهواتف يدوية ترتبط مباشرة بسيارة أخرى بالمواصفات نفسها، يشغلها مساعد الرئيس خلف أبو السيف مع ثلاثة ضباط من مرافقيه. السياراتان تبعدان عن بعضهما بنحو عشرة أمتار وتحتميان بظلام المكان الذي تحيط به خرائب بيوت متروكة وغير مكتملة البناء. وثمة في الطرف الآخر من المكان سيارة نقل صغيرة تحتوي على مدير الأمن العام وسائق السيارة وثلاثة ضباط ملثمين مع السجناء الخمسة المحكومين بالإعدام. اتصل مدير الأمن العام بمساعد الرئيس خلف أبو السيف هاتفياً، قائلاً:

"سيدي، تم الكشف على المكان، لا رقابة علينا ولا إنصات.."

قطع المساعد كلامه، متسللاً:

"حراسه؟"

"نائمون نومة أهل الكهف سيدي. يبدو أن تأثير المخدر كان قوياً جداً" "بارك الله فيك. استعملوا سلام الحال وانزلوا من السطح. أريد أن أجربوه حياً وحافياً بملابس النوم. أحكموا لثامكم بشكل جيد. لا أريد أن تتعرف عليكم عائلته. هل تكفيكم عشر دقائق".

"نحتاج إلى وقت أقل سيدي، مع السلامة"

"الله معكم"

قال ذلك خلف أبو السيف ثم شغل الشريط. وببدأ فريد الأطرش يغنى أغنية بساط الريح، جميل ومريح. طلب من أحد مرافقيه أن يضبط الوقت الذي تستغرقه العملية.

كانت جماعة سيارة النقل الصغيرة جاهزة للإنطلاق. أخذ المدير معه نفرین فقط. هرولوا بسرعة باتجاه الخيمة المنصوبة أمام الباب. كان عناصر الحماية الليلية تتكون من خمسة أفراد برتب مختلفة، استغرقوا في سبات عميق، ثلاثة في داخل الخيمة وأثنان خارجها. أشر إلى مرافقيه أن يعيدا سلم الحال إلى مكانه وهم إلى الضغط على الزر. ما لبث أن افتح الباب وأطل عليهم الشخص المطلوب بملابس النوم. انقض عليه المدير لوياماً يديه إلى الوراء وشاداً إياهما بسلك رفيع. كل ذلك جرى بسرعة وصمت. وهرولوا باتجاه الظلام الذي تخفي سيارة النقل الصغيرة في ثناياه. دفع الرجل إلى داخل السيارة ثم أتصل بمساعدة الرئيس، قائلاً له بصوت خافت:

"سيدي، انتهت العملية بنجاح"

قال خلف أبو السيف باستغراب وهو يغلق المسجل:

"مستحيل يا رجل. العملية استغرقت ثلاث دقائق فقط. هل أنت ساحر؟"

لم يعلق على كلامه، ولكنه أراد أن يعرف منه ما إذا ثمة عملية أو عمليات أخرى ينبغي القيام بها. قال النائب:

"يا عزيزي، إذا تم إنجاز العمليات الأخرى السريعة نفسها، فإننا سننتهي من تنفيذ الخطة خلال شهر واحد لا أكثر"

"سيدي، القرار بيديك أنت، ولكنني، إذا سمحت لي بالكلام، أرى أن نجسم مسألة هذا الظرف ونخلص من عبئه، بهذا نرسل رسالة أولية للشايق. ونرى كيف يكون موقفه، آذاك سنقرر بدورنا موقفنا منه. والتهمة الموجهة إليه هي قتل ثلاثة ضباط من جماعتنا بدون أي ذنب ونقل البقية الباقية إلى ملحقياتنا العسكرية"

"عاش لسانك الحلو أيها الرفيق. حقق أنت معه. وبعد إنتهاء التحقيق طلقة على رأسه ثم نرمي جشه في أحد الشوارع البعيدة عن مركز المدينة"

في الوقت الذي قررا فيه التحرك للابتعاد عن المكان، بدأ المدير بالتحقيق. كان المتهم المدح على أرضية السيارة صامتاً باهت اللون ينظر إلى نقطة وهمية بعينين جاحظتين. كانت الصدمة قوية عليه. اعتقد المدير أنه أصيب بشلل كلي، سأله ما إذا جرى الإعتداء عليه من قبل أحد. أشار بحركة من يده بلا. قال المدير مهدداً:

"استعمل لسانك في الكلام يا حمار وإلا أكسر أسنانك كلها دفعة واحدة"

قال بضم مرتجف:

"نعم سيدي"

"هل أنت وكيل وزير الحرب؟"

"نعم سيدي"

"أنت متهم بقتل ثلاثة ضباط أثرياء. لماذا قتلتهم. هل كانوا خونة أم من أعداء النظام؟ النجاة في الصدق"

"لا من هؤلاء ولا من أولئك. أعرف أنكم ستقتلوني ومع ذلك سأقول الحقيقة، وهي أنني قتلتهم بأمر من رئيس الجمهورية، دون أن أعرف التهم الموجهة إليهم. إنني كجندى لا أستطيع مخالفة الأوامر ولا مناقشتها"

هنا اتصل المدير بخلف أبو السيف هاتفياً وأبلغه باعتراف الرجل و قوله الحقيقة وسأله ما إذا كانت ثمة فائدة من موافقة التحقيق"

أجاب خلف أبو السيف، أنه كان يتوقع كل شيء وأما أن يكلف الرئيس أذلامة بقتل الأثرياء بهذا الشكل، فلا:

"على أي حال صفوه وأرموا جثته في شارع مظلم غير بعيد عن مركز المدينة. أما بالنسبة إلى موافقة تنفيذ الخطة، فأرجى إننا طالما بدأنا بالعمل، فليكن مضبوطاً وعلى الأقل نحمل الواجبات التي رسمناها لهذه الليلة"

"أمرك سيدي، عملنا القادر هو ملهمي الأفراح"

"بالضبط، الله معكم"

طلب المدير من الرجل، الذي كان لا يزال ممدداً على أرض السيارة، أن يقوم من مكانه وجلس على الكرسي المحاذي للباب. لم يتمكن الرجل من القيام، لذلك ساعده أحد الضباط وأخذ مكانه وراءه. وبخفية، من دون أن يراه أحد، سلم المدير المسدس كاتم الصوت للضابط الذي سرعان ما أطلق النار على قفاه. ثم فتح الباب ورمى الجثة إلى خارج السيارة.

وقفت سيارة الباص الصغيرة في مكان منعزل من أحد شوارع العاصمة المعروفة بالدعارة، آنذاك بدأ المدير بالكلام. تطرق بإختصار إلى تاريخ ملهمي الأفراح الذي يملكه أحد الضباط الكبار ويديره رجل لبناني وبأن زبائن الملهم جميعهم من الضباط الذين يقفون إلى جانب رئيس الجمهورية ويعادون التنظيم السري :

"المهم هو تطبيق خطتنا بنجاح، وهي كما يأتي: أولاً، هجوم عنيف على الملهمي يصاحب التخريب التام وضرب مبرح للزبائن والخدم بدونأخذ الرتب العسكرية بنظر الإعتبار. يجري إستعمال الدونكيات في الضرب العشوائي على مختلف أنحاء الجسم ولا سيما الرأس. يقوم بتنفيذ عملية الضرب السجناء الخمسة. ثانياً، يسيطر الضباط الثلاثة على الباب الخارجي وكل منفذ العبور. ثالثاً، أي محاولة لاستعمال السلاح من قبل الزبائن، يقع فوراً بقوة السلاح. رابعاً، العملية كلها تستغرق خمس دقائق فقط، خلالها تكونون قد أخذتم أماكنكم داخل السيارة."

بعد إنتهاء الدقائق الخمس تم تشغيل محرك السيارة، آنذاك رأه المدير العام وهم يتركون الباب الرئيس بسرعة فائقة. اتصل المدير بمساعد الرئيس خلف أبو السيف الذي كان يتنتظر المكالمة على آخر من الجمر:

"سيدي أنتهت العملية بنجاح. أراهن الآن وهم يتذدقون بسرعة من الباب الرئيسي. الآن خرج آخر واحد. وسيكونون داخل السيارة بعد دقيقة واحدة"

"بارك الله فيكم جميعاً. أنا كنت قلقاً بعض الشيء، إن العملية الثانية كانت أعقد وأهم من العملية الأولى. كيف نكافئ هؤلاء الأبطال الشباب؟"
"سيدي، إن أحسن مكافأة تهديهم إياها هي أن تجلس معهم عدة دقائق لا أكثر. يكفيهم فخراً أن يسمعوا صوتكم ويتذمروا الهواء نفسه الذي يتذمرون
جنابكم"

"تقصد أن أجلس معهم الآن؟"

"كلا سيدي، في وقت آخر طبعاً"

قال خلف أبو السيف:

"أنا مشتاق بطبعي للجلوس مع الأبطال، فكيف لا أستجيب لطلبهم؟ يبدو أن الحديقة حارة هذه الليلة. فكروا في العملية الثالثة وناقشوها بالإجماع"

قال المدير بإصرار:

"سيدي، لا تفكير ولا مناقشة ولا هم يحزنون. سيدي، قل نفذوا العملية الثالثة وكفى. هل نقوم تالي عمرنا بالإستماع إلى آراء كل من هب ودب؟ سيدي كما قال جنابك، الحديقة حارة. سنقوم إذاً بتنفيذ العملية الثالثة والرابعة"

قال خلف أبو السيف بإرتياح بالغ:

"خير الأمور ثلاثة. وأما الطفرة إلى الرابعة، فيجب أن ندرسها من جميع الجوانب. قد تؤدي الإنتصارات أحياناً إلى الإحباط الذي هو في الحقيقة مفردة غير موجودة في قاموسنا".

أخرج المدير من جيبه ورقة صغيرة مطوية، راح يقربها من عينيه الضعيفتين. تبين له أن الخطة الثالثة عبارة عن فقرتين، ولكن غير واضحتين:
"سيدي عفواً. أحتاج بعض الوضوح، حيث أن الفقرة الثالثة عبارة عن فقرتين.."

قاطعه خلف أبو السيف، قائلاً:

"لاحظتك عندما كنت تكتب ملاحظاتك بسرعة فائقة. وعرفت إنك سوف لا تفك رموز كتابتك. إليك محتوى الفقرتين: الأولى: أغتيال ضباط معادين إن أمكن. أو الثانية، تفجير سيارة وحماية أحد المعادين الكبار. لاحظ حرف (أو). أنا ما زلت أعتبر هذه العملية أعقد بكثير من العمليتين الأخريين، لأننا بحاجة إلى بعض المعلومات الأولية وينبغي عليك أن تعرف بأننا لسنا عبيداً لخططنا التي صنعناها بأنفسنا، وإنما سنتتحول إلى جامدين عقاديين، كما تؤكد لغة السياسة. أليس كذلك"

"بارك الله فيك سيدى من قائد محنك. لقد خلقك الله أن تكون القائد الأوحد لهذا البلد العصى وغير سهل الإنقاذ. بالنسبة سيدى، كل المعلومات المطلوبة موجودة عندي من ألفها إلى يائها"

"أنت تؤكد دوماً بأنك خير رجل في خير مكان. أترك لك مهمة قيادة العملية الثالثة. وأنا بانتظار إبداعاتك"

"شكراً سيدى، سأحاول أن أبرر ثقتك بكل إمكاناتي، مع السلامة"

"الله في عونكم"

سحب المدير العام دفترًا بغلاف أزرق كتب عليه (معلومات سرية للغاية - خاص للمسؤول الأول) من درج منضدة معدنية صغيرة متقللة تستعمل لأغراض الكتابة. وراح يقلب صفحات الدفتر بعناء وإهتمام بالغين. واجب الدفتر هو الحفاظ على المعلومات على الورق بعد أن يتم خزنها في الكمبيوتر. وحين يريد الموظف المسؤول الحصول على المعلومات كاملة وبلا تشويه، لا يرجع إلى الإنترنت، بل إلى الدفتر الذي هو المصدر الأول وال حقيقي، إذ أنه يرى، بعد الإطلاع الواسع الذي قام به خبير الكمبيوتر الأول إلى عالم هذا الجهاز السحري، بأن المعلومات المخزونة في الكمبيوتر تكون معرضة للتشويه والسرقة والمسح، هذا بالإضافة إلى أن النص المنقول إلى الدفتر

يستند على التقرير الذي يكتبه المخبر بخط يده والذي يربط مع النص الأصلي بدبوس. إن أي خطأ في التقارير قد يؤدي إلى قطع عنانق بريئة.

دمدم مع نفسه:

"المطلوب منا أن نصفي عدة ضباط من الموترين المحسوبين على الرئيس الذي يريد أن يمد رجليه، بدون قواتنا، في الجيش. أي مهمة كبيرة تلك التي يتم فيها الوصول إلى المعلومات المطلوبة عن هؤلاء. إن المعلومات اليومية عنهم، تأتي على شكل أجوبة على الأسئلة الآتية:

متى يبدأون بالدوام؟

كيف يتصرفون في أثناء الدوام؟

متى يتركون الدوام ويدهبون إلى بيوتهم؟

هل لهم عناوين أخرى يسكنون فيها بالإضافة إلى بيوتهم الأصلية؟

متى يتمتعون بالليلة؟

متى يخرجون من البيت وأين يقضون سهرتهم؟

هل يترددون إلى ملهي الأفراح؟

هل يناقشون في السياسة؟

ما هي المواضيع التي يتباخثونها فيما بينهم؟

متى يرجعون إلى بيوتهم؟

توقف المدير عند هذا السؤال وراح يبحث عن الجواب الذي كتبه أحد أصدقاء الضابط من المتنمرين إلى التنظيم السري:

"إنه من أشد الحاذقين علينا ومن ماسحي حذاء الرئيس. إنه يقود خلية من الضباط التافهين، عددهم خمسة، يبقون يسهرون حتى الثانية بعد منتصف الليل. وفي الثانية والنصف يتواجدون في مطعم الباجة. في الثالثة تنقلهم

سيارة باص صغيرة إلى بيوتهم المبنية في صف واحد في مدخل مدينة الضباط

نظر المدير العام في ساعته: إنها تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل. فكر في نفسه: إنهم سيتواجدون في المطعم حوالي الساعة الثانية والنصف لتناول الباقة الشهية. إذاً ينبغي أن تبدأ العملية الثالثة والأخيرة لهذه الليلة بعد نصف الساعة بالضبط. كان محرك الباص في حركة مستمرة، رغم وقوفها أحياناً. وجه كلامه إلى الجماعة المهيأة لكل الطوارئ:

"إخوان، أمامنا مهمة صغيرة سنتنهي منها بعد نصف الساعة تقريباً. يقرن بالمهمة السجناء الخمسة، عفوأً أقصد النجوم الخمسة. وهي العملية الثالثة والأخيرة لهذا اليوم. تستهدف خمسة ضباط في أحد المطاعم الشعبية. لا نعرف ما إذا كانوا يرتدون الملابس العسكرية أم المدنية. المهم أن الضابط ماجد سيرافقكم إلى المطعم. وحين يؤشر بالرمي تفتحون النار عليهم. تأكروا من أن الجميع قد فارقوا الحياة"

إلتقت المدير العام إلى الضابط ماجد وهو يؤشر بيمناه إلى ساعته قائلاً:

"كم تحتاج من الوقت؟"

أجاب ماجد بلا أبالية:

"ليس أكثر من ثلاثة دقائق سيدى"

وقفت السيارة بالقرب من المطعم على مسافة لا تتجاوز عشرين خطوة. نزل الخمسة المسلحون ببنادق كلاشنكوف، يرافقهم الضابط المسؤول ماجد، بسرعة فائقة. كان المطعم مليئاً بالزبائن. أستطاع ماجد الوضع في داخل المطعم من خلال الواجهة الزجاجية، قائلاً:

"انتبهوا، الضرب ليس عشوائياً، هل ترون الأفنديه الخمسة الذين يرتدون

البدلات الزرق؟ هم هدفنا. هيا شوفوا شغلكم"

وفي لحظات صعق الذين لم يশملهم الرصاص. وأما الضباط الخمسة، ففقط أخافهم ودماؤهم لتحط على الجدار وتتوزع على الصخون المحتوية على الباقة التي لم تؤكل بعد. بالسرعة نفسها التي تركوا فيها السيارة، عادوا إليها. قرب المدير العام ساعته من عينيه وهو يقول بلهجة إنتصار: "ثلاث دقائق فقط، بارك الله فيكم يا شباب. سوف يتلقى بكم مساعد الرئيس شخصياً ويجازيكم. بالنسبة إنه يعتبركم أبطالاً أبداً"

٩

هرت العمليات الثلاث العاصمة هزاً عنيفاً، أصبح حديث الساعة على أفواه الناس. وراح المواطنون، إعتماداً على خبراتهم وتجاربهم السابقة، يحسبون ألف حساب للطوارئ الآتية في مستقبل الأيام المقبلة. وسمع الرئيس الخبر في الساعة الرابعة صباحاً، الأمر الذي أدى به إلى الأرق وإرتفاع ضغط الدم. وراح يفكر ويضرب أخmasاً بأسداس وهو يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً. ويفكر في داخله ويتسائل: من هم يا ترى، هؤلاء الذين يهزون البلد بثلاث حوادث مريرة وخلال ليلة واحدة فقط؟ الشيوعيون؟ كلا أبداً. إن هذا ليس أسلوبهم. القوى الإسلامية؟ كلا، أبداً، فهم ما زالوا يعانون من الضربة التي وجهناها ضدهم. الجيليون؟ كلا أبداً. لا يقومون بالعمليات العسكرية إلا في مملكتهم، ثم أنهم لا يقومون إلا بحرب الأنصار. من هم إذاً هؤلاء الذين وجهوا إلينا هذه الرسالة المحترمة. إذا كانوا منظمين بهذه الصورة القوية، فلن نتمكن منهم. ويعني هذا سقوطنا وفشلنا الحتميين. أين هي مديرية الأمن العامة وأين هي مخابرات التنظيم السري التي استولى عليها خلف أفندي أبو السيف؟ أين كان سيادته في الليلة الفائتة؟ ألا يستحق هو الآخر فلقة محترمة كصاحب؟"

كانت الساعة تشير إلى السادسة صباحاً حين انتهت رئيس الجمهورية من إرتداء ملابسه. لم يفطر، ولكنه تناول فنجاناً من القهوة المعدة على الطريقة

الغربيّة بالفلتر. قبل أن يغادر منزله بنصف الساعة، أستدعي جميع أعضاء الهيئة الثورية العليا مع الخبراء الأمنيين إلى إجتماع طارئ في تمام الساعة الثامنة صباحاً. وفي الساعة السابعة، بعد أن تناول فطوراً خفيفاً، التقى بخلف أبو السيف الذي حضر عنده ل التداول نقاط الإجتماع. كان التعب ظاهراً على ملامح خلف وبذا وجهه متوجهماً غاضباً. قال بعد أن صافح الرئيس بيرود:

"هذا كله نتاج إدارتنا غير الكفؤة للدولة أيها السيد الرئيس"

قال الرئيس بانفعال:

"إذا كان الأمر هكذا، فلنجر انتخابات عامة ونخلص من هذه الورطة التي يسمونها السلطة"

"هذا هو بالضبط الخطأ الكامن في سياستنا. تحريض الناس على ممارسة الديمقراطية. وهم يفهمونها بحرية التبول في منتصف الشارع. إن هذا الشعب يا عمي يحتاج إلى دكتاتورية صارمة. ينبغي علينا أن نقوده بالسياط. ويجب علينا أن ندخل الرعب ليس في نفوس أبناء شعبنا فحسب، بل في نفوس الدول المجاورة لنا والدول الكبرى. ولا يتحقق هذا إلا بامتلاك السلاح النووي والجيش القوي الملائم له. آنذاك يحترمك الكل. ولكن ماذا نفعل؟ نرفع لافتات ما يسمى بمنظمة السلم العالمي. وبالتالي تكون النتيجة أن تسيطر العصابات في ليلة واحدة على العاصمة كلها. أين أجهزة الأمن؟"

قال الرئيس بانفعال:

"أنا أعيد السؤال إلى جنابك. ألسنت مسؤولاً عن خط الأمان؟"

قال خلف بإستهزاء:

"كنت أتصور يا ابن خالي أنك ستجيب على فكري بالظهور كدولة نووية، ولكن يبدو أنك لا تريد التدخل في السياسة"

"إن أمثال هذه الأفكار تناوش في الهيئة الثورية العليا. لنرجع إلى صميم موضوعنا: من المسؤول عن الأمان؟"

قال خلف أبو السيف وقد انطبعت ابتسامة خبيثة على وجهه:

"يا حبيبي ويا ابن خالي ويا رئيسي. لقد تحدثنا مراراً وتكراراً عن سياستنا الأمنية وبحضورك. هناك أمن مدني وأمن عسكري. على فكرة أنت نفسك صاحب الاقتراح. كل الأماكن مثل المطاعم والنوادي والمقاهي التي يتردد عليها الضباط ودور الضباط، مهما كانت رتبهم، تابعة للأمن العسكري وأما البقية الباقية، فتابعة للأمن المدني. إن العمليات الثلاث قد جرت في الأماكن التابعة للأمن العسكري التابع لوزارة الحربية. إذاً تقع المسئولية على عاتق الأمن العسكري وهو الذي يجب أن يحاسب"

قال الرئيس الذي تنفس الصعداء للمعلومة التي سبق أن نسأهافي شرود حبه للشاعرة الجميلة وفي زحمة الأشغال الكثيرة التي تختلط عليه، هو الذي دخل أرذل العمر:

"أنا لا يسعني إلا أنأشكرك لهذه المعلومة التي أنقذتني من ورطة كبيرة كانت ستجلب لي العار والشنار"

"يا ابن خالي وغضدي، أنا واجبي يكمن في الدفاع عنك في كل الأحوال. إن الإجتماع سيببدأ بعد قليل. وستجري محاسبة شديدة للمقصرين. وأنت بصفتك رئيساً للجمهورية تتحمل جانباً كبيراً من المسئولية. ويمكنك، من موقع منصبك أن تسحب المسئولية مباشرة على مسؤولي الأمن العسكري. ولا يغريك أي مبرر إلا الحكم العسكري بالإعدام رمياً بالرصاص على هؤلاء الجرذان المهملين. ولا تنس أن هؤلاء الضحايا الذين فقدوا حياتهم بسبب إهمال مسؤولي الأمن، لهم أقارب وعشائر لا يسكنون، بل يطالبون بحقوقهم المعنوية والمادية. أليس من المستحسن لك ولنا جميعاً، تفادياً لتحمل المسئولية والقال والقيل وأنت في عمر تحتاج فيه إلى الراحة، أن تفاجئهم بتقديم الإستقالة

والخلود إلى الراحة والطمأنينة"

كان رئيس الجمهورية لا يعرف بما يدور في رأس قريبه وعضيه من التوايا، بل كان يعتقد أنه ينصحه جباراً به ليس إلا. وكان خلف أبو السيف يعرف ذلك. ولذلك لم يأخذ كلام الرئيس بالجد الذي قال فيه:

"لا تخف على عضيتك. إن أكبر قوة في العالم لا تستطيع سحب صولجان الحكم من يدي، عدا الله سبحانه وتعالى. هناك أصوات كثيرة تفكر هكذا، ولكنني أقول لهم خسئت، سأظل أحكم هذه البلاد طالما قلبي ينبض بالحياة"

قال خلف أبو السيف في نفسه:

"سذرى. الأيام بیننا ثم أضاف بصوت عال:

"الله يعطيك العمر والعافية، كي تتم رسالتك الخالدة"

قال الرئيس بلهجة عطف:

"أفهم من كلامك إنك ستقف إلى جانبي وتساندني في مواقفي في المجتمع. إن أراغنا إذا توحدت، فيمكننا أن نحسم الكثير من الموقف المترددة"

قال النائب بلهجة ثابتة:

"أنا سأختلف معك في الكثير من المواقف، إننا الآن في زمن آخر، لا تلعب فيه الصداقة والقرابة أي دور. إن المسألة الأساسية هي مصلحة الوطن والشعب"

قال الرئيس بلهجة خائبة ملؤها اليأس:

"قالوا لي إنك ستلذغني ذات يوم مثل عقرية، بيد أنني لم أصدق كلامهم. قلت لهم إنه عضيتي ويظل يلتزم جانبي ويقف معي"

"أعرف من قال لك ذلك، إنه مدير الأمن العام العسكري الذي سيحاسب هذا اليوم حساباً عسيراً. إنه مع الأسف حرف كلامي. على كل حال، سنتخاصل داخل المجتمع وتتصادق خارجه. ونحن في كل الأحوال يجمعنا دم واحد"

افتتح الرئيس الإجتماع في تمام الساعة الثامنة والدقيقة العاشرة صباحاً وطلب من الحاضرين الوقوف حداداً لمدة دقيقة واحدة على أرواح الشهداء الذين سقطوا على أيدي مجموعة من الإرهابيين الخونة الذين سينالون عقابهم الشديد عاجلاً أم آجلاً. بعد مضي الدقيقة قرأ عليهم نقاط البحث الآتية:

١. وضع البلد العام وموقف الشعب منه.
٢. بلدنا بين حالتين، عسكرية قوية ونوية أم غير نوية مع التعايش السلمي.
٣. مشكلة الأمن وموضوع حوادث الليلة الماضية الإرهابية.
٤. حلول ومقترنات (خاصة بحوادث الليلة الماضية).

كانت الإجتماعات تفتتح عادة من قبل الرئيس، ثم لا يليث أن يسلم إدارة الإجتماع إلى مساعدته خلف أبو السيف، الذي يكون قد أعد نقاط البحث وتفصيلاتها التي يعرضها للمناقشة. وبعد الإنفاق على صيغ النقاط، يبدأ النقاش العام. أما اليوم فبدأ الإجتماع بشكل آخر وهو عدم عرض نقاط البحث للمناقشة وعدم تكليف مساعد الرئيس بإدارة الإجتماع، حيث برأ الرئيس موقفه قائلاً:

"بالنظر لأهمية وخطورة الأفكار التي سيطرحها مساعد الرئيس هذا اليوم، أردت أن أفسح له المجالكي يتمكن من المساهمة في النقاشات بصورة أفضل.."

قطعاً أحد الأعضاء قائلاً:

"نقطة نظامية"

أجاب الرئيس بحدة:

"تفضل"

"الإجتماع يجب أن يدار من قبل المساعد"

قال الرئيس بإنفعال:

"هذه ليست نقطة نظامية"

طلب آخر أن يسمح له بالكلام، ولما سمح له بذلك قال:
"ولكن يجب أن يوافق السيد المساعد على الطلب"

صاحب مساعد الرئيس خلف أبو السيف من مكانه، دون أن يطلب الكلام من الرئيس، قائلاً:

"أنا موافق. والإقتراح أصلاً من عندي"
تدخل الرئيس قائلاً بحدة:

"أرجو إحترام قدسيّة المجتمع. إنني سأمارس من الآن فصاعداً حقي في المركنية، لذا أرجو عدم التكلم دونأخذ الموافقة من الرئيس. كما وأرجو الإختصار في الكلام وعدم الخروج من صلب الموضوع. يرجى الاعتماد على مبدأ (ما قلّ ودلّ). والآن نبدأ بالنقطة الأولى:

وضع البلد العام وموقف الشعب منه: (المحضر/ طبق الأصل)

توصلت المناقشات الطويلة والمعريضة إلى أن البلد يعيش في بحبوحة لم يعهد بها من قبل، رغم عدم توفر الماء الصالح للشرب وإنقطاع التيار الكهربائي لما لا يقل عن عشرين ساعة في اليوم، إضافة إلى الغلاء الفاحش لكل المواد المتوفرة في السوق. هذا رغم الإحصائيات التي تؤكد على وجود ٧٠٪ من البطالة، حسب كلام

الخبير المسؤول عن أحوال السكان. وطلب أحد الأعضاء، تسجيل الجملة التالية في المحضر: "إلى أين تصب أموال الدولة؟"

أما بالنسبة إلى موقف الشعب، فينطبق عليه المثل الذي يقول: شمر بخير، ما عايزه غير الخام والطعام.

(هنا ينتهي القسم الأول من المحضر)

النقطة الثانية:

بلدنا بين حالتين، عسكرية قوية ونووية أم غير نووية مع التعايش السلمي.

كان أعضاء (الهيئة الثورية العليا) العشرة يعرفون حق المعرفة بأن خلف أبو السيف هو الرجل الوحيد الذي سيحتل مكان الرئيس عند حدوث طارئ ما. ويعلم الكل بأن جميع الأعضاء، يهابون خلف أبو السيف الذي يتمكن من إزاحة أكبر لحية لا تعجبه عن طريقه. ولذلك كانوا حذرين جداً في طرح آرائهم التي كانوا يصوغونها بالشكل الذي يتلائم مع طروحاته.

(المحضر / طبق الأصل)

الموضوع الأساسي الذي جرى مناقشته في هذه النقطة هو هل يحتاج بلدنا إلى السلاح النووي أم أن هذا السلاح سيتحول إلى عبء علينا؟ إننا في كل الأحوال لا نتمكن من الإعلان عن رغبتنا في إمتلاك النووي. وإذا أردنا أن نتحمي وراء واجهة (للأغراض السلمية)، فإنهم آنذاك سيضحكون علينا عن حق، إذ أن ثرواتنا في مجال الطاقة لا حدود لها. وبما أن أكثرية الأصوات وقفت إلى جانب ورقة تأييد النووي المطروحة من قبل الرفيق خلف أبو السيف، لذا ترفع الورقة وتحفظ شديد إلى اللجنة الاحترافية التابعة لمجلس الأمة. على أن يبقى موضوع النووي سرياً للغاية.

كما وجرت مناقشة موضوع بناء الجيش القوي المجهز بأحدث الأسلحة وأحسن المدربين وذلك على ضوء إمكاناتنا المالية المحدودة. ورأت الأكثرية المطلقة أن بناء الجيش العصري القوي ضرورة وطنية للدفاع عن استقلال بلدنا وحمايته من العداون

الخارجي. ويكلف الرفيق خلف أبو السيف بإتخاذ الإجراءات
اللازمة مع الدول الحليفة التي لها مصلحة في قوتنا.
(هنا ينتهي القسم الثاني من المحضر)

النقطة الثالثة:

(محضر طبق الأصل)

مشكلة الأمن وموضوع حوادث الليلة الماضية:

بعد الإطلاع الدقيق من قبل أعضاء اللجنة الاختصاصية العليا
للأمن القومي، على الأماكن التي جرت فيها الجرائم، تبين أن
القائمين بالأعمال الإرهابية، رجال يتمتعون بكفاءات عالية
وإمكانات ناضجة لقلب نظام الحكم، إذا ظل البلد يعتمد على ما
يسمى بالأمن العسكري الفاشل من أساسه. إن جهاز الأمن
يحتاج إلى إعادة البناء من جديد. ويت Helm رئيس الجمهورية، الذي
يرتبط به الأمن العسكري، المسؤولية الأولى في هذه الإنكماشة
الدموية. إن الهاربين من وجه العدالة، منظمون بصورة محكمة.
ولن يكتفوا عن ممارسة فعالياتهم، إلا بعد أن يحصلوا على ما
يريدون.

أصبحت هذه الورقة أساساً للمناقشات الحادة ووثيقة إدانة
لرئيس الجمهورية الذي لم يتمكن من الدفاع عن جماعته، الأمر
الذي أدى بأكثريّة مطلقة من معارضيه، من أتباع خلف أبو
السيف، إلى أن يطالبوه بالإستقالة. رفض بشدة أمر الإستقالة
واعتبر كل من طالب ذلك، متآمراً مارقاً.
وترك المجتمع متذمراً خائباً ومهداً.
(هنا ينتهي المحضر / القسم الثالث)

النقطة الرابعة:

(محضر طبق الأصل)

حلول ومقترنات (خاصة بحوادث الليلة الماضية)

بعد أن درست (الهيئة الثورية العليا) التقرير المختصر بشأن مسؤولية لجنة الأمن العسكرية المقدمة من قبل الرفيق رئيس الجمهورية، تبين أن المسؤولية المباشرة تقع على عاتق مدير الأمن العام العسكري، الذي كان أفراده، بدلاً من أن يقوموا بالمراقبة الأعتيادية، كانوا يجلسون مع الزبائن يحتسون المشروبات الروحية وهو في حالة سكر شديد. ومن حيث شئنا أم أبينا، ينسحب هذا الموقف على رئيس الجمهورية، رغم معرفتنا التامة بأنه لا يتناول المشروبات الروحية إلا في المناسبات التي تقتضي ذلك، ولكنه بشكل عام قصر في مراقبتهم والإشراف الدائم على أعمالهم. ولذلك نرفع مسألة عقوباتهم إلى اللجنة القانونية المختصة بإصدار الأحكام.

كانت الهيئة تتوقع أن يقوم الرفيق الرئيس بالمشاركة الفعالة، لوضع الحلول العملية لإعادة تركيب لجنة الأمن العسكرية، بيد أنه تشنج ورفض المشاركة في المساهمات والأراء المطروحة بغية إيجاد حل عملي. ولم يكتف بكل ذلك، بل ترك الإجتماع بعصبية، متذمراً ومهدداً بدون أي شعور بالمسؤولية.

تقرر تشكيل لجنة خاصة للنظر في الجرائم الدامية ودراستها بشكل عميق.

. (هنا ينتهي المحضر / القسم الرابع).

بعد انتهاء الإجتماع الطارئ الذي قامت به الهيئة الثورية العليا، خرج الجميع منصرفين إلى مكاتبهم، على أن لا يجري الحديث عن الليلة الدامدة ريثما يتم التحقيق في مجلمل القضية. ظل مساعد الرئيس خلف أبو السيف جالساً في مكانه يفكر في أحداث الليلة الماضية. والدور البطولي الذي قام به الشباب الأوقياء وقرر أن يقوم بإعداد المدربين والمرشحين لتدريبهم على أحدث الأسلحة الخفية والثقيلة وأساليب المصارعة والملاكمه والليودو. وقرر أن يلتقي برفيقه المخلص مدير الأمن العام، لينقل إليه ما دار في الإجتماع. ولি�ضع أمامه سياسته الجديدة التي يجب أن يتبعوها من الآن فصاعداً، وهي: (سياسة الربع الدائم). وراح يسجل محتوى هذه السياسة على ورقة صغيرة على شكل ملاحظات قابلة للحفظ، إذ أنه منع تناقل الأوراق منعاً باتاً. جاء في الورقة ما يأتي:

سري للغاية

توجيهات داخلية

١. من ليس معنا فهو ضدنا.
٢. يجب تصفية العدو بلا رحمة، سواء أكان في الداخل أم في الخارج.
٣. لا يكفي مجرد التأييد السطحي. يجب الإنتماء إلى التنظيم السري. والعمل في إحدى هيئاته بنشاط.
٤. شعارنا الرئيس خلق دولة نووية بأقوى جيش في المنطقة.
٥. يجب تحقيق قرارات (الهيئة الثورية العليا) بدون قيد أو شرط. (نفذ ثم ناقش).
٦. في مجال السياسة الخارجية نعادي الاستعمار ونحاربه بسلاح البرول.

هذه ملاحظات عامة ترسم خارطة الطريق في عملنا المقبل. على كافة الهيئات التنظيمية والخلايا والرفاقي دراستها وإبداء الرأي حولها، والإلتقاء حول قيادة الرفيق المساعد خلف أبو السيف حفظه الله.

تنبيه إلى الرفاق:

لا يجوز الإحتفاظ بالورقيات أو تناقلها. حاول أن تحفظ النص وتتلقى الورقة.

كان مدير الأمن العام ينتظر خلف أبو السيف بلهفة وخوف وفضول في إحدى غرف مديرية الأمن العامة التابعة لمكتب مساعد الرئيس والتي تجري فيها التحقيقات مع رجالات الدولة الذين خالفوا التعليمات بخصوص وظائفهم. لمح المدير العام علائم البشاشة المطبوعة على وجه صاحبه، فإعنة ذلك على وجهه هو الآخر. ومع كلمة (بشر) التي نطقها المدير العام، هجم عليه خلف أبو السيف، فاتحاً ذراعيه، يطوفه بشدة، على غير عادته، وفوجئ بذلك المدير الذي يعرف أنه نادرًاً ما يطوق أحداً. قال النائب وهو يتخذ مكانه على كرسي قريب من صاحبه الذي كان لا يزال ممسكاً بجريدة (الجمهورية):

"ألم أقل لك أن القوة تغير الأشياء؟"

"ولذلك كنت دوماً إلى جانبك يا سيدي"

قال المساعد بكرياء وفرحة:

"لقد إنتصرنا وهزمنا الرئيس الذي ظل حائراً طوال الوقت لا يدرى كيف يدافع عما يسمى بالأمن العسكري. قلت له بصرامة إنني من الآن فصاعداً لن أقف إلى جانبه. إنه فعلاً ضعيف ليس بمستوى قيادة دولة. إننا يجب أن نستمر على نهجنا ونظل نطبق (سياسة الرعب الدائم)"

قال المدير العام بلهجة تعليمية:

"سيدي، كل الامبراطوريات الكبيرة أعتمدت على القوة وعاشت من خلالها"

قال المساعد باستغراب:

"برافو، أيها الرفيق المدير العام، هكذا يكون الكلام الذي يفهم الآخرين.
يعتقد المثقفون أن رجل الأمن لا يفهم التاريخ، ولكن خاتم ظنهم"
ثم مد يده إلى جيبي، أخرج الورقة المحتوية على ملاحظاته وتتابع:
"سيبدأ خطنا الجديد بهذه الورقة التي ستغير الأوضاع وتقلبها رأساً على
عقب. على أن يرافق السلاح كل كلمة مذكورة فيها"
قبل أن يكلّفه بطبعها وسحب كمية على جهاز الرونيو، بادر المدير العام إلى
طلب الورقة بغية طبعها وسحبها بنفسه.

عندما تسلم مدير الأمن الورقة من خلف أبو السيف، هم بوضعها في جيبي،
بيد أن الأخير طلب منه أن يقرأ الورقة بإمعان ويبدي رأيه فيها بكل صراحة،
ذلك أنه هو الآخر يتحمل مسؤولية كل كلمة جاء فيها. قرب الورقة من عينيه
وراح يقرأ النص بإمعان في حين أنشغل خلف أبو السيف بتقليب صفحات
جريدة الجمهورية. حين انتهى من قراءة النص، رفع يده الممسكة به إلى أعلى
قائلاً:

"سيدي، هذه ليست ورقة، بل مجلد كامل من الأفكار والمواضيعات. وإذا كان
لابد لي من إبداء الملاحظات، فأسمح لي بملحوظة، هي في الأساس تكتيكية
وغير استراتيجية وتنتسب بال نقطتين الرابعة وال السادسة. الرابعة تقول: خلق دولة
نووية بأقوى جيش في المنطقة. لا تننس أن الدول العظمى هي التي تقرر من
تملك النووي ومن لا يحق له إمتلاكهها. إننا حالياً مشكلتنا ليست مع
الإستعمار، بل مع الحاج أحمد أغأا. وأما النقطة السادسة فتحتوي على رأي
خطير جداً وهو عبارة: نعادي الإستعمار ونحاربه بسلاح البترول. إننا بهذا
نكشف أوراقنا أمام العدو الذي يجب أن لا يعرف بعادتنا له. ونكرر في الوقت
نفسه الخطأ الذي وقع فيه شاه إيران الذي قال: إن أسعار النفط نقررها نحن
 أصحاب النفط وإنني سأحول إيران إلى يابان الشرق الأوسط. وكان أن

عاقبواه شر عقاب وخلقوا له الثورة الإيرانية التي صنعوا منها الشيخ الأكبر
الذي كان نائماً في سبات عميق لا ينافسه فيه سوى أهل الكهف"

قال خلف أبو السيف بعينين جاحظتين:

"بارك الله فيك يا رفيقي المدير العام، ملاحظاتك واقعية جداً. هكذا تكون نتيجة القيادة الجماعية. يبدو إنني كتبت ذلك تحت تأثير الحماس الذي هيمن على مشاعري التي دعتني أن أحول النقطة الثانية إلى رئيسية. أمسح نقطتين لتبقى الورقة في حدود ما قلّ ودلّ".

وعادا مرة أخرى إلى مناقشة ما دار في الإجتماع الطارئ وإستنبط الإستنتاجات المفيدة التي تساعدهم في رسم سياستهم (الربع الدائم) الذي فسره خلف أبو السيف كما يأتي:

هو سلب الإستقرار النفسي الداخلي عند الإنسان بواسطة القوة أو التخويف بمختلف الوسائل كقطع رأس عزيز له أمام عينيه أو تكليفه بقتل ابن عمه، بحيث لا يفكر سوى في نفسه، الأمر الذي يؤدي إلى الإنقطاع التام ليس عن محبيه فحسب، بل عن العالم كله، إذ أنه يرى في الآخرين أعداء، يراقبونه ليلاً ونهاراً ويضعون أنواع الخطط للإيقاع به فقتله.

إنك إذا تمكنت من تطبيق هذه السياسة على ٧٠٪ من أبناء الشعب بنجاح، تكون قد قضيت قضاءً تاماً على المعارضة بكل أنواعها. هناك فيلسوف ألماني نسيت اسمه يقول (إن السلطة إله يمشي على الأرض) والسلطة الحقيقية تعرف جيداً كيف تفرض الطاعة على الشعب، ولا سيما إذا كان متذمراً عن رب الحضارة. لو لا سياسة الحديد والنار التي طبقها بسمارك لما تمكن من توحيد الإمارات الألمانية وتحويلها إلى أمة ألمانية واحدة.

قطع خلف أبو السيف حديثه قائلاً:

"لا أريد أن أطيل حديثي وأسبب لك وجع الرأس. أمامنا شغل كثير"

"كلا أبداً سيدى. إنها أفكار رائعة لقائد رائع...."

قاطعه خلف أبو السيف:

"لا تخف، سنتحدث كثيراً حول هذا الموضوع. ولكننا يجب أن نرجع إلى موضوعنا الأساس الذي يجب أن لا ننساه أو نهمله، فالإجتماع حسم العديد من المسائل المطروحة التي يجب أن ندرسها. والآن بعد أن تطرقنا إلى ما دار في الإجتماع، يجب أن نسجل إستنتاجاتنا وتحليلاتها مع كيفية التحرك في سياستنا على أرض الواقع. إننا يجب أن نفعل شيئاً ينشر الرعب الحقيقي في كل مكان من أرضنا. والآن، بدلاً من الاستعانة بالذاكرة التي قد تخوننا، نستعين بالمسجل"

أخرج من جيده مسجلاً صغيراً وضعه على المكتب بعد أن شفّله. وراح يستمعان إلى المحضر بأقسامه الثلاثة. رفع خلف أبو السيف رأسه وحدق في وجه صاحبه باستطلاع وفخر قائلاً:

"والآن ماذا تقول يا رفيقي الأوحد؟"

أجاب صاحبه بحيرة وإستغراب:

"ماذا تريدينني أن أقول يا سيدى؟ إنني الآن آمنت بنظرتيك (الرعب الدائم). إننا لو لم نلجم إلى القوة لما قطفنا هذه الثمرة الرائعة التي بلبت وزلت (الهيئة الثورية العليا) وقادتها رئيس الجمهورية المحرف. إنها ثورة حقيقة، يجب أن تستمر بدون توقف. إننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً لو لم نسيطر سيطرة نهائية على هذه الهيئة القيادية التي أغتصبها الرئيس في غفلة من الزمن. إن لقب مساعد الرئيس يجب أن يتحول إلى الرئيس سواء على مستوى الدولة أو على مستوى التنظيم السري. في رأيي أن نواصل العملية هذه الليلة" "برافو أيها الرفيق المدير العام. إنك فتاح فايل وتقرأ ما يدور في رأسي. إن دار السيد غير مأمونه. سترسم الآن خطة هذه الليلة"

قبل الإتفاق على العملية وتفاصيلها درساً وضع السلطة من خلال الآراء الواردة في المحضر وتبيّن لهما إنها ضعيفة تحميها مجموعة صغيرة من الضباط المهيمنين على الرئيس الذي يحمل مجرد اللقب. وهو ليس في العير ولا في الفير، يقضي معظم وقته مع الشاعرة تقرأ له قصائدها وتعلمها الشعر. ويقضي المتبقى من وقته في الحمام التركي تدلكه طبيبة بولونية. وأما التوقيع فينجزها في فترة الإستراحة الواقعة بين فعالities السيدتين.

ناقشاً محتوى فكرة خلف أبو السيف الذي يؤكّد على إلقاء القبض على رئيس الجمهورية وعلى الضباط المؤيدين له في الفترة القصيرة القادمة وتسفيرهما إلى إحدى دول أوروبا الشرقية الصديقة، ولكن الفكرة لم تجد التأييد منهم. إتفقاً مبدئياً على القيام بتغيير السلطة بعد عودة الرئيس من زيارة دولة البلقان. ساعة الصفر تبحث في وقت آخر وتبدأ بإرغامه على تقديم الإستقالة وتكتيل خلف أبو السيف برئاسة الجمهورية ورئيسة التنظيم السري. أي أن العملية تبدأ بعد ستة أشهر وتكون بدون إرادة الدماء، إذ أن المتمسكيين بالسلطة من كلا الجانبين أقارب من الدرجتين الثانية والثالثة. ذلك أن إرادة الدماء بين الأقارب بسبب الصراع على السلطة تفقد مصداقية الحركة التي يقومون بها في عين الشعب.

وأتفقاً على مواصلة سياسة (الرعب الدائم) خلال الأشهر الستة المقبلة كي تكون الجماهير على إستعداد لتقدير الحركة الإنقلابية على أمل التخلص من الإرهاب والفوضى وفرض الإستقرار والأمن.

توقفا عند فكرة العملية القادمة التي اتفقا على القيام بها مساء هذا اليوم ووجداً أن ثمة مناسبات كثيرة يمكن تحويلها إلى مأسٍ توقف سلطة الرئيس مكتوفة اليدين تجاهها، دون أن تتمكن من إتخاذ إجراء ما. قال خلف أبو السيف:

"يا رفيقي العزيز يا أبي التعذيب أنت تمر من أمامك يومياً عشرات الفحشيات

و والإعترافات والسرقات وجرائم القتل والإغتصاب.. إلخ. ألا تتمكن أن تخرج
لنا قصة من جعبتك الواسعة كي نحولها إلى دراما"

أجاب صاحبه كمن يستيقظ من نوم عميق:

"القضايا كثيرة، ولكنني أفكر في واحدة تنزل على الناس مثل الصاعقة التي
لاتخلق عندهم الذعر فحسب، بل صدمة يعانونها مدى الحياة"

انطبعت إبتسامة عريضة على وجه خلف أبو السيف:

"أنت تثير فضولي أيها الرفيق المدير، هيا انطق خيراً"

مد المدير يده إلى جيبيه وأخرج ورقة مطوية قائلًا:

"هذه الحكاية دوختني، لذا أفكر منذ أيام في تحويلها إلى مادة لعمليتنا
القادمة."

سوف تؤدي العملية بلا شك إلى إثارة الرأي العام العالمي ويستغلها
الشيوعيون بإستعمال طبلولهم كالعادة. لا يهمنا قرع الطبلول ولا الرأي العام
العالمي، إذ أن هذه الأصوات تكون موجهة ضد حكومة الرئيس وتكون عامل
تقوية لنا نحن، بحيث أن الرأي العالمي سيكون إلى جانبنا عندما نستولى
على السلطة.."

تساءل خلف أبو السيف:

"الحكاية؟ أين الحكاية؟"

"الحكاية تعرفها أنت جيداً يا سيدي. إنها حكاية هؤلاء التجار الذين ألقى
عليهم القبض بحجة تخريب السوق وتهريب العملة الصعبة. من جهة تصدر
الهيئة الثورية العليا بياناً سرياً بضرورة إعدامهم ومن جهة أخرى يطلق
سراحتهم بكفالات مالية، يذهبون على أثرها إلى بيوتهم"

ضرب خلف أبو السيف بقبضته المكتب بغضب:

"أنا أعرف نصف الحقيقة فقط والنصف الآخر يرقد بين سيقان نسائهم.

وسوف أريهم واحداً واحداً أين توضع رؤوسهم

كان المدير العام يعرف أن صاحبه إذا غضب، فإنه لا يحتمل، ولذلك راح يراعي مشاعره ويضرب على الأوتار التي تعجبه:

"سيدي، إن شق الخلاف بيننا وبينهم قد يتسع ويتسع يوماً بعد يوم. إنهم يعرفون جيداً بأنهم أقزام أمام هامتك، ولذلك يحاولون النيل منك بإخفاء الحقائق عنك، ولكن هيئات. يتبعي أن نبادر نحن ونستغل هذه الحادثة برميهم بسهام جعبتهم بحيث يتحولون إلى قرقوز أمام الشعب والرأي العام العالمي الذي يتبعون به"

تنفس خلف أبو السيف الصعداء وانقلب أسارير وحده المتوجهة إلى الإنفتاح:

"يا رفيقي أنت فعلاً جبار والرجل الكفوء في المكان المناسب الذي يمسك أسرار مهنته المعقّدة بأصابعه الدقيقة. أنت تفكّر مثلّي وأنا أفكّر مثلّك. أعرف قصة هؤلاء. كان ثمة قرار لإعدامهم من أجل كسر عين الشعب الذي بدأناه الآن نطبق بحقه سياسة الرعب الدائم، بيد أننا لم نجد حجة كافية لإعدامهم. ومهما حاولنا إيجاد الحجج، كانوا يثبتون برأتهم وهكذا فرضت عليهم الإقامة الجبرية في بيوتهم مقابل وكالة مالية محترمة. على فكرة إنهم تجار رافضية يمكنهم أن يتحكموا بالسوق متى ما شاؤوا. إننا بإعدامهم نصيب عصافورين بحجر واحد. أولاً نطبق سياسة الرعب الدائم. ثانياً نحرج الحكومة أمام الشعب والرأي العام..."

قاطعه المدير العام:

"وثالثاً نوجه ضربة قاضية إلى الرأس المال الكبير الذي يفكّر أصحابه بأنهم قادرون على فعل أي شيء"

"حسن، لننتهِ الآن من وضع الخطة، كي نتمكن من تبليغ النجوم الخمس وضباطهم بالأمر. أرى أن نقسمهم إلى أربع أو خمس فرق. كل فرقة تتكون من

محكوم بالإعدام وضابط. ينطلقون كلهم إلى التنفيذ في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل بدون أقنعة. ويقدمون أنفسهم كضباط تابعين للإستحبارات العسكرية ويطلبون بأدب من صاحب البيت المطلوب أن يصطحبهم لإجراء تحقيق بسيط في المقر على أن يعودوه بسيارتهم إلى البيت دون تأخير.

تحتاج العملية كلها إلى خمس دقائق فقط. عند الماطلة أو إبداء أقل مقاومة، يجب إستعمال المسدس كاتم الصوت. تنتهي العملية كلها في الساعة الثانية بعد منتصف الليل. مجموع عدد المرشحين للقتل أربعة عشر رجلاً، ترمي جثثهم في أنحاء مختلفة من العاصمة. وتجري مخايره مخافر الشرطة ومكاتب الصحافة فور إنتهاء العمليات بالمانشيتات التالية:

- مجاهلون يقومون بحمام دم يقتل فيه ١٤ رجلاً.

- أين هي الشرطة والأمن؟

- لماذا تسكت الحكومة عن الجرائم؟

- لماذا سكتت الحكومة عن جرائم الإبادة الثالث؟

- هل هناك علاقة بين جرائم الليلتين؟

- إلى متى تحكمنا عصابات ذئاب القتل الليلية؟

- عصابات تتصارعن على السلطة على حساب دم الشعب. من منها ستنتصر؟ وما هو مصير الشعب في هذه المعركة؟

- ما هو دور العسكر في هذه الحرب الغامضة؟

- نطالب بالحجز والديمقراطية والقضاء على البطالة.

- أضربوا المجرمين بيد من حديد.

- يشاع أن بعض الرؤوس قد قطعت.

قام بتنفيذ العملية الطاقم نفسه الذي نفذ العمليات الثلاث في الليلة السابقة وتحت إشراف كل من خلف أبو السيف ومدير الأمن العام.

مرت فترة الأشهر الستة ببطء شديد مثل ليلة مليئة بالكوايس، قضاها الناس، في جميع أنحاء البلد، تحت خيمة الرعب الذي حول المواطنين إلى مخلوقات غريبة تخاف من بعضها بعضاً. وبعد إنقضاء فترة الأغتيالات الفردية، بدأت مرحلة جديدة سميت بمرحلة الأغتيالات الجماعية، حيث كانت تدفن عشرات ، بل مئات الجثث في مقابر جماعية مجهلة لا يعرف بها إلا بعض المشرفين على الدفن. لم يبق زقاق أو شارع لم يعثر فيه على أكثر من جثة. ولم يبق بيت لم يقدم ضحية أو أكثر. بدأ الناس يخافون حتى من التحدث عن أحلامهم، ولكنهم كانوا يحنون في دواخلهم إلى الأيام التي كانت خالية من جرائم القتل. ويقال أن رئيس الجمهورية نفسه كان لا يترك مأواه خوفاً من أن تغتاله الأيدي الأثيمية. وذات مرة أراد أن يتحدى هؤلاء القتلة المجهولين ويثبت شجاعته، فخرج مع موكب حمايته في سيارات مصفحة وظهر في منطقة معروفة بولائها له. وكان أن واجههم القتلة بالصواريخ والبنادق الرشاشة، أبادوا خلال فترة قصيرة جداً جميع أفراد حمايته. وكان أن أسعفه الحظ ونجا باعجوبة هو وسائقه. وسرت بين الناس إشاعات مفادها أن القتلة تعمدوا في عدم قتل رئيس الجمهورية، وإلا فانهم لو أرادوا قتله لتمكنوا من ذلك.

مع إنتهاء مدة الشهور الستة، حان موعد زيارة رئيس الجمهورية إلى دولة البلقان التي كان من المفترض أن يقوم بها قبل ستة أشهر، بيد أن السلطات البلقانية أجلت الزيارة إحتراماً لروح نجله الذي أُغتيل على أيدي القتلة المجهولين.

قبل أن يغادر الرئيس البلد، التقى بمساعده خلف أبو السيف، قائلاً له أن البلد آمنة في عنقه وأنه يجب أن يعمل المستحيل من أجل إلقاء القبض على هؤلاء القتلة الذين فشل هو في إلقاء القبض حتى على نفر واحد منهم. وإذا تمكن من تحقيق هذا الهدف، فإنه سيجازيه بالتنازل له عن منصب الرئاسة،

ولا سيما إنه مريض ودخل في أرذل العمر وأنه يريد أن يرتاح فعلاً وينصرف لكتابة الشعر. كان هذا الكلام صدمة كبيرة لخلف أبو السيف. وظل بين مصدق ومكذب، بيد أن الأخير هو الجانب الأرجح عنده وتصور أن الرئيس يضحك عليه ويريد أن يكشف سره، ولذلك قرر في داخله أن يبقى على تحالفه مع مدير الأمن العام. وظل يفكر عدة أيام في كلامه، مرة يصدقه وأخرى لا يصدقه. وفكراً، أنه حتى لو أراد أن يتعاون مع الرئيس، فكيف يمكنه التخلص من هذه العصابة الغارقة في الدم والمسلحة حتى قمة الرأس؟ وكيف يواجه حليفه مدير الأمن العام الذي ربما له علاقة مشبوهة بأمن إحدى الدول الصديقة بحكم وظيفته. فهو إن خان صاحبه، فلا يمكنه أن يحرر نفسه من حبائله.

إنها ورطة، ورطة كبيرة جداً. ووجد أن الحل الوحيد الذي يمكن أن يطرحه على صاحبه، هو أن يفاته بالحقيقة التي مفادها أن الرئيس سيتنازل عن منصب الرئاسة ولذلك يجب عليهم الكف عن فكرة الإنقلاب وحل المشكلة بصورة سلمية. ولكن، هات من يقنع المدير العام بهذا الكلام. إنه بطبيعة الحال في كل شيء، فكيف به أن يصدق الرئيس الذي أكد قبل مدة قصيرة أنه لن يتنازل عن منصبه مهما كان الأمر؟

أصبحت هذه المسألة شغله الشاغل الذي راح يفكر فيه ليلاً ونهاراً. إن الرئيس الذي يسمونه بالحج أيضاً لا يكذب ولا يخدع وهو معروف بصرافاته. يقول ما يفكر فيه دون أي تردد. المسألة إذاً محسومة بالنسبة إليه ولا تحتاج، لا إلى ساعة الصفر ولا إلى حركة مسلحة ولا هم يحزنون. ولأول مرة في حياته يحس بالخوف والإحباط والتدم. ندم ليس تجاه الذين قتلهم بالجملة، بل تجاه شيء غامض لا يعرف ماهيته. يحس أنه محبط يقف بين شبحين مرعبين هما الرئيس والمدير العام، كل واحد منها يحاسبه على حدة، وراح الشبحان يظهران في كوابيسه، يهجمان عليه بمخالبهما، ولكنه يتخلص منها بعد القضاء عليهما في اللحظة التي يستيقظ فيها من كابوسه المرعب. وحين يعود

إلى نومه بشق النفس، يعود إليه الكابوس من جديد. ويظهر الرئيس على شكل ذئب قوي بمخالب كبيرة منجلية، يقول بصوت أ Jegش ممطوط، تبعثر منه أصوات طبقات تهتز لها الأفق البعيدة، تختلط بعواء ذئب غريبة قادمة من وراء الأفق:

"لماذا يا خلف تتآمر علي مع إنسان منحط وتريد أن تقتلني، أنا الذي لم يبق لي في الحياة سوى أيام معدودات. أعرف أنك أنت الذي دبرت حادث الشاحنة التي أصطدمت بسيارة أبنيومات في الحال. إنك قد حرقت قلبي من أجل شيء الذي هو السلطة. كيف يقتل قريب قريبه بهذا الشكل. لماذا بالذات هذا الأبن بعيد عن السياسة. إنك قتلتني كي تحرق بذلك قلبي فحسب"

ومع كل ذلك يائيك الرئيس يا خلف ويقدم لك البلد في طبق من ذهب. ويقول لك "أن البلدأمانة تقع على عاتقك". وفكرا خلف كثيراً ورأسه يضطرب بكومة من الأسئلة التي تريد إجابات صحيحة وصادقة. هل يبقى أميناً لقسمه أمام المدير العام الذي قسم هو الآخر بأن يكون أميناً للخطبة التي رسماها للقيام بالحركة الإنقلابية وساعة صفرها التي تصادف اللحظة التي تطاً فيها قدم الرئيس أرض المطار عند عودته من زيارة إلى دولة البلقان .

ما أن ترك الوفد المرافق للرئيس مرزوق أرض الوطن، حتى بدأ النائب خلف أبو السيف يتصرف كما لو أنه هو الرئيس الرسمي المتوج لإدارة البلد. أول عمل قام به هو أنه بلغ رفاقه من أصغر عضو في القاعدة إلى أكبر قادر مسؤول عن التنظيمات السرية، بالحركة التصحيحية لمسار الثورة التي بدأت تتحرف عن أهدافها القومية على يد زمرة من الضباط الخونة الذين توقف لهم التنظيمات السرية بالمرصاد. ومن حيث شاء خلف أبو السيف أم لم يشاء، حدث إنشقاق في صفوف الهيكل التنظيمي الذي تحول عملياً إلى تنظيمين معاديين، بدت آثارها واضحة في الشارع. من نتائجها قيام تظاهرات يومية، بعضها يؤيد الرئيس ويعادي المساعد خلف أبو السيف وبعضها الآخر يؤيد

المساعد خلف ويعادي الرئيس. لم يكن في مخطط المساعد خلف أبو السيف تصعيد الخلافات بهذا الشكل في الشارع. وخوفاً من وصول الأخبار إلى أسماع الرئيس، بدأ بإرسال مجموعة من الرسائل والتوجيهات إلى المربيات والمربيين، يحذرهم فيها من مغبة الإنقاضة ضد النظام مع التأكيد بأن القيادة المقدامة هي التي ستحل الأمور، ولذلك لا داعي للنزول إلى الشارع، مع التأكيد على اليقظة وانتظار الأوامر في اللحظات الحاسمة. حدث كل ذلك بسرية تامة. ولكن النائب خلف أبو السيف يشك في مسألة السرية التامة ويعتقد بتسلل الأخبار بشكل من الأشكال إلى العدو. وراح القلق يقتحم كيانه وهو بانتظار المفاجأة التي ستسقط عليه كالصاعقة. وفكراً في إيجاد وسيلة تخلصه من القلق المتواتر الذي يحرق أعصابه. وفكراً في عاداته في وضع خطط تنقذه من الوقع في ورطة غير مرغوبية ولا تؤدي إلا إلى الهلاك. تذكر المقوله الشعبية التي تقول: "أتغدى به قبل أن يتعشى بي"، ولكن ضد من سيستعمل هذه المقوله يا ترى؟ إنه سينتظر الأقدار التي ستقرر ذلك. ولا يهمه من يتلقى الصفعه، المهم إنه هو سيخرج من المعركة سالماً معافيأً.

بعد أيام قليلة حزم الوفد حقائبها لغادره دولة البلقان. وتمت مراسيم التوديع على أرض مطار البلد الصديق. بعد مرور نصف الساعة على تحليق الطائرة، تسلم قبطان الطائرة أمراً برقياً يلزمها بتغيير إتجاه الطائرة إلى أقرب بلد يطلب منه الموافقة على الهبوط الإضطراري. وفي مخابره سريعة بين الرئيسين، علم الرئيس مرزوق بوجود انقلاب خطط له بعض العسكريين من الضباط الصغار، على أن ينفذ عند نزول الوفد من الطائرة. دام الانتظار سبع ساعات، ضرب خلالها الرئيس مرزوق الأخماس بالأسداس دون أن يصل إلى نتيجة معقولة وأخيراً تمت المكالمة بين كل من الرئيس مرزوق ومساعده خلف

أبو السيف الذي قال بالحرف الواحد:

"تم القضاء على الرأس المدبر للإنقلاب والذي هو مدير الأمن العام. الأمور تحت السيطرة التامة. نحن بانتظار وصولكم بسلامة".

خلال فترة قصيرة لم تتجاوز أربع وعشرين ساعة، تمكن مساعد الرئيس خلف أبو السيف من إلقاء القبض على أكثر من ٣٠٠ عسكري، أطلق عليهم الرصاص دون محاكمة وعلقهم على جانبي طريق المطار المؤدي إلى مركز المدينة لليلة كاملة وذلك بتهمة التآمر على الرئيس مرزوق. كان المساعد خلف أبو السيف أول المستقلين، حيث عانق الرئيس بشكل لم يسبق له مثيل، وبشره بالقضاء على آخر ضابط إشتراك في المحاولة الإنقلابية الفاشلة. هز الرئيس رأسه باستكثار وطلب منه رفع الجثث ودفنهما في مقبرة جماعية ومنع التحدث عن هذه الكارثة. قال له وهو يحدق في عيني خلف القاتلين الغارقين في الدماء:

"اليوم فعلتها مع هؤلاء الأبرياء وغداً ستفعلها معِي"

أراد خلف أن يقول شيئاً، بيد أن الحماية سحبته إلى موقع آخر.

كانت أجهزة الأمن التابعة لدولة البلقان، قد أعطت معلومات كاملة حول المحاولة الإنقلابية الفاشلة ضد الرئيس مرزوق الذي أصيب بصدمة قوية عندما علم بأن خلف أبو السيف هو الرأس المدبر للمؤامرة يساعد في ذلك سعاده الأيمن مدير الأمن العام. ورغم كل هذه المعلومات التي حصل عليها الرئيس، وقف عاجزاً عن أداء أي شيء تجاه خلف الذي سماه بـ"شيطان ابن الشيطان". وأدرك موقعه بشكل واضح وأقر أنه يتحرك داخل قفص ذهبي لا مهرب منه. وحين بدأ بالدואم في مكتبه لم يجد الوجه التي كانت تشتعل في معيته. أراد عدة مرات أن يتصل بمساعده خلف أبو السيف، ولكن عبّاً. قيل له أنه يمكنه الكتابة إليه وعرض مطالبه. وراح يتكلّم مع هذا الجندي الذي عرف أنه مكلف بجلب الطعام والشاي له:

"ماذا حصل؟ أين هم هؤلاء الذين كانوا يعملون هنا؟"

أجا به الجندي بأسئلتين:

"سيدي الرئيس، ألا تعرف بالإنتقال؟ كل الذين كانوا يشتغلون هنا خانوك

"وهم الآن في عداد الموتى"

عرف الرئيس أنه يسكن تحت الإقامة الإجبارية، دون أن تذكر له الأسباب الموجبة لذلك. سمح له بالإتصال بكل من الشاعرة والمملكة البولونية على أن تكون الزيارة تحت الرقابة. حاول المحظيون به من المستشارين والأطباء إقناعه بإعفائه عن العمل والإعتناء بصحته وراحته، ولكن كأن يأبى ذلك بعناد. فقرر خلف أبو السيف حسم الأمور بطريقته الخاصة، حيث راحوا يضعون المواد المخدرة في طعامه ومشربه. ولما ساعت صحته، نذروا خطتهم في إزاحتة نهائياً، حيث غرقوه بالورود في يوم عيد ميلاده وأخفقا وراءه رجلاً يشهر فوهة مسدسه على ظهره ووضعوا أمامه مكتباً، يحرر عليه مذكرة يطلب فيها إعفاؤه عن الخدمة لأسباب صحية. كان لم يزل يحتفظ بشيء من الوعي في رأسه، إذ أحس بفوهة المسدس وهي تخسغط بقوة على عموده الفقري، الأمر الذي يسبب ألمًا حادًا. وعرف أنه لو امتنع عن التوقيع على الورقة الموضوعة أمامه، فإن حامل المسدس الكاتم للصوت، سيضغط على الزناد بدون أي تردد. وكان أن تم لهم ما أرادوه.

وبعد مدة غير طويلة مات الرئيس في ظروف غامضة لم يطلع عليها سوى من ذبرها.

١٢

حق خلف أبو السيف خطته التي رسماها في ذهنه بشكل تام، فأصبح يحمل لقب رئيس الجمهورية بدلاً من مساعد الرئيس الذي رأى أنه كان لا يخوله بتحقيق طموحاته التي لا حدود لها. وأول ما فكر فيه هو بناء جيش قوي لا يقل عدد أفراده عن مليون جندي، خصص له نصف واردات النفط، ترافقة قوة نووية ضاربة لا تهاب أي شيء. وقبل الدخول في تفاصيل بناء هذين المرافقين العسكريين الحاسمين، نبهه مستشاره العسكري بأن بناء مثل هذا الجيش

القوى الذي ترافقه قوة نووية بحاجة إلى موافقة خاصة ومساندة من قبل دولة عظمى، وإن المشروع لن يتحقق. كانا يتمشيان في حدائق القصر الجمهوري. قال الرئيس الجديد خلف أبو السيف كعادته بغضب:

"هل تريد أن تخضعني لدولة عظمى تتلاعب باستقلالي الوطني أيها الرفيق المستشار؟ هل تريد أن تكسر معنوياتي؟ من خولك أن تتحدث معي بهذا الشكل؟ من هي الجهة التي أعطتك هذه المعلومة؟ من تظن نفسك يا أبن العاهرة؟ أنت إعتبراً من هذه اللحظة تعتبر إنساناً مشكوكاً فيه ومحكوم عليك حالياً بالإقامة الجبرية لحين بدء التحقيقات معك. هل تفكيرك هذه الرزالة، أم تحتاج أكثر؟"

أراد المستشار أن يتكلم، بيد أن الخوف الذي هيمن على كيانه لم يسعف لسانه بالنطق. عرف أن الرئيس سوف لا يرتاح لكلامه، ولكنه لم يكن يدرى أن جوابه سيكون بهذا الشكل. بعد فترة صمت قصيرة تمكّن من التغلب على الشلل الذي أصاب لسانه. قال بصوت متهدج:

"سيدي الرئيس، أستغفر الله أن أكون أخضעם لدولة عظمى تتلاعب بإستقلالنا الوطني، ولكن مسألة بناء جيش قوي ترافقه قوة نووية لها شأن آخر. أنا لست المستشار العسكري الوحيد في أمركم. إسألوا المستشارين الآخرين كلهم، فإذا وجدتم خلافاً في كلامي، فالجأوا ليس إلى فرض الإقامة الجبرية علي، بل أعدموني شنقاً حتى الموت"

كان الوقت فترة ما قبل الضحى وكانت الشمس الدافئة تطل من خلال غيوم نهاية مارت. قطعاً مشيتهم بمبادرة من السيد الرئيس الذي راح يحدق في عيني مستشاره بشكل غريب كما لو أنه يريد أن يعرف مدى صدق كلامه من خلال عينيه. وشعر الرئيس أن دفء الجو وكلام مستشاره قد أثرا على مزاجه إيجاباً، هو الذي ما زالت نشوة النصر تسري في أعصابه. قال الرئيس بلهجة ودية:

"هل أنت مصر على كلامك؟"

قال المستشار بعد أن ملأه الشعور بالأمان:

"سيدي الرئيس، حين عينت مستشاراً لكم، أقسمت اليمين على أن أكون صادقاً وأميناً أمامكم وفي كل ما أقوله في محيط عملني. ولذلك فائنا ما زلت مصرأً على كلامي الذي أتحمل كامل مسؤوليته"

قرر الرئيس خلف أبو السيف الإتصال بسفير الدولة العظمى في أحد البلدان المجاورة للتباحث بشؤون العلاقات بين البلدين. وأعلمه بمكالمة خاصة أنه يريد اللقاء به بمنتهى السرية. أبدى السفير ترحابه وغبطته باللقاء مؤكداً له أن الأمور ستتجري على ما يرام. اختار خلف أحد وزرائه من يجيدون لغة الدولة العظمى كمترجم شخصي له وأوعز إلى مديرية السفر الجنسية بإصدار جواز خاص له باسم مستعار.

وصل الوفد المكون من كل من الرئيس خلف أبو السيف ووزير الخارجية في الموعد المقرر والمتفق عليه. وكان السفير قد خصص له كل وقته في ذلك اليوم. بعد كلمات الترحيب التقليدية، أخذ خلف زمام الكلام متطرقاً إلى العلاقات التاريخية الحميمة بين البلدين والمساعدات الحاسمة في إنجاح الثورتين في بلده. وقال أنه جاء خصيصاً من أجل إنعاش العلاقة بين الدولتين:

"ها إننا جئنا إلى الحكم للمرة الثانية. إنني أيها السيد السفير الرجل الأول في بلدي. أنا رئيس الجمهورية، جئت أطلب حمايتك كما أنتم تطلبون حماية مصالحكم عندنا، فلنباحث هذا الأمر على أساس شرف الكلمة"

قال السفير بابتسامة غامضة:

"شرف الكلمة يعني الكثير أيها السيد الرئيس"

قاطعه خلف أبو السيف:

"أعرف ذلك أيها السيد السفير. إن أقل خروج على الإتفاقية المبنية على

شرف الكلمة يؤدي إلى درجة رؤوس"

قال السفير ضاحكاً:

"إن شاء الله، لن تصل الأمور إلى هذا الحد"

"كلا، لن تصل، نحن نعرف بعضنا بعضاً بشكل جيد"

قال السفير وهو يريد الدخول إلى مجال الأمور الملوسة:

"نحن نتحمل حماية شخصكم وحماية حكمكم بكل ما نملكه من طاقة..."

قال خلف بحماس:

"ونحن نحمي مصالحكم، ليس في بلدنا فحسب، بل في المنطقة كلها"

قال السفير بلهجة قاطعة:

"كلا. أنت تحمون مصالحنا في بلدكم فقط، وأما حماية مصالحنا في المنطقة، فلا، إنها مشكلتنا نحن"

"كما تشاوون أيها السيد السفير، ولكنني ينبغي بهذه المناسبة أن أطرق إلى ضعف تعانيه حكومتنا ألا وهو الوضع البائس لقواتنا المسلحة التي تحتاج إلى البناء من جديد. إننا بصراحة نحتاج إلى جيش قوي يتمكن من حماية ليس جمهوريتنا فحسب، بل مصالحكم في بلدنا أيضاً. إننا يهمنا استقرار وتنبیت السلم في المنطقة"

هنا أراد أن يتطرق إلى ضرورة بناء قوة نووية، بيد أنه تذكر نصيحة مستشاره. ثم أنه وجد طرح المسألة في غير محلها ولربما أدى ذلك إلى تخريب اللقاء.

بعد أن تم الإتفاق المبدئي على أهم النقاط وأشرف الإجتماع على النهاية، قال السفير أن هذا اليوم يعتبر من أجمل الأيام التي عاشها. وأكد بأن اللقاء القادم سيكون في عاصمة بلد الرئيس، حيث سيجري بحث البنود وتنبیتها في بروتوكول مفصل يتناول النواحي الاقتصادية والسياسية والإجتماعية

والثقافية، وعبر الرئيس خلف أبو السيف عن مشاعره تجاه هذا اللقاء التاريخي العظيم الذي سيؤدي حتماً إلى تلاحم البلدين من أجل مستقبل أفضل للأجيال القادمة.

بعد تناول طعام الغداء مع السفير، توجهاً إلى الطائرة الخاصة التي كانت تنتظرهما في المطار. عند بلوغ طائرتهما مطار العاصمة العالمي، إفترق الرئيس عن مترجمه، حيث تم نقل الأول إلى مكتبه في رئاسة الجمهورية والثاني تم إيصاله بإحدى سيارات الأمن العامة إلى منزله الواقع على أحد أطراف العاصمة. قبل أن تسأله زوجته عن سبب الكآبة الجاثمة على وجهه، بادر هو إلى الكلام بصوت كسير:

"يا امرأة هيأ أعدى الحقائب. إننا يجب أن نرحل من هذا البلد. أنا مستهدف للقتل. اليوم أو غداً يتم أمري"

سألت زوجته بدهشة وإستغراب:

"ما بالك يا رجل؟ ماذا تقول؟"

قال وهو يحاول أن يهدأ:

"يا امرأة، أنا أطلعت اليوم على معلومات خطيرة، لا يحق لي الإطلاع عليها ولهذا السبب يجب أن أموت"

واتفقاً على أن يغادراً البلد غداً بأول طائرة، على أن يكونا في الصباح الباكر في المطار. بعد تناول طعام العشاء، خرجاً كعادتهما في كل يوم للتشهي على شاطئ النهر وإلقاء النظرة الأخيرة على المنطقة.

فجأة ومن بدون سابق إنذار، إنطلق وأبل من الرصاص من العدم. كانا يعتقدان إنها لعبة عشواء، بيد أن الاعتقاد خانهما هذه المرة. وتکوم الرجل على نوافير الدم التي راحت تتدفق من أنحاء جسمه. تجمهر الناس في مكان الحادث. وراح كل فرد يفسر السبب بالشكل الذي يلائم مصلحته. أقدمت

جماعة ملثمة على الجثة وألقت بها في سيارة ترانسبورت صغيرة اتجهت إلى جهة مجهولة دون علم الزوجة. وفي اليوم الثاني خرجت تظاهرة حكومية ضخمة، تصاحبها سيارات الشرطة والدراجات البخارية وهي تستنكر عملية الأغتيالات التي تقودها العناصر المشبوهة والعميلة، تتقدمها جنازة مرفوعة على الأكتاف مع لافتة كبيرة كتب عليها: (دماوك لن تذهب هرداً أيها الرفيق الشهيد البطل). وعند إجراء مراسيم الدفن، كان الرئيس خلف أبو السيف هو أول من مسح دموعه وألقى باقة ورد بيضاء في القبر الذي كان يضم جثمان الوزير.

١٣

كان من عادة الرئيس خلف أبو السيف إحياء حفلات، يدعو لها أصدقاء، تغنى وترقص فيها مغنيات وراقصات غجريات بانتظام. كانت الحفلة تقام باسم مناسبة معينة. وإذا حصل أن غابت المناسبة، فكان ينبغي إيجاد مناسبة موهومة مثل يوم عيد ميلاد فلانه أو نجاح أحد الأبناء بدرجة جيد جداً. وكان من عادته أيضاً، دعوة فتاة مختارة من قبل زينتيه حسب ذوقه ومواصفاته على أن تكون من عائلة أو عشيرة معروفة. كان الإنتقاء يجري بصورة سرية جداً. وكان آمن مكان للعثور على فتاة بتلك المواصفات هو المدرسة أو المعهد. وكان أغلب الفتيات اللواتي يقنن في الفخ هن الفتيات الباحثات عن المغامرة والمال أو من لهن هواية الأدب وكتابة الشعر والرسم. وإذا وقع الأختيار على فتاة أبى الإنقياد لأوامر الزيانة، فإنها ترغم على الخضوع بمختلف الوسائل. وهي تعرف مقدماً أن الرفض لا جدوى منه أبداً. وكان معظم الفتيات يركضن وراء أمل موهوم، يرسمنه لأنفسهن ولا سيما المقتنعت بجمالهن الصارخ. ويأملن بأن الرئيس سيقع في غرامهن.

كان الرئيس خلف أبو السيف يتعارف مع الفتاة المختارة لأول مرة في الحفلة الغجرية، فإذا أعجبته، يدعوها إلى بيته المخصص لهذا الغرض، حيث

يتناول معها طعامه المفضل التمر واللبن ويبدأ بالتحدث عن بحثه الدائم عن حب أصيل يهيمن على عواطفه بكلامها. وإنه إن وقع في غرام إحداهن، سيتقدم لطلب الزواج منها. كان يتهدأ لمضاجعتها في كل الأحوال، ولكن دون أن يتهافت عليها. وويل للفتاة إن امتنعت عن ذلك، حيث يعربيها ويبدأ بضربيها بالسوط على ظهرها ومؤخرتها. ويظل لا يكف عن ضربها إلى أن تتوسل إليه أن يكف عن الضرب ويبدأ بالمضاجعة. آنذاك يطلب منها أن تتعرى وتستلقي على ظهرها وترفع ساقيها وتداعب فرجها.

ذات مرة نقلت إليه زبانتيه خبراً مفاده أن هناك مسابقة شعرية تقوم بها مجموعة من الفتيات الجميلات في أحد النوادي، ينتهي إلى عوائل ارستقراطية والجمهور نسائي فقط. أقررت عليه زبانتيه أن يحضر الحفل ويختار الفتاة التي تعجبه بنفسه. أثليج الإقتراح قلبه، ولكنه أبدى اعتراضًا شكلياً يكتبه تهاونه:

"تريدون تورطوني؟"

قال كبيرهم:

"سيدي الرئيس، سيعجبك الوضع جداً. إشارة واحدة منك سينتهي كل شيء. وسوف تنسى مع هذه المحروسة كل هموم العمل. إنها تنتمي إلى عشيرة القمر وهي في الوقت نفسه قمر العشيرة وشمسها"
"هكذا إذاً، لنجرب قمر العشيرة. هل هي أيضاً شاعرة؟"

"نعم، سيدي الرئيس بدليل أنها مشتركة في المسابقة الشعرية. ويقال أن هناك إحتمالاً كبيراً بفوزها للجائزة الأولى"

سؤال الرئيس بجد ما إذا كان ثمة جوائز نقدية للفائزين، أجاب رئيس الزبانية، أنها مجرد جوائز معنوية بلا فلوس. قال الرئيس بإنطلاق:
"إذاً سنأخذ معنا حقيبة مليانة فلوس حتى نونس فتياتنا الجميلات"

عندما امتلأت القاعة من الجمهور النسائي وجرت محاولة من أجل غلق

الباب الرئيس، ظهر فجأة عدة رجال بملابس عسكرية متوجهين إلى مجموعة من النساء، يطلبون إلهاهنفسع المجال أمام منتبسي حماية الرئيس الذي جاء خصيصاً لمشاهدة مسابقة أحسن شاعرة. أمرت المشرفة على شؤون المهرجان بإخلاء الجالسات في الخط الأمامي لأماكنهن كي يتسمى للسيد الرئيس وأفراد حمايته من إتخاذ أماكنهم. رحبت عريفة الحفل بمبادرة السيد الرئيس الذي تجشم عناء المساهمة في هذا المهرجان الشعري الذي له الشرف، كل الشرف بحضور سيد البلاد. وإن دلت هذه الزيارة على شيء، إنما على مدى التصاق القائد البار بآبنته شعبه المخلص وإهتمامه بالثقافة والأدب.

تمكن الرئيس، نتيجة للهمسات التي كان يقوم بها عضو الحماية الأول أن يرى قمر العشيرة بشكل واضح، حيث كانت قد أتخذت مكانها على المنصة مع مجموعة من الشاعرات المساهمات في المسابقة.

كانت قمر العشيرة قد سمعت وقرأت الكثير حول الرئيس، دون أن تشاهد في الواقع. كانت متأثرة به كرجل. وأما كسياسي، فلم تهتم بهذا الجانب. كانت تتمنى بل تحلم أن تلتقي به وتلمس يداتها يديه.

ها هو الرئيس يجلس قبالتها على بعد خطوات منها. إنه هو هو بلحمه ودمه. عيناه مشدودتان إلى عينيها وهو يكاد يتهمها. أحسست أن وحيها يريد إلغاء القصيدة الجاهزة للمشاركة في المسابقة، كي تحل محلها قصيدة جديدة في طريق الولادة. وأن القصيدة الجديدة تتذدق بقوة كشلال هادر، يجتاز النتوءات الصخرية، قاذفاً الرذاذ المتطاير لمسافات طوال. وراحت تمسك بالأفكار الهائمة والكلمات المتطايرة لتسكبها في قلادة ذهبية تضعها في عنق رئيسها الجميل.

وبدأت القراءات الشعرية.

أرادت أن تكون في آخر القائمة. وحين جاء دورها أنسدت بصوت رقيق متناغم، يجري مثل ينبوع رقراق:

يا سيدى
وأميري الجميل.
يا سليل حمورابى.
يا وردة أزلية
منحته حدائق بابل المعلقة
لسومر وأكاد.
ولبابل وأشور.
يا راعي الحضارات
المتجول.
يا ملك الحب،
مدّ يدك الرحيمة
وضعها فوق قلبي
الجريح
حيث يلتئم جرح
ألف عام.
آذاك
أعد زنبقة حمراء
تدثرني
بيديك
أنا الحمامنة التائهة
في رحاب الحب،
أنا المتشردة
في الطرقات

والدروب المجهولة
أبحث عن الدفء
فلا أجده.
امتحني قليلاً منه،
أعطيك
أصغرى.

تصفيق حاد هز القاعة لمدة خمس دقائق.

خمس الرئيس في أذن كبير مرافقيه الجالس على يمينه:
"هذه لقطة يا أبا الشباب. أين عثرتم على هذا الجمال القاتل؟ أين؟ أنا لم
أعد أتحمل نظراتها القاتلة"

"سيدي، قريباً ستركت هذا المكان. قررت اللجنة التحكيمية أن تحسم أنت
صاحب الفائزة بالجائزة الأولى"

أجاب الرئيس خلف أبو السيف بإغبطة ومرح:
"وهل هناك من تنافس قمر العشيرة؟"

كان كبير المرافقين يتنقل بين الرئيس والهيئة التحكيمية التي تنتظر جواب
الرئيس. صعدت عريفة الحفل المنصة وبiederها المايكروفون. أطبق الصمت على
القاعة. وراحت عريفة الحفل تتكلم بصوت جهوري:

"رئيسنا المحبوب وقائد شعبنا البطل،
سيداتي وسادتي:
هل هناك من تنافس قمر العشيرة؟ (تصفيق حاد يهز القاعة لمدة خمس
دقائق)
كلا أبداً."

فافتخر العشيرة بابنتها البارزة

في الوقت الذي ترك فيه الرئيس الباب الرئيسة مع حمaitه، كان رئيس المراقبين يرافق قمر العشيرة عند إجتياز الباب الخلفية لــتخاذ الإجراءات الضرورية لــتسليم الجائزة الأولى التي قدرها خمسة آلاف دولار في مكان ما.

بعد نحو نصف الساعة وصلوا ذلك المكان. والمكان عبارة عن قصر منيف مبني على جزيرة في وسط النهر، لا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة نقل نهرية.

كان الرئيس قد فقد صبره، يريد اللقاء بصاحبه قمر العشيرة في أسرع وقت ممكن، بيد أن هذه أصرت أن تخبر أهلها بأنها ستبقى هذه الليلة عند صديقتها. كان يرافقها كبير مرافقي الرئيس. ورغم إلحاحاته بالإسراع فإنها كانت تتعمد التأخير ونصحها أن لا تتصرف مع الرئيس على هذه الشاكلة.

قالت أنها لم تتصنع أي شيء، بل أن تصرفها هو هكذا ينبغي على المقابل أن يتحمله، وقالت بصراحة غريبة:

"إن الرئيس إذا تعرى أمامي، أو إذا تعريت أنا أمامه، فإنه آنذاك سيفقد صفتــه الرسمية، حيث تتحكم فيــنا قواعد الحب وسلوكــه"

سكت المراقب ولم يــشأ أن يــعلق. ووجد أن مجلــل القضية خارج إرادته وأن بقية التصرف ليس من شأنــه، بل من شأنــهما هما وــدهــما. وأــما واجبهــ هو فــعبارة عن إيصالــها إليه بسلامــة. وإرجاعــها فيــ الوقت المحدد إلىــ حيث تــشاء.

وأخــيراً تنفســ الرئيس الصــداعــ. وكانت مــائــدة العــشاء قد أــعدــتــ حين بــزــغــتــ الأــنســةــ قــمرــ العــشــيرــةــ وهيــ تــنهــادــيــ فيــ مشــيــتهاــ. أــخذــ الرئيســ بيــدــهاــ وأــجلــســهاــ علىــ الكرــسيــ المجــاورــ لــمــقــعــدهــ بشــكــلــ آــمــرــ. ولــاــ أــنــتــبــهــتــ بــأنــهــماــ وــدــهــماــ، قــامــتــ منــ مــكاــنــهــاــ قــائــلــةــ:

"سيــديــ الرئيســ، يــعــجبــنــيــ أــنــ أــتــخــذــ مــكــانــيــ هــنــاــ عــلــىــ هــذــاــ الــكــرــســيــ قــبــالــكــ، كــيــ أــرــاكــ مــلــءــ عــيــنــيــ وــأــتــمــعــ بــجــمــالــكــ"

قال مداعباً:

"إذا لم أوفق؟"

قالت بدلال:

"هذا بيتك، تتصرف فيه كما تشاء يا سيدي. كان ذلك مجرد إقتراح
أرادت أن تقوم من مكانها إلى محلها الأول، بيد أن الرئيس طلب منها
بلطف أن تبقى حيث هي، قائلاً بمزاح:

"تمتعي إذاً بوجهي القبيح"

قالت بلهجة إحتجاج:

"أستغفر الله يا سيدي، أنت أجمل الرجال"

تناول الرئيس جرعة من الويسيكي البارد، أعقبها بتمرة وعدة ملاعق لبن ثم
سألها ما إذا كانت تشرب نوعاً معيناً من المشروب. قالت أنها تفضل الشراب
الفرنسي الأحمر وستشربه من أجل عينيه. قال بلهجة إحتجاج:

"أنت هربت مني ونقضت ما جاء في قصيتك. أنت تقولين:

أبحث عن الدفء

فلا أجده

أمنحني قليلاً منه

أعطيك أصغرى.

فأين هذا من ذاك يا قمر العشيرة؟ تالي وياك. أنت لم أخذ منك حتى الآن
ولو لمسة من أكبريك؟"

تفتحت أسارير وجهها مثل وردة محرومة من شعاع الشمس، وقالت:
"بحثت عن الدفء يا سيدي الرئيس فوجدته. ولكنني طلبت قليلاً منه. أحشى
أن يغرقني دفءك الكبير، فيحرقني"

قال مداعباً:

"لا داعي للخوف. ستنصل بدائرة الإطفائية فوراً. وسيصلوننا خلال دقائق"
ضحكا بصوت عال. كان الخمر قد بدأ بالتسرب إلى أعصابهما التي كانت
مستعدة للخدر. قامت من مكانها وتقدمت منه ب الرجلين حافيتين وصدر مكشوف
بنهدين مكتنزين. أخذت مكانها في حضنه، معانقة إياه بساعديها. مرر راحته
اليمنى على ساقيها ثم نزل باتجاه وسطها الذي يסתר سروال داخلي أحمر
قصير. هنا وضعت يدها برفق على يده تمنعه من الحركة قائلة بفج:

"الطريق مسدود هذا اليوم يا سيدي، يجب أن تتحلى بالصبر"

قال بإصرار:

"إن لم أتحل بالصبر؟"

قالت بلهجة المنتصرة:

"عليك إذاً أن تطعن في الدم"

"وهل هناك ما هو أحلى من الطعن في الدم؟"

قالت بوجه عليه علامات التقرّز:

"ألا تتقرّز نفسك من منظر الدم وهو يسيل من العضو التناسلي للمرأة
ويلطخ كل شيء ولا سيما الملابس الداخلية؟"

أجاب باستغراب:

"أنا أتقرّز من الدم؟ أنت أول إنسان يطرح علي مثل هذا السؤال. أنا أعيش
الدم، تماماً مثل عشقـي للسلطة"

"من حقك أن تعشقـ السلطة، ذلك أنها تلبيـك وتستأهـلها بكل جدارـة، وأما
أن يكون الإنسان عاشقاً للدم، فهذا لا أستسيـغـه"

"يا سيدي يا قمر العشيرة والزمان، إن السلطة لا يمكن الحصول عليها من

دون أن يغمس الإنسان خبزه في الدم، ولا سيما دم العدو

"ولكنه نجس يا سيدى الرئيس"

"هذا رأيك أنت، وأمارأيي أنا فيقول: إنه أطهر سائل يخرج من جسد
الإنسان"

قالت بلهجة رجاء يحيطها هاجس من الخوف:

"سيدي الرئيس، هل يمكننا أن نختلف في نظرتنا إلى الأشياء؟ أم علي أن
أوافقك على كل ما تراه أنت صحيحاً"

قال وقد أنطبع علامات الحيرة على قسمات وجهه:

"نحن الآن لسنا جالسين في الهيئة الثورية العليا. أنت يمكنك أن تناديني
 هنا بـأسمي الأول خلف. ويمكنك أن تعترضي على كل كلمة أنطقها، بيد أنني
 لا أتعهد بالالتزام بكلامك. وأنت أيضاً ليس من الضرورة أن تلتزمي بكلامي"

"استغفر الله يا سيدي الرئيس. إنني لن أناديك بـأسمي الأول أبداً. ولن
أعترض على أي كلمة تقولها، بل أعتبر تحقيقها لزاماً على"

قال بإرتياح:

"تربيتك البيتية راقية يا قمر العشيرة، إنتي فخور بك. وعلى فكرة إنتي
أريدك عشيقه مخلصة وبالإضافة لذلك أحتجك كسفيرة متوجلة في السلك
الخارجي. أريد منك تقارير متنظمة عن تصرفات السفراء وبطانتهم"

من شدة فرحتها لم تتمكن من التغلب على دموعها التي سالت على وجنتيها.
كانت لا تزال في حضنه. مسح دموعها وهو يقول بصوت خافت:

"هل يمكنني الآن يا قمر العشيرة أن أطعن في الدم؟"

"سمعاً وطاعة يا مولاي"

مع إسلام السلطة من قبل خلف أبو السيف الذي راح يعدم الناس بشكل عشوائي وبدون أي سبب يذكر، انتشرت الفوضى في كل مكان من البلد. ودفع التذمر وإرتفاع مستوى المعيشة إلى ظهور عصابات قامت بأعمال النهب والسلب ليس في الليالي المظلمة فحسب، بل في واضحة النهار. المعلمون وأساتذة الجامعات، راحوا يستغلون بعد الدوام الرسمي كسوق تاكسي وباعة مخدرات ومنظفي الحدائق العامة والخاصة. وروجت وأزدهرت تجارة شراء الأسئلة الإمتحانية وبيعها، الأمر الذي أدى إلى تدني المستوى الدراسي في كل المراحل. هذا من جانب وأما الجانب الآخر بدأت قوى جديدة مثقفة بالظهور بكل جرأة من أجل حماية المكتسبات التي تحققت في العهد الجديد، والتي هي في الواقع ليست مكتسبات جديرة بالذكر. ونتيجة لتصاعد الأزمات الداخلية وتشابكها مع الأزمات الخارجية التي تحتاج إلى حلول سريعة وتفاوت النظر في معالجتها، جرى إنقسام شديد في الآراء وطريقة الحل. وكان أن أنشق التنظيم السري الواحد على نفسه. ووجد نفسه أمام هيئتين قياديتين، تعملان في السر من أجل الهيمنة على التنظيم.

كان بعض القياديين في الهيئة الثورية العليا يروي أن المهمات الواقعة على عاتق الحكومة الجديدة أثقل بكثير مما تحمله حكومة الحزب الواحد. ويؤكد آخرون بأن ما يسمى بـ(الهيئة الثورية العليا) التي يعتبر معظم أعضائها من أناس أميين ينحدرون من عصابات شرسة، حالة شاذة لا توجد في أي بلد آخر. وأفرزت هذه الوضعية فئة فاسدة تعيش على جباية الخاوات من أصحاب الحوانيت والملاهي والمطاعم بحجية حمايتها من ضغط العصابات المختلفة. ومما زاد في الطين بله، وجود مشاكل أساسية، جرى التنبيه على ضرورة حلها، من قبل هيئة الأمم المتحدة. أهم المشاكل المثلثة التي استرعت إنتباه الأمم المتحدة التي تنتظر الإجابة، هي:

- مشكلة أقليم ميدستان. وضربه بالسلاح الكيميائي.
- ماذا تعني الأنفال؟
- أسباب أغتيال وزير الخارجية.
- حقيقة إنتاج القوة النووية.
- شن الحرب على الجارة خراسان.
- إحتلال دويلة المرجان.
- ماذا يعني جيش تعداده مليون فرد.
- مشكلة النفط وأسعاره.
- حقوق الإنسان وحق الأمم في تقرير مصيرها.
- تعذيب المعارضين بمختلف الوسائل البربرية.

جرى بحث هذه النقاط بصورة أولية مع جميع سفراء دولة الرئيس خلف أبو السيف. إذن السفراء جانب الصمت ورغم ذلك أكدوا بأن بلدتهم له برلن منتخب بصورة شرعية. وأنهم يتمكنون من زيارة البلد ليروا الإزدهار بأعينهم وليس بعين الحاقدين الذين يريدون الإساءة إلى بلدتهم. ومع ذلك، فإنهم سوف يرسلون الاتهامات المدونة إلى الوطن، وبالذات ليد فخامة رئيس الجمهورية كي يقوم باستعمال صلاحياته في مكافحة الإرهاب.

جواباً على هذا الموقف الديماكوكي المزيف الصادر من السفراء، اجتمع جمهور غفير في بعض البلدان الأوروبية وهم يوزعون بيانات مختلفة وكراريس بصورة عن الوضع العام في البلد. وشوهد عدد كبير من أزلام النظام العاملين في السفارات وهم يقومون بضرب المتظاهرين. وتمكن أفراد الشرطة من إلقاء القبض على عدد من هؤلاء الذين تم إطلاق سراحهم بكفالة مالية بعد إبراز جوازاتهم الدبلوماسية.

عندما سمع سفير الدولة العظمى خبر أغتيال الوزير الذي كان يترجم

للرئيس خلف أبو السيف، أراد أن يتتأكد ما إذا كان القتيل هو نفسه، ولم يتتأكد من صحة الخبر إلا بعد أن جلبوا له صورته، فتأكد أن القتيل هو المترجم. أوعز السفير إلى جميع العاملين في سفارته بجمع كل النشرات والإصدارات التي صدرت في يوم التضامن مع شعب دولة الرئيس خلف أبو السيف. ورفعها إليه في أسرع وقت ممكن. خلال أقل من ساعة وصلته كافة الإصدارات. وراح يفكر في إستذكار الحديث الذي جرى بينهما. وتذكر أنه كان حذراً جداً، في حين أن صاحبه خلف كان يطلق التصريحات كيما يشاء. ورغم ذلك سحب السفير حقبيته الدبلوماسية وأخرج منها ملف (الشيخ خلف أبو السيف) وراح يدقق في الملاحظات التي سجلها بخط يده. وبعد أن قارن تصورات خلف حول مشكلات بلده مع النقاط المذكورة في بيان (منظمة حقوق الإنسان)، قال بصوت مرتفع:

"أبن الخزير، أراد أن يضحك علي"

أخرج تلفونه النقال من حقبيته الدبلوماسية وأتصل بسفيرهم في دولة الرئيس خلف أبو السيف. بعد لحظات جاء صوت السفير من الطرف الآخر:

"نعم، هنا مكتب السفير"

"هنا صديقك من البلد المجاور"

"أهلاً وسهلاً، كيف الصحة؟"

"شكراً، على ما يرام وأنت؟ هل قرأت الوصايا العشر؟"

"إنها ليست جديدة عليّ. قرأتها هذا اليوم أيضاً"

"هل هي صحيحة؟ أقصد هل هناك شيء من هذا القبيل؟ بالنسبة لنا ثمة تغطية وعدم شفافية في الأخبار"

"نعم صحيحة. ولكنها محصورة في زوايا معينة لا تصلها أنوفنا. نحن بحاجة إلى استراتيجية جديد"

"أشكرك، مع السلامة"

كان السفير قد سبق له أن سمع الكثير عن الأوضاع غير الطبيعية في بلد صاحبه الرئيس خلف أبو السيف، ولكنه كان يضع تلك التقديرات في باب المبالغات العاطفية كشأن أي بلد من بلدان الشرق الأوسط والعالم الثالث بشكل عام. هذا بالإضافة إلى التأكيدات التي كانت تأتيهم من مكتب العلاقات في وزارة الخارجية بعدم تصديق كل شيء. والتأنى في نقل الأخبار، ذلك ان خبراً واحداً خطأً قد يكلف الدولة غالياً. أنكب السفير على المعلومات التي وصلته من الصحافة ومن مراكز المعاهد الاستراتيجية التي تهتم بالدرجة الأولى بدولة الرئيس خلف أبو السيف وسيرته الذاتية التي يقال أن لها ارتباطاً أو كان لها علاقة بمكتب مركز المخابرات الأمريكية. واستنتاج معظم الدراسات بأن هذا الشخص لا يمكن الاعتماد على كلامه وهو متاثر بكل من هتلر وستالين.

كان السفير على علاقة جيدة بصحافي معروف يعمل في صحيفة كبيرة واسعة الانتشار، تصدر في الدولة العظمى، يقدم مقابلات شيقة ذات طابع فكاهي مع شخصيات كبيرة. اتصل به السفير بعد إطلاعه على التفاصيل المتعلقة بالنقط العشر. وأقترح عليه أن يقوم بإجراء مقابلة صحفية مع الرئيس خلف أبو السيف رئيس جمهورية البترون. وتعهد أنه حال موافقته على الموضوع، سيرسل له رزمة من المعلومات الضرورية للمقابلة. رحب الصحفي بالفكرة قائلاً:

"إنه سفاح طريف، سيفضحه أمام الملأ، ولكنه يخشى أن لا يوافق على إجراء المقابلة. إنه يريد أن يتتأكد من موافقته"

أجاب السفير من الطرف الثاني بأنه سيضمن له ذلك ولا داعي للقلق. تم الإتفاق على أن يزور الصحفي رئيس الجمهورية في بلده خلال أسبوع من تسلم الدعوة الرسمية. وأشترط الصحفي أن تكون المقابلة غير مشروطة، وأن

الصحفي حر في إلقاء أسئلته وأختيار مجالات تحركه. كما وإن الرئيس الجمهورية الحق في عدم الإجابة إن لم يعجبه السؤال. وافق الطرفان على الملاحظات المطروحة. وبدأت المقابلة في إحدى الغرف المخصصة لهذا الغرض في القصر الجمهوري.

١٥

الصحفي: شكرأً جزيلاً لدعوكم الكريمة ولموافقتكم على إجراء هذه المقابلة يا سيدي الرئيس. إن قراعنا ينتظرون المقابلة بلهفة.
رئيس الجمهورية: أشكركم لتلبية دعوتنا ونرجو لكم إقامة طيبة بين ظهرانينا.

الصحفي: سيدي الرئيس، أمامي مجموعة من الأسئلة المتعلقة ببلدكم الذي له موقع استراتيجي مهم في المنطقة. هل تحبون الإجابة عليها كلها أم نترك بعضها؟

الرئيس: سنجيب عليها كلها إن شاء الله.

الصحفي: سأبدأ بسؤال حول الحكم الذاتي لمنطقة ميديستان التي لها قوميتها ولغتها وثقافتها الخاصة بها. كنتم قبل أعوام قد منحتم الحكم الذاتي، الأمر الذي أدى إلى وقف القتال وإحلال السلام. ولكننا منذ مدة قصيرة لا نسمع شيئاً عن مصير هؤلاء وإذا وصلنا شيء فهو غير مفرح، يتطرق إلى استعمالكم للسلاح الكيميائي ضد أناس عزل. هل ما زلت تعترفون بحقوقهم أم ألقيت في عرض الحائط؟

الرئيس: في الحقيقة ألقينا بحقوقهم ليس في عرض الحائط فحسب، بل في طوله. وهم يستحقون ذلك، لأنهم كنبوا علينا. وبين أنهم ساميون من سلالة مرد ابن كورد. إنهم من ساميي الجبال. إننا لا نسمح بشق وحدة بلدنا. أنظروا إلى بريطانيا وأسبانيا وغيرها كيف يستمدون في الدفاع عن وحدة بلادهم.

الصحي: ولكنهم لم يطالبوا سوى حقوقهم الأولية التي يستحقونها.

الرئيس: أنظر يا صديقي الصحفي. حقوق مقوّق ماكرو. إستحقاق مستحقاق ماكرو أيضاً. كل هذه الترهات تضر بوحدة بلدنا التي هي فوق كل شيء.

الصحي: ما علينا من أصل هؤلاء. لنتظر إليهم كبشر لهم حقوقهم التي تقرها مبادئ حقوق الإنسان والأمم المتحدة. حكومتكم متهمة بمحاربة جميع أشكال المعارضة بالقمع الوحشي. وطبقاً لبيانات "مراقبة حقوق الإنسان" يعد النظام مسؤولاً على مدى ٣٥ سنة

من الدكتاتورية عن إختفاء ما يتراوح بين ٢٥٠ و ٢٩٠ ألف شخص. ويحمل أنهم قد قضي عليهم وأختفت جثثهم في المقابر الجماعية المجهولة. ما هو رأيكم تجاه هذا الإتهام.

الرئيس: هذا هو مصير من يحاول شق الوحدة الوطنية وأما بالنسبة للأرقام فهناك مبالغة. إنها لا تتجاوز الرقم ١٣٠ ألف في كل الأحوال.

الصحي: ما معنى الأنفال وما الذي حدث تحت هذا الأسم؟

الرئيس: الأنفال سورة قرآنية كريمة، تبدأ كما يأتي: يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين. والأنفال تعني الغنائم التي تعود لله ورسوله.

الصحي: التهمة الموجهة لكم هي أنكم هجرتم سكان ميدستان وسببتم وقتلتـم منهم ١٨٠ ألف مواطنـاً وصادـرـتـم ممتلكـاتـهمـ. أليـستـ هـذـهـ إـسـاءـةـ صـرـيـحةـ لـلـهـ وـرـسـوـلـهـ؟ـ هـلـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ بـحـاجـةـ إـلـىـ الـغـنـائـمـ؟ـ

الرئيس: يا أخي الصحفي، هذه دعـاءـةـ إـسـتـعـمـارـيـةـ بـنـكـهـةـ شـيـوعـيـةـ. أـتـحدـىـ هـؤـلـاءـ الـذـيـنـ يـتـهـمـونـنـاـ أـنـ يـدـلـوـنـاـ عـلـىـ قـبـرـ واحدـ لـهـؤـلـاءـ.ـ إـنـ كـلـ ذـنـبـنـاـ هوـ إـنـاـ بـنـيـنـاـ لـهـمـ قـرـىـ عـصـرـيـةـ وـأـنـقـذـنـاـهـمـ مـنـ قـرـاهـمـ الـمـتـلـفـةـ،ـ وـلـكـنـهـمـ يـرـفـضـونـ السـكـنـ فـيـ الـبـيـوتـ الـمـتـحـضـرـةـ.ـ إـنـهـمـ مـثـلـ الـفـجـرـ،ـ يـكـرـهـونـ كـلـ شـيـءـ لـهـ عـلـاـقـةـ بـالـحـضـارـةـ.

ولا يمكن التفاهم معهم أبداً.

الصحفي: لماذا أعلنتم الحرب على جارتكم خراسان؟

الرئيس: الحديث حول عدونا التاريخي، الذي يعتبره جنابكم جارنا، ذو شجون. لقد تحملناهم أكثر من طاقتنا. وكنا نعتقد إننا سنفتح معهم صفحة جديدة، بيد أنهم أثبتوا للعالم أنهم مجوس أقحاح لافائدة من ورائهم. ولما كانوا يقطعون المياه من أنهارنا ويسرقون نفطنا بواسطة الأنابيب المائلة ويتلاعبون بحدودنا الجغرافية التي ثبتت منذ تأسيس دولتنا، أقول إننا لم نعد نتحمل ضغوطهم، فقررنا أن نلقنهم درساً في السياسة

فما هو في رأيكم شكل العمل مع هؤلاء. الرضوخ أم التحدى؟

الصحفي: إذا كان الأمر بيدي، لما دخلت الحرب، لأن الخروج منها أكبر مصيبة. متى تتوقف الحرب؟ وهل هناك أفق يؤشر لذلك يا سيادة الرئيس؟

الرئيس: القيادة الحكيمة هي الأفق. إننا جئنا كي نبقى ونصنع التاريخ كما صنعه أجدادنا الأبطال في معركة القادسية، حيث ارتفعت راية الإسلام وأنتهت عهد المجوس إلى الأبد.

الصحفي: قبل فترة تم اعتقال وزير خارجيكم في ظروف غامضة، دون أن تعثروا على القاتل. والمتابع لأوضاع بلدكم يجد أنه لا يمر يوم دون أن تحدث عملية إرهابية. يا ترى ما هي الأسباب؟ ومتى سيتوقف هذا المسلسل الإجرامي؟

الرئيس: هناك مثل قاله الزعيم الهندي مهاتما غاندي وهو، إذا تشاهدت سماتك في النهر فالسبب هو الإنكليز. إن الاستعمار يقف وراء كل عملية إرهابية مهما كان حجمها. إنهم بذلك يريدون عرقلة بناء المشاريع الهائلة التي نريد إقامتها في بلدنا.

الصحفي: هل تقصدون بالمشاريع الهائلة، مشروع الإنتاج النووي أيضاً؟

الرئيس: طبعاً.

الصحفي: للأغراض السلمية أم العسكرية؟

الرئيس: حالياً للأغراض السلمية.

الصحفي: ولكن يقال أنكم تملكون السلاح النووي.

الرئيس: لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال.

الصحفي: ما هي أسباب إحتلالكم لدولة المرجان؟

الرئيس: كانت دولية المرجان جزءاً من وطننا قبل تشكيل دولتنا، أي منذ العهد العثماني. إننا في الحقيقة لم نحتل هذه الدولة، بل قمنا بتصحيح الخارطة التي رسمها الانكليز والفرنسيون.

الصحفي: هل يمكنكم أن تتصوروا شكل العالم يا سيادة الرئيس لو قامت كل دولة بتصحيح خارطتها؟

الرئيس: ستحصل مشكلات هنا وهناك، ولكن مبدأ حق الأمم في تقرير مصيرها أعلى بكثير من هذه المشكلات.

الصحفي: يقال أن تعداد الجيش في بلدكم قد بلغ مليون شخص. هل هذا صحيح؟

الرئيس: نعم.

الصحفي: ما هو هدفك من بناء مثل هذا الجيش الضخم؟ هل تنوون تحقيق الوحدة العربية بالقوة؟ أو كما فعل بسمارك بالنار وال الحديد؟

الرئيس: يبدو أن ما لا تستطيع تحقيقه بسنانك، يمكنك تحقيقه بقبضتك.

الصحفي: بلدكم غني بالنفط الذي يعتبر سلعة نادرة خاضعة لمقاييس وأسعار دولية معينة لا يجوز التلاعب بها أو تحويلها إلى سلاح سياسي أو إيديولوجي لصالح هذا وضد ذاك. يفيد بعض التقارير الواردة من المراكز النفطية أنكم لا تلتزمون بتلك القواعد. هل هذا صحيح؟

الرئيس: إن نفطنا هو ملك شعبنا. يتصرف به الشعب كما يشاء ثم أنتا دولة مستقلة تتصرف بثرواتنا كما نشاء، دون الإلتزام بالأوامر القادمة من الخارج.
الصحفي: شاه ايران تكلم في حينه أيضاً بهذا الإتجاه. وكان أن حصل ما حصل.

الرئيس: أنا لست شاه ايران.

الصحفي: بالتأكيد، ذلك أن شاه ايران كان لا يملك ربع جيشكم.
الرئيس: ولذلك كان عليه أن يسكت. هناك مثل شعبي يقول مد رجل بقدر اللحاف الذي يغطيك.

الصحفي: نعود مرة أخرى إلى مبادئ حقوق الإنسان والإتهامات الموجهة إلى سياستكم ونهجكم في التعامل مع المعارضة في داخل بلدكم وخارجها. وأسمحوا لي أن أكرر بعض المسائل لأهميتها.

يشار إليكم بأصابع الإتهام بأنكم مارستم وما زلتם تمارسون أعلى أشكال العنف ضد أبناء بلدكم. إن نظامكم فتاك في الداخل والخارج، يحارب جميع أشكال المعارضة بالقمع الوحشي. وطبقاً لبيانات "مراقبة حقوق الإنسان" يعد نظامكم مسؤولاً على مدى ٣٥ سنة من الدكتاتورية عن إختفاء ما يتراوح بين ٢٥٠ و ٢٩٠ ألف شخص ويتحمل أنهم قد قضي عليهم وأختفت جثثهم في المقابر الجماعية المجهولة. ووصل عدد ضحايا الأسلحة الكيميائية في مجرد مدينة صغيرة واحدة ٣٢٠٠ شخص، موثقة أسماؤهم، بينما قيل إن العدد الحقيقي يتعدى الخمسة آلاف. وتعتبر هذه المذابح أفعال إبادة جماعية genocide، كما تعد أعمال القتل وتهجير الشعب عنوة وبشكل عشوائي والهجوم بالأسلحة الكيميائية جرائم ضد الإنسانية. ما هورأيكم حول هذه الإنتهاكات التي تطرقت إلى جزء يسير منها.

الرئيس: أنظر يا أخي الصحفي المحترم كيف تقلب الحقائق. إن الذي يسمع كلامكم، الذي هو في الواقع ليس كلامكم أنتم، بل كلام هؤلاء المرتزقة العاملين

في المنظمات الشيوعية اليسارية، أقول إن من يسمع كلامكم، يعتقد أن نصف الشعب معارض، ولكن في الحقيقة إننا إذا نظرنا إلى واقع ما يسمى بالمعارضة، نجد أنها لا تملأ باصاً واحداً من باصات مصلحة نقل الركاب. ومن الجدير بالذكر أن جماعة الباص هؤلاء هم أنصاف مواطنين، يحملون جنسيات أجنبية أو بالأحرى مجوسية غير مؤهلين للقيام بأعمال المعارضة. إننا لا نخاف منهم والباب مفتوح على مصراعيه، يمكنهم أن يعودوا إلى الوطن للعمل كمعارضة.

الصحفي: شكرأً جزيلاً يا سيادة الرئيس.

الرئيس: شكرأً جزيلاً أيضاً.

١٦

في الصراع الذي استغرق عدة سنوات بين كل من خلف أبو السيف ومرزوق العلواني، تمكن الأول من الإنتحار على قريبه وغريميه وإنهاء المعركة الخفية، التي كلفت أعداداً هائلة من الضحايا، بصمت، وجده الكثير من أتباعه وأعدائه، مربياً تكتنفه سلسلة من الدسائس والحيل، الأمر الذي وضعهم أمام سؤال كبير مفاده: ما هي القوى الخفية التي وقفت إلى جانب هذا الرجل الغامض. وتحول السؤال يوماً بعد يوم إلى عقيدة راحت تتناول وتتكاثر من دون توقف، من إلقاء زوجين مختلفين يعودان إلى نسل الملائكة والشياطين. وهكذا توزع أتباعه إلى نوعين متضادين تحولا إلى عضيدين يأخذان بيديه في أحلال الأوقات. بيد أن هذا كله لم يمنعه من التوصل إلى حقيقة راسخة تقف أمامه مثل جبل شامخ، أحس به منذ فترة غير قصيرة أو بالأحرى منذ أن بدأت تماثيله البدائية تنصب في كل محطة ورقة. وتكون هذه الحقيقة الراسخة التي اقتحمت حاسته السادسة في أن نجمه بدأ بالأقوال والتوجه نحو الظلمات، بدليل أن أصواتاً مجهولة تأتيه من حواليه بكل وضوح، تقول له:

118

"انتبه يا خلف، إلك قد تجاوزت الخط الأحمر"

وعيّثاً يحاول الإتصال ب أصحاب تلك الأصوات لمعرفة المقصود بالخط الأحمر، بغية التوقف عن تجاوزه، ولكن يبدو له أنه ثمة خطوط حمراء كثيرة تجاوزت حدود معرفته. ذات يوم، وهو منصرف إلى خلوته في إحدى غرف قصره المطل على الصحراء، بانتظار الأصوات المجهولة، ظهر له شبح صديقه الذي رافقه كترجم إلى زيارة سفير الدولة العظمى. آنذاك تذكر ما تعنيه عبارة (الخط الأحمر). وتذكر أيضاً الملاحظة المهمة التي أبدتها السفير بضرورة عدم تجاوز الخط الأحمر، وإلا فإنه سيخسر صداقته وعليه أن يعرف بأنه لا صداقه بدون مصلحة. وفكراً وهو ينظر مبهوتاً إلى الشبح ويسأله:

"يا ترى، هل يقصد بتجاوز الخط الأحمر مسألة قتلي لك؟"

قال الشبح وهو يختفي فجأة:

"فكر جيداً"

ولما أخفق العديد من المحاولات لإزاحتة من الحياة، راح هو نفسه يؤمن بوجود قوة خارقة تقف وراءه دوماً وتحميه من دسائس أعدائه وراح يوحى لأنبياء بأنه على إتصال دائم بهذه الأرواح التي تحميه من غدربني البشر. وفي جلساته الخاصة مع أنبياء يتطرق باسهاب إلى هذا الموضوع، حيث يصنف هؤلاء إلى صنفين من الأرواح، يشكان الملائكة والشياطين.

ولم يقف عند هذا الحد فحسب، بل راح يزرع في رؤوس حمایته بذور هذا الإعتقاد الذي أصبح جزءاً من حياتهم وصار، من حيث لا يدركون، لزاماً عليهم، التحدث عنه ونشره في كل مكان يحلون فيه. ومن الأمور التي لم يطلع عليها أقرب المقربين إليه والتي خص بها أفراد حمایته فقط، هي لقاء المستمر مع أرواح الملوك الأسلاف حمورابي ونبوخذنصر وأشور بانيبال. يدعى بأن الأول سلمه قوانينه وشرائعه، والثاني علمه نظام الإدارة وبناء المدن والثالث علمه فنون الحرب والقتال. وأكده له الملوك الثلاثة أن يكون عنيفاً ودموياً، ذلك

أن العنف يدخل في تركيب الإنسان في بلادهم ويشكل شرطاً من شروط القيادة الحكيمة.

قالوا له، في غيبة من غيبوباته الجديدة كنصحية أبوية من الأسلاف، إن الفلسفة التي استندت إليها تشريعات حمورابي تبلورت في تكريس الحق الإلهي المطلق المنوح من الآلهة إلى الملك ليحكم بموجبه المجتمع البابلي، فهو الوسيط بين الآلهة والشعب، أو بين السماء والأرض، فهو مرة ابن السماء ومرة أخرى ابن الأرض. وبهذا كرس العلاقة العضوية بين الأطراف الثلاثة: الآلهة والحاكم والمجتمع.

عبر هذا التكريس للعلاقة بالآلهة سعى الحاكم إلى فرض قوانينه وأوامره على المجتمع وعزز معها سلطة الحاكم أزاء المعبد والكهنة والمجتمع. وعلى الرعية كلها أن تعبّر عن حبها له وإحترامها لشريعته والتزامها بتغفيف بنودها وإطاعة أوامره في الحرب والسلم.

وهناك مجموعة جديدة من العقوبات ترقى إلى مستوى التعذيب الجسدي والنفسي والإهانة المباشرة والموجعة لكرامة الإنسان. فهي إلى جانب أحكام الموت بطرق جديدة غير معهودة في القوانين السابقة، ولم تعرفها مجتمعات ودوليات المدن السابقة أو حتى الدولة المركزية التي أقيمت في فقرة السومريين والأكديين قبل ذلك، تتضمن لأول مرة عقوبات التعذيب بحق الإنسان وعقوبات القصاص المماطل للمخالفة التي وقعت من شخص على آخر، سواء أكان ذلك بالنسبة للمخالفات العائلية والإجتماعية والسياسية المختلفة. فهي تشمل عقوبة القتل والإجلاد على القازوق حتى الموت، وعقوبة الحرق بالقاء الماعقب في النار، أو عقوبة القتل وحشره بالصدع الذي أحدثه في المنزل وسده عليه، أو قتل المخالف وتعليقه على باب بيته، والرمي في النهر، والدمن بميسن الإمام، أو العبودية وعقوبة قلع العينين وقطع اللسان وقطع ثدي المرأة وجدع الأنف وقطع صيواناً لأن وقطع اليد والجلد وكسر العظم أو السن وقص نصف شعر

الرأس. وفرض القيام بأعمال السخرة في أملاك الملك، إضافة إلى تطبيق مبدأ القصاص، أي "العين بالعين والسن بالسن". وبعد أن يسهب في ذكر السلطات التي منحها له الملوك الأسلاميين، يقول بصوت عالٍ:

"هل سبق لكم أن وجدتم قتيلاً من أفراد حمايتي؟ بل هل أصيّب واحد منكم بجرح طفيف؟ كلا، أبداً"

ثم يسكت ويطبق الصمت عليهم لفترة غير قصيرة، يغمض خلالها عينيه، وحين يفتحهما، يقول بصوت هادئ:

"يكفي أن أغمض عيني لمدة خمس دقائق، آنذاك يأتيني الخبر اليقين. ويأتيني الجواب القاطع:

"خلف، كن حذراً هذا اليوم، لا تترك بيتك" أو:

"لا تبتعد عن مقرك أكثر من خمسة كيلو مترات"

ويأتيه أحيناً يوم سعيد، كله فرح وإغتباط يبشر به الملائكة والشياطين. يتحرك فيه كما يشاء ويوقع البروتوكولات والوثائق المهمة والمعاهدات التي تراكمت تنتظر يوماً كهذا. ويأمر بنحر الذبائح وتقديم الطعام للفقراء والمعوزين. ومن الأسرار التي يعرف بها بعض المقربين إليه، الواجبات الموزعة بين الملائكة والشياطين، فالأخلون يقومون بدور الحماية، حيث ينشرون أنجحتهم ويشكلون حوله طوقاً لا يخترقه أعتى الصواريخ وأمام الثانين، فلهم وظيفة هجومية مهمتها الإبادة والقتل الجماعي. وهكذا يتحد الخير والشر من أجل إيجاد حاجز فولاذي مهمته الحفاظ على حياة خلف أبو السيف كي يتمكن منمواصلة سيره الذي بدأ به قبل أعواام طوال.

لخص فلسفة العنف عند الملوك الثلاثة بعبارة (سياسة الرعب الدائم) وطبقها بكل صرامة داخل (التنظيم السري). إن مزايا سياسة الرعب الدائم لا تقدر بشمن، إذ أنها تشكل حجر الزاوية في بناء كيان التنظيم السري على أساس فولاذي تصب المنظمة كلها في بوتقة واحدة. ومن هنا يجري العمل المنظم من

أجل خلق إنسان إشتراكي قومي لا يعرف معنى حرف (لا)، بل أن قاموسه يحتوي على كلمة (نعم) خلقة، يرددده الرفيق حين يأتيه الأمر من الأعلى. أما حرف (لا)، فينطق به الرفيق حين يأتيه الأمر من كتبية عدوة.

"من ليس معنا، فهو عدونا" وهذا يعني إن من ليس عضواً عاماً في (التنظيم السري) فهو عدونا مهما أبدى من الإخلاص والأمانة، وإلا لماذا يمتنع عن الدخول في صفوفنا؟ إنه إستعلاء في غير محله.

"عزل الرفيق عن عالمه الخارجي الملوث" وهذا يعني أن إختلاط الرفيق بالعناصر غير المتممة، يسيء إلى سمعته، عليه أن يعلم بأن غير المتمم إلى صفوفنا، هو عدونا. ولذلك يجب أن يبرر رفيقنا سبب تواجده بين الأعداء، مثلاً كسب أحدهم لصفوفنا. ويجب أن تتم هذه العملية تحت إشراف أحد المسؤولين من فوق.

"القائد الأوحد هو رمز وحدة التنظيم". إن من ينتقد (التنظيم السري)، ينتقد القائد الأوحد. وإن من ينتقد القائد الأوحد، ينتقد التنظيم السري.

القائد الأوحد يعني التنظيم السري والتنظيم السري يعني القائد الأوحد. التنظيم والقائد توأم.

اجتمع الدكتاتور خلف أبو السيف كعادته ذات يوم بكتاب مستشاريه وطلب منهم أن يبتكرروا طريقة جديدة لم يسبق لأحد أن جربها من قبل، وذلك في كتابة سيرته الذاتية منذ ولادته حتى لحظة اجتماعه بهم. وبعد أن شرح لهم الهدف من ذلك، طلب منهم أن يبدأوا بالمناقشة الحرة بمنتهى الديمقراطية.

قال المستشار الأول بسرعة كما لو أنه يخشى أن يسبقه الآخرون في ذكر فكرته:

"سنكتبها يا سيدي بالذهب الخالص"

قال الدكتاتور بامتعاض ودون أن ينظر إليه:

"اسكت"

قال المستشار الثاني:

"سنكتبها بحبات اللؤلؤ يا سيدي، فهي أغلى الأحجار الكريمة"

قال الدكتاتور بنفس اللهجة:

"اسكت"

قال المستشار الثالث مبتهاجاً:

"سنكتبها ببريق أجمل الأزهار في العالم يا سيدي"

قال الدكتاتور باحتقار:

"أنت آخر من يحق له الحديث عن الأزهار يا نتن، اسكت"

كان المستشار الرابع هو آخر من بقي. وكان من عادته أن لا يتكلم إلا بعد أن يتتأكد من أن الجميع قد انتهى من كلامه. كان يعصر رأسه بيسراه بقوة، مفكراً في الجواب الذي يلائم ذوق ومزاج سيده.

قال الدكتاتور ملتفتاً بکبرباء إلى المستشار الرابع:

"لقد سمعنا آراء العباقرة الثلاثة. بقى أن نسمع رأي جنابك. فإذا كان رأيك خرائياً مثلهم، فمن الخير أن تسكت"

قال المستشار الرابع بلهجة الواثق من نفسه:

"أعتقد يا سيدي أن اقتراحِي سيكون موضع إعجابكم. إن سيرتكم الذاتية الغالية علينا لا تقدر بثمن، ولذلك فأننا لا أنظر إليها بعين التاجر الذي يمسك بالميزان ويزن الأشياء بالذهب أو الجوهر أو العطور. إن سيرتكم الذاتية أغلى بكثير من هذه الأشياء التافهة والزائلة. إننا سنكتب سيرتكم الذاتية يا سيدي بالدم، لنضعك في مقدمة أبطال التاريخ. سنأخذ قطرة واحدة من كل مقاتل سقط في المعركة. وهكذا نأخذ أكثر من خمسين ألف قطرة دم، نكتب بها سيرتكم الذاتية، فنخلدهم كلهم من خلالكم كما ونخلد أعظم معركة حذث في

التاريخ من خلال سيرتكم الذاتية. إذا كان هذا الاقتراح لا يعجبكم يا سيدي فهذا هو رأسي أمامكم، اقطعوه. إنه لشرف عظيم لي فيما بعد، إذا أضفت قطرة من دمي إلى تلك المحبة"

انطبع ابتسامة صفراء على وجه الدكتاتور وقال بارتياح ممزوج بعجرفة: "كلا. إن رأسك سيبقى منتصباً لأن رأس يفكر. وإنك ستبقى المستشار الوحيد في هذا المجال. أما الثلاثة الآخرون فلا بأس أن نمجدهم بأخذ قطرة واحدة من جثة كل واحد منهم".

تمت كتابة السيرة الذاتية للدكتاتور بالطريقة التي أرادها هو. وكان يعتقد أن الهموم التي تعصر قلبه ستزول وتحل محلها سعادة أزلية ترفعه إلى أعلى النجوم. كان يختلي إلى نفسه ويعيد آلاف الكلمات المكتوبة بالدم على ألواح ذهبية، فيرى أمامه آلاف الجماجم والهيكل العظمية والأطراف المقطوعة والجثث المشوهة. كانت الصورة تعجبه وتشيّع في نفسه نشوة لذيدة تحدّر، فيحس بالراحة التامة، بيد أن خوفاً جنونياً لم يعرف سببه بدأ يحيط بقلبه ويفقده صوابه. وعبثاً كان يحاول التخلص من هذا الخوف.

وعندما استشار بعض أطبائه الأخصائيين حول وضعه النفسي، عَدُوه أكثر، فأرسل في طلب منجمه الخاص. وحين امتنل أمامه قال: "أنظر، يا صديقي المنجم لا تحاول أن تخفي على الحقيقة، وإلا قطعت رأسك. إنني أرى مستقبلي بأم عيني، ولذلك يجب أن تصارحنني بكل شيء" "نعم يا سيدي سأصارحك بكل شيء"

قلب المنجم أوراق الكتاب القديم بيده المرتجفة، ونظر في خطوط كفي الدكتاتور، واستمع إلى نماذج من أحلامه المرعبة، ثم قال: "يا سيدي، لا أجرؤ على قول الحقيقة، أخشى أن تتآثروا بذلك" اصطنع الدكتاتور ابتسامة صفراء وقال:

"لا تخف، صارحنى بكل شيء"

"سيدي، الأعمار بيد الله والغيب لا يعرفه سواه ومع ذلكأرى أمامي جداول
الدم يا سيدي، أرى الموتى ينهضون من قبورهم ويسيرون فوق بركان ضخم
لم ينفجر بعد. نجمكم يا سيدي يتوجل في ظلام دامس، أكاد لا أراه"
نظر إليه الدكتاتور بجد وقال بلهجة استعطاف لم يعهدنا المنجم من قبل:
"أستنتج من كلام جنابك أنني سأموت قريباً، ولكن كيف سيكون الأمر إذا
تركت هذا البلد إلى مكان بعيد؟"
قال المنجم وهو يرتعد من الخوف:

"هناك شبح يا سيدي يلاحقك دوماً، والمشكلة أنه في كل مكان. إنه مثل
الروح الهائمة. لا تقتله الرصاص ولا يخربه السهم ولا تمسهك اليـد"
وفكر الدكتاتور في اثنين من أمثاله من خطفهم هذا الشبح. وتنهد بعمق
فائقاً وهو يؤشر له بالانصراف:
"كذب المنجمون وإن صدقوا"
ولم يصدق المنجم أنه خرج من الغرفة سالماً.

١٧

القادسية،
الأنفال،
جيش المليون جندي،
احتلال دولية المرجان،
حرب خراسان،
النفط سلاحنا في المعركة،
حرب الإبادة ضد شعب ميدستان،

125

حرب الإبادة ضد شيعة علي،
التعذيب البربرى ضد المعارضة...

كل هذه الإجراءات لم تتمكن من إيقاف زحف نجم الدكتاتور خلف أبو السيف من التوغل أكثر فأكثر في الظلمات اللانهائية. إنها بداية النهاية التي سجلها سفير الدولة العظمى كتجاوز للخط الأحمر الذي تم الاتفاق على أن لا يتجاوزها الرئيس خلف أبو السيف. آنذاك تذكر عبارة (الخط الأحمر) وما تعنيه. وتذكر سفرته الفجائية إلى سفير الدولة العظمى، تلك الزيارة القصيرة والمهمة التي كاد أن ينساها. وكيف ينسى الإنسان مثل هذه الزيارة المصيرية التي بادر هو بتحقيقها. وأحس بأن الشيوخة قد أدركته. وتذكر قصة أخرى، كاد ينساها هي الأخرى، نقلها له بأمانة أحد وزرائه.

كان الوزير في زيارة رسمية إلى إحدى الدول الأوروبية. كان جالساً في مقهى الفندق الذي حل فيه، يشرب قهوته في الصالة الفارغة، وعلى غير عادة الأوروبي، جاء رجل أنيق وسأله ما إذا يسمح له بالجلوس بالقرب منه. قال الوزير وهو يقلب أوراق جريدة ويسترق النظر إلى صاحبه:

”تفضل أجلس. المكان ليس ملك أبي“

وسرعان ما بدأ بالحديث، حيث عرف كل واحد منهما نفسه بالآخر. وعندما عرف الأوروبي بلد صاحبه، قال له بصوت خافت:

”هل تعرف أن رئيس بلدك الدكتاتور خلف مرشح للموت المحقق؟“

قال الوزير باسغراب وفضول:

”مرشح للموت المحقق؟“

أجاب الأوروبي بلهجة واثقة:

”نعم، الموت المحقق. إن الدولة العظمى حين تصدر قراراً من هذا النوع، فإنها ستنفذه، إن عاجلاً أم آجلاً“

"ولكن، لماذا؟ إن للدولة العظمى أعداء أشد خطراً من الرئيس خلف أبو السيف"

قال الأوروبي بلهجة صارمة:

"إن اليانكيين يعرفون مصالحهم أحسن مني ومتلك. إنهم غاضبون عليه، لأنه ضحك على ذوقونهم في مسألة الملف النووي. وأما بالنسبة إلى البترول، فحدث ولا حرج. إنه يبيع برميل البترول للمعسكر الإشتراكي بثلاثة دولارات فقط. أليس هذا تحدياً واضحاً للدولة العظمى وإهانة لهيبتها العالمية؟"

سكت الوزير وطال سكوته. ولما كان الأوروبي، يتذكر منه مواصلة الكلام، علق الوزير بهدوء وهو ينهي الحديث:

"ليس لدى ما أضيفه ولا أستطيع إبداء رأي في هذا الموضوع"

كان الوزير منذ عودته إلى الوطن يفكر في مسألة واحدة فقط وهي: هل يحتفظ بهذه الحكاية لنفسه فقط؟ أم ينقلها بحذافيرها إلى رئيسه؟. وكان يعرف جيداً أن مثل هذه الأشياء يجب أن تنقل إليه مباشرة وأنها أمر يجب أن يلتزم به كل رفيق في التنظيم السري، وإلا فإن العاقبة شديدة ولا رحمة فيها..

حال وصوله إلى البيت، كتب الوزير رسالة قصيرة موجهة إلى الرئيس خلف أبو السيف، يطلب فيها منه أن يكون حذراً في تنقلاته ويرجوه أن يحدد له موعداً للقاء به لمسألة مهمة جداً. تسلم الرئيس الرسالة وراح يتابع النجوم المتلائمة في ظلام الليل العميق وهو يتذكر كلام العراف الذي شم منه رائحة الموت. وحين عرف أن وزيره كان في الخارج لھمة رسمية، خمن أن المسألة المهمة، التي ذكرها في رسالته، إنما تتعلق بمصيره الذي بدأ يشغله منذ أسبوع. اجتاحته رجفة أصابته مثل تيار كهربائي ترافقه منذ طفولته. ذات مرة أخذه خاله إلى الطبيب النفسي الذي فحصه بعناية وقال:

"إن الولد يعاني من أزمة نفسية، تداهمه بعض الأحيان، فيتشنج بشكل مخيف"

وعندما سأله عن السبب، أجاب الطبيب بأن الأسباب كثيرة منها شعوره بالخطر والإضطهاد والمطاردة أو حين يطلب شيئاً يرفض طلبه أو حين لا يمكنه التغلب على خصميه، الأمر الذي يؤدي به إلى أن يكون عدوانياً لا يرتاح إلا إذا رأى الدم يسيل من خصميه. بدت علامات الفرح والفاخر على وجهه الحال. علق بعجرفة:

"الحل بين أيدينا إذاً. سنلبي كل حاجاته مهما كانت"

قال الطبيب بعدم إرتياح:

"ولكن هذه ليست وسيلة تربوية يا عمي"

سحب الحال الطفل من ذراعه بغضب وهو يهم إلى مغادرة الغرفة:

"سأشتري له حتى مسدساً إذا أراده"

في اليوم الثاني استدعى الرئيس خلف أبو السيف، الوزير إلى مكتبه. في البدء شكره لنقل الخبر بأمانة ثم طلب منه أن يروي كل شيء بالتفصيل. وحين تم له ما أراد، قام من مكانه قائلاً إنه يعرف بأنهم يريدون رأسه، ولكنهم لا يتمكنون من تحقيق هدفهم وانصرف الوزير إلى مكتبه.

تذكر أبو السيف

حكاية ذهابه إلى الطبيب مع حاله بكل تفاصيله. ورغم أنهما، الطبيب وحاله، كانوا يعتقدان أنه لا يفهمهما، إلا أنه كان متربهاً إلى كلامهما بكل جوارحه وفهمهما جيداً، بحيث أنه استغل في أقرب فرصة موقف حاله وطلب منه أن يشتري له مسدساً. تذكر الحال حديثه مع الطبيب وراح يستجوب الولد:

"لماذا تريد مسدساً بالذات؟ هل لك أعداء؟ أم تحس بالخطر من شخص ما؟"

"قل لي السبب بعد ذلك أفك في الموضوع"

قال الولد باحتجاج:

"ماذا يعني أفكر في الموضوع؟ أنت وعدتني أمام الطبيب بأنك ستشتري لي كل ما أطلبه منك بما فيه مسدساً"

قال الحال بتوصيل:

"يابني، أنت مازلت في الثانية عشرة من عمرك. وحيازة السلاح في مثل هذا العمر ممنوع، يعاقب عليها القانون، ثم إنك يجب أن تقول لي سبب حاجتك للمسدس. هل هدوك أحد بالقتل؟"

أجاب الولد بعناد:

"كلا."

لم يهددني أحد، ولكن أقراني الكبار يضربيوني دون أن أتمكن منهم. وأما إذا عرفوا بأنني أملك مسدساً، آنذاك يتتحولون إلى فئران ويختفون في جحورهم

هز الحال رأسه قائلاً:

"سنحل المشكلة يابني. ستحصل على ما تريده، ولكن عليك بالصبر. إنك قبل كل شيء يجب أن تتمرن على إستعمال السلاح، وإلا أنقلب السلاح ضدك. وهناك من يتمكن أن يتنزعه منك. آنذاك ستتحول إلى أضحوكة بين الناس"

كانت تلك أيام الطفولة، تذكرها الرئيس خلف أبو السيف ووجد أن الهزائم والإنتصارات لم تكن شيئاً معييناً. كانوا كصبيان صغار يتعاركون فيما بينهم ثم يتصالحون. وينسون ما حصل في اليوم الفايت. وإذا كان لابد من معرفة المنتصر أو المهزوم، فيذكرون أسم المحلة التي انتصرت أو أسم الدربونة التي خسرت المعركة، دون أن يتطرقوا إلى الأسماء المنتصرة أو الخاسرة. وهكذا كان الخاسر يختفي تحت عباءة الفريق دون الإشارة إلى اسمه. وأما اليوم فالمسألة تختلف، فالإنتصارات التي يسجلها جيش المليون جندي، تعرض وتمجد باسم الرئيس المنفذ خلف أبو السيف وأما إذا انتكست الأمور وانهزم

جيش المليون جندي، فيكون السبب عدم التزام الجندي أو عدم فهمه لأوامر القائد الذي لا يمكن أن يتزحزح عن موقعه، إلا بانتفاضة شعبية. وحين تنتصر الإنتفاضة الشعبية، توجه الأصابع إلى خلف أبو السيف وينتشر بمختلف النعوت. والويل له إذا وقع ب أيدي الجماهير الغاضبة. عندما خطر أسم الجماهير بباله، مسته رجفة أشبه بالتيار الكهربائي. وأقتضمه الخوف من جديد. خوف غريزي لم يتمكن من تبييده.

قال في نفسه وهو في قلعة عزلته:

"إنهم يفرضون علي أن أتبع معهم (سياسة الربع الدائم)، فليتسلمواها بألف عافية، إذ لا تفيدهم غيرها. إن غداً لناظره قريب"

ودرَّاج الرئيس خلف أبو السيف الذي فرض على نفسه ما يسميه بكل فخر، (عزلة الوقاية) منذ فترة غير قصيرة يشغل بالصلة وقراءة القرآن الكريم. ولكي يثبت للجميع أنه مسلم سني جيد قام بإصدار أوامره إلى كافة الدوائر والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية وإلى جميع أبناء الشعب، نساءً ورجالاً بالتقيد التام بتعاليم الإسلام. واقتنع بأن مبدأ قيادة الدولة من مكان مجهول، هو الوسيلة الوحيدة للوقوف بوجه المؤامرات والمتآمررين الذين لا يكفون عن خلق الدسائس له، بغية إزاحتة عن موقعه الذي اغتصبه بالمرأوغة والقوة. ومما زاد من مخاوفه الخبر الذي نقله وزيره من أحد الأجانب. وانتصبت أمام عينيه مجموعة من الأشباح بلا وجود، تقف في خط طويلاً لا نهاية له تحمل لافتات كتبت عليها بالدم العبارات الآتية:

شعب ميدستان يعني من الإبادة الجماعية.

أوقفوا حربكم ضد مملكة خراسان.

أخرجوا من دولة المرجان أيها اللصوص.

لا تلعبوا بنار الملف النووي.

الخزي والموت لمستعبدي شعوبهم.

قال في نفسه، ككل مرة حين يحس بالضيق يطبق على صدره وبالحبل يلتف على عنقه:

"سوف أتعشى بهم قبل أن يتغدو بي. لابد أن أتحول إلى واحد من هؤلاء الذين يسمونهم في أواسط أفريقيا بأكلة لحوم البشر. إنهم كلهم أعدائي، يريدون الإطاحة بي"

فكرة في إيجاد بديل لمدير الأمن العام، الذي حين أحس بأنه سيُضحي به في إنقلابهما الذي كشفته إستخبارات دولة البلقان، بصدق في وجهه، قائلًا بحقد:

"يا كلب يا حقير، من أنت لو لم أساندك في جرائمك"

آنذاك إلتفت إلى زبانيته الخمسة وطلب منهم أن يقوموا بالواجب. هجموا عليه بعد أن طوّوه كالذئاب وطرحوه أرضاً وهم يخربونه بآخامص بنادقهم الرشاشة على رأسه. وقبل أن يموت، طلب منهم الرئيس أن يتركوه له. وكان أن أخرج من جيبه مدية حادة، شهراها في وجه صديقه العدو. ولكي يؤدي عمله باتقان وهدوء طلب منهم أن يمسكوه بشكل لا يمكنه أن يتحرك. قال وهو يلوح بالمدية في وجهه الملائقة على الأرض، حيث وضع أحد الرجال رجله على عنقه:

"إننا لا نكتفي بالبصقة، بل نريد منك أشياء أخرى لنرسلها إلى أهلك
الخنازير الذين لم يعتنوا بتربيةك"

وبدأ أولاً بقطع أنفه ثم أذنيه وسمل عينيه. وعندما حاول قطع لسانه، صدرت منه رجفة قوية، تشنج على أثراها جسمه ثم خمد كل شيء. بيد أن عينيه ظلتا مفتوحتين، يسيل منها سائل زلالي شفاف خليط بالدم. عندها التفت إلى أفراد زبانيته، قال وهو يسلم لكل واحد منهم ظرفاً ثخيناً:

"أنا فخور بكم. لقد أديتم واجبكم على أحسن وجه. وهذه هدية متواضعة
لأنكم أرهقتم أعصابكم معي"

وراحت الهاتفات تملأ جو الغرفة المخصصة لمثل هذه التحقيقات. ثم واصل
كلامه قائلاً:

"تصوروا، بربكم هل هذه أخلاق؟ جلبته من الشارع. كان حسرا عليه قرصة
خبز. جعلت منه شخصية متميزة في مفاصل الدولة الحساسة. جعلت منه
 مديراً عاماً للأمن والمخابرات ثم يأتي ويبيح في وجهي. إتق شر من أحسنت
إليه"

مع رحيل صديقه ورفيقه على مدى عقود من الزمن، اعتقد أنه سيرتاح
لتخلصه من غريم خفي، بيد أنه أحس بعزلة باردة تسربت إلى كل جزء من
كيانه. الشعور نفسه صاحبه عندما تخلص من الرئيس مرزوق. الشعور
بالغبطة يعقبه الشعور بالعزلة.وها هو يفكر منذ أيام في اختيار من يمكنه
الإعتماد عليه إعتماداً كلياً، ولكن بلا جدوى. كلهم خونة متآمرون ولا سيما من
يسموونهم بالثقفين.

١٨

تبين لخلف أبو السيف، بعد أن أصبح رئيساً للبلد، أن هناك فرقاً بين أن تكون
مساعداً للرئيس أو رئيساً للبلد، فال الأول له هدف واضح وهو أن يكون رئيساً،
بيد أن المشكلة تبدأ حين تتحقق هذه الأمنية، فماذا تريد أن تفعل بعد أن
تحقق هدفك. قال له أحد أصدقائه القدماء ذات يوم، ردًا على سؤاله: ما هي
طموحاتك إذا دفعك القدر إلى أن تكون رئيساً للبلاد. أجابه صاحبه بقناعة:

"أن أتمكن من خدمة أبناء شعبي بكل إمكاناتي"

قال خلف أبو السيف بلهجة قاطعة:

"إذا كان هذا هدفك، فتأكد إنك لن تكون رئيساً، حتى لو حالفك الحظ"

قال الصديق بهدوء:

"أعرف ذلك، ولكن هل يمكنني أن أسألك عن طموحاتك أنت؟"

أجاب خلف بإعتزاز وقناعة:

"الشعب هو آخر ما أفكّر فيه يا صديقي العزيز. سأجعل منه أداة طيعة لخدمة مشاريعي التي تصب في تأسيس أمبراطورية تحمل أسمى وتعيش ليس ألف عام فحسب، بل إلى الأبد. سأبزّ بابل وأشور في عظمتهما. سأرفع اسم دولية المرجان من الخريطة وأضمها إلى بلدي. و المصير نفسه ستتاله دولة خراسان. سأعلنها حرب إبادة ضد ما يسمى بشعب بيستان وسائلعه كأي بقة من جلد بقرة. سأشكل جيشاً لا يقل تعداده عن مليون جندي مزود بأحدث الأسلحة النووية"

قال الصديق بـاستهزاء وماراة:

"أنت بحاجة إلى مستشارين حياديـن، يوضـحون لك مخـاطر أفـكارك وـمـشارـيعـك"

"ـهـذـهـ النـقـطـةـ سـأـفـكـرـ فـيـهـاـ،ـ حينـ يـضـعـنـيـ الـقـدـرـ فـيـ المـكـانـ المـطـلـوبـ.ـ بـالـمـنـاسـبـةـ هـلـ تـوـافـقـ أـنـ تـكـوـنـ مـسـتـشـارـيـ بـعـدـ إـقـرـارـكـ لـمـشـارـيعـيـ؟ـ"

"ـكـلاـ أـبـدـاـ"

"ـلـمـذـاـ؟ـ"

"ـلـأـنـنـيـ لـأـرـيدـ أـنـ أـرـاقـكـ إـلـىـ المـشـنـقـةـ"

"ـوـهـلـ أـنـتـ خـائـفـ مـنـ المـشـنـقـةـ؟ـ"

"ـوـهـلـ هـنـاكـ مـنـ لـاـ يـخـافـهـ؟ـ"

"ـأـنـاـ لـاـ أـخـافـ المـشـنـقـةـ"

"ـكـنـ إـذـاـ رـئـيـسـاـ لـهـذـاـ الـبـلـدـ"

كان هذا آخر لقاء له مع هذا الصديق. وكانوا آنذاك يجلسان على رحلة واحدة في الصف الثالث المتوسط، افترقا فيما بعد بسبب إنتقال والده بحكم

وظيفته إلى قصبة أخرى. وكان خلف يرى في هذا الصديق الشخص الوحيد الذي يقف على طرفي نقىض من أفكاره وعلى الرغم من ذلك كان يبحث عنه في أيام صعوده، ولكن عبثاً.

لا يدري لماذا فكر فيه هذا اليوم. يا ترى هل هذا الصديق كان يكسر عزته؟ ويشعره بالأمان؟ أم كان بمنزلة محار ينبع بالمخاطر المقلبة؟ كم هو بحاجة إلى هذا الصديق الذي كان مجرد تواجده عنده، يشع الطمأنينة والأمان في جو المكان. إنه يعرف بأن عزته اليوم تختلف عما مضى. وإن صديقه مهما أotti من قوة وحيلة، فإنه ليس في إمكانه إخراجه منها، ذلك أنه يجهل ظروفه الخاصة وطبيعة عمله، وطبائع وسلوك الناس العاملين معه. ومشكلة خلف تكمن في أنه هو نفسه يصنع المشاكل سواء لنفسه أو للآخرين وإن مفهومه للصداقة يختلف عن الآخرين، فهو ينظر إلى كل المقربين منه من الذين يحتكون به، خدماً. الصديق هو من لا يعمل عنده ولا يحتاجه ولا يحتك به يومياً ولا يؤيد كل أفكاره، بل يناقشه دون أن يخشى منه. ولكنه حين تسلق باتجاه أعلى الدرجات، انتهى مفعول الصداقة عنده ولم يعد يتحمل بعد أي رأي مخالف لرأئه. فلو أن صديقه أعطى لنفسه الحق بمعاقبة كل من يخالفه رأيه، سواء من داخل التنظيمالسري أم من خارجه. لكان هذا الصديق، يتذوق الموت على يديه ثم ينال حتفه بسبب آرائه المضادة للرئيس. حالفه الحظ إذاً عندما افترقا بسبب إنتقال أبيه إلى قصبة أخرى .

هاجم الحنين إلى الريف، موطن أجداده. عرض هذه الحالة على طبيب النفساني. قال له الطبيب بعد أن فحصه بعناية تامة:

"سيدي أنت مرهق. وإرهاقك من النوع الثقيل. أنت تحتاج إلى الراحة والهدوء لفترة غير قصيرة. سلم مسؤولياتك إلى معاونيك وأذهب إلى مكان هادئ. لا بأس أن تقضي بعض الوقت في الريف، ولكن حذار أن يعرف بوجودك أحد من أبناء العشيرة. وإلا سيقلبون حياتك إلى جحيم"

كان الرئيس خلف أبو السيف يستمع إلى كلام الطبيب بإهتمام بالغ ويفكر في الوقت نفسه في خططه التي أشغلت تفكيره منذ فترة غير قصيرة. ورأى أن إقتراح الطبيب بخصوص الراحة لا بأس به، حيث يتمكن من التفرغ إلى رسم تلك الخطط بصورة ملائمة، بيد أنه فكر في مشكلة أخرى، يجب أن يجد لها حلاً مقبولاً، ولذلك توجه إلى الطبيب يسأل:

"أفكارك ومقترناتك يا أبو الشباب في مكانها. إنها حديثة ومبدعة يمكن للإنسان أن يطورها. سأغير مثلاً هيئتي وأجعل من نفسي راعياً بصحة كل شرس، ولكن هناك مشكلة يجب معالجتها فيما بيننا..."

عندما توقف عن الكلام وبدأ كما لو أنه يفكر في إخراجه أو حبسه. أطبق عليهما الصمت. بعد هنيئة قال الطبيب:

"نعم سيدي، أمرك"

قال الرئيس بعينين متعتين:

"أنظر يا صديقي الطبيب، إنك طبيبي الخاص منذ أكثر من ثلاثة عقود من الزمن، ولكنك لا تعرف كل شيء عنني، لأنني لم أصارحك بكل شيء، إن وظيفتي هي حراسة هذه الدولة التي لا يمكن لأي إنسان أن يقودها بدون إراقة الدم بشكل يومي. كما إنني أدمت على إراقة الدم في كل ليلة، أدمن بدوره ما يسمى بالشعب على هدر دمه، الأمر الذي يمنعني الراحة. هل فهمتني جيداً؟"

أجاب الطبيب وقد أصابه الهلع:

"نعم سيدي، فهمتك جيداً"

قال خلف أبو السيف مبتسمًا بسخرية:

"إذاً، إشرح لي المعادلة"

قال الطبيب بتاعthem:

"سيدي، من أجل الحفاظ على هذه الدولة يجب إراقة دم أعدائها كل يوم. ولما كنت أنت الحارس الأول الذي يرى الدم يسيل كل يوم، لذلك أصبت بالإدمان. ومن جانب آخر أصيب ما يسمى بالشعب على الإدمان أيضاً، أي الإدمان على منح الدم والموت في سبيل لا شيء"

أطلق الرئيس ضحكة شيطانية قائلاً:

"برافو.. برافو.. سأعينك وزيراً للصحة حال مباشرتي بالعمل، إذ اكتشفت فيك إخلاصك الامتناهي لي وللدولة"

احتار الطبيب في أمر سيد الرئيس وراح يفكر في إيجاد الرابط بين مشكلته التي لم يفصح عنها وحكاية الإدمان على سيل الدم المراق من أعدائه.

بعد صمت قصير قال خلف أبو السيف:

"والآن نعود إلى موضوعنا الأول. أقولها لك بصراحة بأن لي عدداً لا يحصى من المعارضين الذين يطالبون برأسى. إن هؤلاء يجب أن أصففهم بنفسي. ولا أرتاح إلا إذا رأيت جثثهم وهي ملطخة بالدماء، عندها أنام ملء عيني ومرتاح البال. والآن تأتي أنت وتقترح علي أن أقضي فترة عطلة طويلة للراحة بدون رؤية قطرة دم. إنهم إذا لاحظوا بأن الناس لا يموتون تحت التعذيب، تعود إليهم وقادتهم وجرأتهم ويتسلمون زمام أمور ما يسمونهم بالجماهير. هل تعتقد أن جماعتنا يمكنها الكافية لإيقاف هؤلاء الرعاع عند حدودهم؟"

قال الطبيب بلهجة من يحاول أن يقنع صاحبه للقيام بعمل خير:

"سيدي، إذا كانت المشكلة هي مجرد رؤية الدم وهو سيل، فأشد في كل يوم شاة، أرميها للذئاب الجائعة في البراري. وإذا ستحت الفرصة فاعط قطعاً منها لفقراء الناس كي يسدوا بها رمقهم ولا تنس الكلاب السائبة التي تحلم بالعظام. وأما بالنسبة إلى وكلائك الذين لا تثق بهم، فسلط عليهم إخوانك وأولاد عمك وخالك وأبناء عشيرتك. فكر يا سيدي قبل كل شيء بمحنتك. إن

الدولة بحاجة إليك

قال الرئيس خلف أبو السيف وهو يفكر بجد في مقررات الطبيب:

"مقررات جيدة يا أخي الطبيب. أقر بأنني أهملتك طوال السنوات الماضية، ولكن لا بأس سنعواض السنوات الخالية. إني بحاجة إليك فعلاً، بيد أنني أريد أن أعرف ما إذا كان دم الخروف يمكن أن يعوض دماء القتلة المجرمين؟"

قال الطبيب بلهجة ودية تتوقع الخير من المقابل:

"يا سيدي الرئيس أن سيدنا إبراهيم عليه السلام كان على استعداد على التضحية بإبنه إسحاق. أنت جرب أولاً مع الشاة. إذا وجدت فيها علاجا ناجعاً، فبها. وأما إذا لم تفديرتنا مليئة بال مجرمين الذين يستحقون أكثر من إعدام، سيدي ليست ثمة مشكلة تعصى عليك. أنت ما عليك سوى أن تأمر"

قال خلف أبو السيف بجد:

"أنت مكانك فعلاً ليس هنا. سألتزم بنصائحك بحذافيرها. سأخذني بمظهر راع لأهلي في القرية. سأرثاح هناك فعلاً ولا أعود إلى القرية إلاّ بعد إنتهاء فترة الإستراحة التي مدتها لا تتجاوز ثلاثة أسابيع. هل تكفي المدة؟"

"يمكن أن تمدد الفترة ولكن بشرط أن لا تحول كوكب الواقع على أرض المرعى إلى مضيف، وإلاً فمن المستحسن أن تبقى هنا"

"إطمئن. لي تجربة كافية في الإختفاء"

أخذ توصيات الطبيب النفسي بجد وقرر أن يلتزم بها فعلاً. وعاتب نفسه إنه لم يتمكن من إكتشافه وإناطة مركز مهم وحساس في مفاصل الدولة إليه. وما لاحظ في شخصية صاحبه الطبيب إنه ليس من النوع الذي يتهالك على السلطة وبأي ثمن كان. إنه من النوع الذي يخدم المواطنين ولا يأبه بالسلطة. أعجبته فكرة تقمص دور الراعي. وبعد أن إنتهى من توزيع المسؤوليات، بصورة مؤقتة بين أفراد جماعته المخلصين له إلى درجة العبادة. عين إخوانه

الثلاثة كمستشارين رئيسيين عليهم. وظل أسبوعاً كاملاً دون أن يحلق ذقنه، بحيث إن الإنسان لم يعد يتمكن التعرف عليه. وقبل أن يختفي عن الأنظار نهائياً، عمل له أحد الفنانين، ماكياجاً يناسب عمره. وكتجربة أولية قام مع أحد أبناء أعمامه، أسمه عواد، بجولة في سوق قصبه. تأكد له أن أحداً من أهالي قريته لم يتعرف عليه، بدليل إن أحداً لم يلتفت إليه. نصحه عواد أن يترك مشروع الرعي الذي فيه مخاطر كثيرة، منها اللدغات القاتلة للثعابين السامة ومخاطر مداهمة العصابات المسلحة الهاشمة من وجه العدالة. "وأما أن تبقى وحدك خارج القرية" قال قريبيه "فمسألة، لن نقبل بها يا ابن عمي بتاتاً" لم يناقش عواد على أفكاره التي إقتنع بها فوراً، ولكنه طلب منه أن يجد له حلاً واقعياً يجنبه شر الثعابين وعصابات الليل المسلحة. قال قريبيه وهو يستغرب من قرار ابن عمه العجيب:

"يا ابن عمي، أنت رئيس دولة تريد مني أن أجده لك حلاً واقعياً يجنبك شر الثعابين وعصابات الليل المسلحة؟ ألم تجد مكاناً تفضي فيه عطلتك غير هذه الأرض القاحلة والجرداء. لماذا لا تسافر إلى أوروبا؟ ألسنت رئيس دولة. أم أن راتبك لا يسد حاجاتك"

قال خلف أبو السيف وهو يحاول مجازاة قريبيه الساذج:
"يا ابن عمي، إن المسألة لا علاقة لها براتبي. أنا لا أحتاج راتباً. إن نفط البلد كله ملكي، أتصرف به كيفما أشاء. أنا أريد أن أرتاح بعض الوقت لأنني مرهق جداً. وأحبيب أن أقضى بضعة أيام في مراعي أهلي، دون أن يحس بي أحد. والآن تأتي أنت وتتدخل الرعب في قلبي بشعابينك السامة التي لا تعرف المزاح. وفوق هذا كله تريد أن ترسلني إلى أوروبا، حيث يتختنق أعدائي ويتربصون الفرص لأعتيالي"

قال قريبيه بفرحة من وجد الحل:

"يا ابن عمي، أحننا واجبنا الحفاظ على حياتك الغالية علينا بوسائلنا

الخاصة. أنا عندي بفضل معونتك، مزرعة فيها خيمة وبيت، تبعد عن القرية عشرين كيلومتراً. ما يزور البيت حتى الطير. لا عقرية ولا ثعبان. تريد أن تبقى وحدك، فائت حر. تريدين أن أخدمك فأنتا أخيوك وخادمك

"بارك الله فيك يا ابن عمي. عرض حاتمي لا يمكن أن يرفض، ولكنني أحتاج إلى قطيع غنم صغير أشتريه بفلوسي ويجب أن أصطحب معه كلبي حنش"

قال القريب بلهجة قاطعة:

"كل شيء مقبول عدا الفلوس. ملكي هو ملك. لولاك أنت وفضلك، لكنت الآن حافياً لا أملك فلساً واحداً"

"ولكن يا ابن عمي أنا أذبح في كل يوم أو مرة في كل يومين ضحية على روح والدي، فإذا دفعت أنت فلوس الضحية من جيبك، يذهب الخير إلى روح والدك. وتبقى روح والدي خالية الوفاض، فهل يقبل ضميرك هذا الشيء؟"

رفع عواد يده اليمنى إلى أعلى وقال بلهجة حاسمة:
"كلا أبداً. الخير يجب أن يأخذ مكانه"

١٩

رغم السرية التامة التي رافقته عملية إختفاء رئيس الجمهورية الجديد والأمين العام للمنظمة السرية والقائد العام للقوات المسلحة ووكيل وزارات الداخلية والدفاع والمالية ووزارة الأمن القومي، السيد خلف أبو السيف، فإن الخبر قد انتشر عبر القنوات السرية، سواء في مفاصل الدولة أو بين أبناء الشعب. ورافقت الخبر كومة من الشائعات التي تناسب أمنية كل فئة تقف وراء صنع الخبر ولاسيما من يسمونهم بالملقفين، فهناك من يؤكد بأنه سافر إلى الإتحاد السوفييتي لدراسة الماركسية – اللينينية. وهناك من يقول إنه سافر إلى الصين، ليتتلمذ على يد مدرسة ماوتسي تونغ الذي يملك شيوعية أضبط من الماركسية – اللينينية. ويقول مصدر آخر، يحلف صاحبه بأنه صحيح مائة

بالمئة، بأن جماعة من الضباط التقديرين قد ألقوا عليه القبض ونفوه إلى الهند. واشترطوا على السلطات الهندية عدم السماح له بممارسة النشاطات السياسية ضد حكومة بلده. ومن الجدير بالذكر أن الهند تلقت موقفها المشرف باخرة من البترون الخام. وبين أن هناك مذكرة إلقاء القبض، من القضاء الهندي، على خلف أبو السيف بسبب إهانته الشعب الهندي وإتهامه بالتخلف. ومن ضمن الإشاعات التي انتشرت أيضاً كآخر إشاعة، حكاية تزعم أن خلف أبو السيف قد أصيب بلوثة جنونية أفقدت توازنه العقلي، أدخل على أثرها مستشفى الأمراض العقلية. ويقال أنه فور تواجده في ساحة المستشفى نزع ملابسه إلى آخر قطعة بحيث أصبح عارياً كما ولدته أمه. وراح يركل في أرجاء ساحة المستشفى بسرعة فائقة. وما زالت الإشاعات تتواتي ومن أغربها: أنه دخل الخلوة حتى يرتاح ويفكر بهدوء ويرسم الخطط لمعاقبة الشعب الذي لا حول له ولا قوة. ويقول البعض من هؤلاء أن شعباً أنجب مثل هذه النماذج، يجب أن يعاقب.

لاحظ عواد أن صاحبه خلف يبالغ جداً في أمور الصيانة، بحيث أنه يخاف حتى من ظله. ولا يريد أن يعرف بتواجده هنا حتى أقرب المقربين إليه. استغرب عواد من هذا التصرف غير الطبيعي من ابن عمه وراح يضرب أحمساً بأساس ويشك في مجمل تصرفه الذي لا يدل أنه أصبح رئيساً للجمهورية. وبدأت أنواع الأفكار والتساؤلات تقتصر رأسه ويفكر في مصيره هو فإذا حدث مكروه لخلف أبو السيف، يتضرر هو الآخر ويساق إلى المصير الذي ينتظر ابن عمه. وستكون أول مواجهة بينه وبين صاحب الأرض التي أستولى عليها بمعونة خلف، حيث سهل له تزوير أوراق الطابو التي انتزعت من صاحب الأرض الحقيقي عنوة. قرر عواد أن يصارحه بالأمر بكل صراحة. وأنه إذا كان هارباً من محاولة إنقلابية، فيجب عليهما أن يفكرا في إيجاد حل آخر، وإلا فإن أمرهما سيكتشف في كل الأحوال.

كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحاً عندما أمتطيا حصانيهما وهما يودعان أم خلف بإتجاه مزرعة عواد. قبل أن يتربكا الحوش، رشت أم خلف طاسة ماء من ورائهما وهي تدعو لهما بالخير والسلامة. وكانت السماء الزرقاء تحضن شمس نهاية مايس التي تبعث الحرارة بأشعتها الذهبية. عندما أصبحت القرية وراءهما، قال خلف بلهجة إحتجاج وعدم إرتياح:

"لو كان الأمر بيدي، لتركنا القرية فجراً"

قال عواد بلهجة المنتصر:

"هل رأيت إنساً في الدرابين الخالية؟"

"هذا مجرد مصادفة"

وجه عواد حصانه للإقتراب من حصان خلف وقال بلهجة تصحيحة:

"هذا ليس مجرد صدفة يا ابن عمي. إن الفلاحين والعمال يتربكون بيوبتهم فجراً، ولذلك تبقى القرية خالية في مثل هذا الوقت. وأما النساء فمشغولات بالطبخ"

قال خلف وعلائم الغبطة تعلو وجهه:

"برافو عواد. أنت تفهم أمور الصيانة أحسن بكثير من بعض الضباط الذين أضع مصيرني وحياتي بأيديهم. أنت يجب أن تدخل في صفوف الدولة. أنا بحاجة إليك. أن يكون ابن عمي إلى جنبي، يرتاح بالي"

قال عواد وهو يشكره لثقته به:

"يا ابن عمي، الدنيا فيها تقلبات كثيرة والدولة لا تبقى ملكاً أبداً. ناس يأتون وناس يذهبون. أنا أفيدك حين أكون خارج صفوف الدولة. لو كنت مفروض شرطة مثلما لم استطع أن أكون إلى جانبك"

قال خلف أبو السيف بلهجة جدية:

"تفكر جيد. مع ذلك سنتحدث بالموضوع حين نكون في المزرعة"

أراد عواد أن يطرح عليه سؤالاً بخصوص مبالغته بالصيانة، وما إذا كان يعاني من مشكلة ما. بيد أنه أحس إن ابن عمه لا يحبذ الكلام في حالة الجلوس على ظهر حصانه الذي لا يريد أن يخط جنب الحصان الآخر. وأطبق عليهما الصمت. بعد دقائق بدا خلف كما لو أنه يريد أن يصحح شيئاً. شد زمام حصانه وسحبه بقوة بحيث أضطر للتوقف عن السير. وحين لحق به عواد، قال خلف أبو السيف وكأنه يواصل كلامه:

"شوف يا ابن عمي عواد، إبني قررت أن أضمك إلى جهاز الدولة. هذا موضوع لا نقاش عليه. أنا أحتجاك كمستشار في شؤون الريف. تأتي إلي متى ما شئت. سأخصص لك مكتباً بالقرب مني، يداوم فيه مساعدك. هذه وظيفة بدرجة خاصة لها راتب وزير. هل لك اعتراض؟"

قال عواد وهو يكاد لا يصدق ما كان يحلم به من قبل:

"إذا كنت فعلاً تحتاجني يا ابن عمي فانا خادمك المطيع"

قال خلف بلهجة قاطعة:

"أنا سعيد جداً لعملنا المسبق، ولكنه سيظل سراً فيما بيننا. لا أريد أن يهيج علينا الأقارب الذين لا يشعرون من الوظائف"

"أحسنت يا ابن عمي. هذا ما أردت أن أطرحه عليك"

بعد مسيرة غير قصيرة قال عواد وهو يخرج من شروده الذهني:

" عند دوامي عندكم هل واجب علي أن ألبس ملابس الأنفدية؟"

ضحك خلف أبو السيف بصوت عال وأجاب:

"أنت حر يا عواد في اختيار نوع ملابسك. نحن ناس ديمقراطيون. أنت مثل ما يعجبك. تزيد تصير أفندي أهلاً بيتك، تزيد تبقى بالملابس العربية أهلاً وسهلاً بيتك. إذا تسألني رأيي أنا، فأفضل الملابس العربية لأنها تناسب وظيفة مستشار في شؤون الريف؟"

ارتاح عواد لكلام خلف. قال وهو يخلط الجد بالهزل:
"يا ابن عمي الله يوفقك ويبقيك ذخراً للعشيرة التي لولاك ملأت جوعاً. سوف
أحضر بالدائرة بأحسن ملابسي حتى لا أنكس رأس العشيرة"
قال خلف وهو لا يزال يبتسم وينتبه لكلام عواد الذي يرثا له:
"أنت أسمك من الآن فصاعداً الشيخ عواد. وويل من لا ينادي بهذا الأسم"
قال عواد بمزاح:
"ولكن رئيس أي عشيرة؟"
هذا غير مهم. لا يطرح عليك أحد مثل هذا السؤال. وإذا كان لابد من
السؤال، فرئيس عشيرة أبو ربيع، هذا أيضاً دبرناه لك. ماذا تريد بعد؟"
أريد لك طول العمر والصحة والسلامة ولি�حفظك الله من كل مكروه يا طويل
العمر. وأنا سأظل خادمك الأمين حتى يوم القيمة"
أراد خلف أن يمتحن قدرة عواد الأمنية وأمور الصيانة ومدى صراحته مع
نفسه وسيده، سأله قائلاً:
"هل عرف أحد بوجودي في النطة"
أجاب عواد دون تفكير:
"طبعاً يا ابن عمي، كل الأقارب يعرفون"
توقع خلف هذا الجواب ورغم ذلك قال بأسى:
"من الذي ثرثر بالموضوع ونشر الخبر؟"
هل هناك غير أمك يا ابن عمي؟ تهمس في أذن القريب بوجودك هنا وتطلب
منه أن يحتفظ بالسر لنفسه. وينتقل السر من زقاق إلى آخر وتعبر النهر
والقنطرة. وكل فرد فرح كونه هو الوحيد الذي يعرف بالخبر والخبر يعرفه
الجميع

"مفهوم، مفهوم جداً. أمي مثل ملكة إنكلترا، مصونة غير مسؤولة، لا يوجد
قانون يحاسبها"

بعد صمت قصير أضاف خلف بلهجة جد:

"شوف يا أبن عمي عواد. نحن الآن، أقصد أنا وأنت قد دخلنا مرحلة جديدة
من العلاقة تختلف عن العلاقة العشائرية وصلة القرابة. إنها تسمى بلغة الدولة
(العلاقة الرسمية)، يعني أنا الرئيس وأنت المؤوس. حين تتكلم فيما بيننا،
ت خطبني أنت بالرئيس خلف أبو السيف وأنا أخطبك بالشيخ عواد، رئيس
عشيرة أبو ربيع، مفهوم؟"

أجاب عواد بإستغراب:

"من الآن فصاعداً يا سيدي الرئيس؟"

قال خلف بلهجة آمرة:

"بالضبط من الآن فصاعداً ياشيخ عواد"

قال عواد ببلهجة:

"لكن سيدي الرئيس لا توجد عشيرة باسم أبو ربيع"

قال خلف بغضب وإستهانة:

"أنت تعلمني على أسماء القبائل والعشائر العربية ياشيخ عواد. إذا كنت لا
تعرف شيئاً فمن المستحسن لك أن تسكّت"

قال عواد في نفسه بعد أن أحس بجرح عميق في داخله: "هذه أول إهانة
تتأتّيك من الدولة التي لم توقع معها عقد العمل بعد يا عواد، فماذا سيحصل
بعد توقيعك على العقد ولكن لا بأس. لا توجد نعمة بدون إهانة. الأيام بيننا يا
خلف". قال عواد وهو يحاول أن لا يبدو كما لو أنه تأثر بكلام خلف وإهانته
الجافين:

"ها قد وصلنا سيدي الرئيس"

كان موسم الحصاد قد إنتهى. وكانت المزرعة بأشجارها الخضراء وبيتها الجميل الذي نصبته جنبه الخيمة السوداء، تبدو مثل واحة خيالية وسط هضبة، ما زالت آثار الحصاد الطري فيها واضحة المعالم. تذكر الرئيس خلف أبو السيف قصة الإستيلاء على الأرض، ولكنه لم يتتأكد من تفاصيل الملكية ولذلك نادى على عواد ليقترب منه بعد أن راح حصانه يسرع الخطى للوصول إلى القرية. قال وهو يقترب منه:

"نعم سيدي الرئيس:

"قل لي يا شيخ عواد، هل تم الإستيلاء في حينه على الأرض التي عليها المزرعة فقط أم على الأراضي المحيطة بالمزرعة أيضاً؟"

قال عواد بزهو:

"سيدي الرئيس أنت نفسك قلت في حينه، لو كلها لو ما نريد والمزرعة التي لا تحيط بها الأراضي الديم من كل الجهات ما تنفع"

كانت أشجار الرمان والبرتقال والتين والنخيل وغيرها من المتسلقات المحيطة بالفيللا قد أخفت حقيقة الدار التي هي أجمل وأكبر بكثير مما يبدو من بعيد. عندما وقف الحصانان أمام بوابة جانبية تؤدي إلى الأسطبل، ظهر رجل مسلح بادر إلى فتح البوابة. في الوقت نفسه ترجل عواد منعلى ظهر حصانه وأخذ الزمام من يد الذي ترجل هو الآخر. وبعد أن سلم عليهما، قاد الرجل الحصانين إلى الأسطبل وقدم لهما الماء والعلف. وتوجه كل من خلف عواد إلى البوابة الداخلية للفيلا. لمس خلف الباب المزرتش وهو يقول بشيء من الحسد المستتر:

"هذا خشب بلوط يا شيخ عواد"

عقب عواد بإرتياح:

"من فضل الله ومن فضلك سيدي الرئيس. الدار دارك"

إلى جانب حسده المستتر، أحس خلف بنوع من الفخر لهذا العمل الشامخ الذي لولاه لما أنسى في هذه البقعة الجرداء من الأرض. قال وهو يجيز بنظراته في أنحاء الفيلا:

"مبارك يا شيخ عواد، هذا ليس بيتك، بل أستوديو سينمائي"

قال عواد بحمية:

"قبل يا سيدي الرئيس"

قال خلف بلهجة شكر وقد انطبعت إبتسامة على وجهه:

"ألف شكر يا شيخ عواد. نحن ما نسترجع ما أعطيناها"

"مثل ما قلت يا سيدي الرئيس، البيت بيتك"

"أنت حميـت الثورة يا شـيخ عـواد فـي أحـرج أـوقـاتـها. وـالثـورـة لم تـفـعـلـ شيئاً سـوـىـ أنهاـ رـدـتـ لـكـ جـمـيلـكـ. هلـ نـسـيـتـ حـمـاـيـتـكـ ليـ عـنـدـماـ تـرـمـدـتـ عـلـىـ السـلـاطـةـ وـأـنـاـ فـيـ العـشـرـينـ مـنـ عـمـريـ؟"

"لم أنس ذلك اليوم، ولكنني فعلته لأنك ابن عمي"

"إذاً إنك خدمـتـ الثـورـةـ عـنـ طـرـيقـ العـشـيرـةـ. وـأـنـقـذـتـ حـيـاتـيـ حينـ أـخـذـتـنـيـ إـلـىـ الطـبـيـبـ سـرـاـ ثمـ أـوـصـلـتـنـيـ إـلـىـ أـهـلـيـ. تـصـوـرـ، لوـ أـصـابـكـ الجـنـ وـهـرـبـتـ دونـ آنـ تـسـاعـدـنـيـ. ماـذـاـ سـيـكـونـ مـصـيرـيـ وـمـاـذـاـ سـيـكـونـ مـصـيرـ الثـورـةـ"

قال عواد وهو يبسط يديه ووجهه إلى أعلى كما لو أنه يخاطب الله:

"فضلك يا إلهي، وإلا لما كانت هذه المزرعة ومرافقها موجودة"

قال خلف أبو السيف منحرحاً:

"برافو يا شيخ عواد، أحسنت"

بعد أن قاما بجولة إستطلاعية في أرجاء الفيلا بطبقية، إنحذا مكانيهما في الشرفة المطلة على الحديقة؛ حيث حوض بأسماك حمر صغيرة للزينة، تتوسطه

نافورة. سأله خلف ما إذا كان الحراس الذي فتح الباب موضع ثقة ويعتمد عليه. وجد عواد أن الفرصة مواتية كي يطرح أسئلته على خلف بخصوص ما يسمى بالثقة والصيانة. قال عواد ردًا على سؤال خلف:

"بصراحة يا سيدي الرئيس أضطررت أن أفضل الغريب المخلص على القريب الكسول. شغلت عندي أقارب، حولوا المزرعة إلى أحراش. كانوا يذبحون الدجاجات بالجملة. والفاكهه تقطف قبل أن تنضج وترسل إلى السوق والمكسرات تحولت إلى علف للأرانب. وأما الشغل، فحدث ولا حرج. وما أن انتقدته أو عاتبته للإهمال، إلا وتأسد عليك وإتهمك كونك أصبحت إقطاعياً تستغله. إن الحراس الذي رأيته، موضع ثقتي المطلقة. إنه يتصرف مع المزرعة كما لو أنها ملكه الخاص. والآن يا سيدي الرئيس يمكنك أن تثق بالرجل وزوجته بشكل مطلق. وأما إذا كانت ثمة مشكلة، فأنا عضيدك وتعرفني جيداً. أنا تحت أمرك. وأعرفك إنساناً شجاعاً ولكنني استغرقت منذ يوم أمس لمبالغتك في أمور الصيانة والأمن، فظلت أن هناك شيئاً تخفيه علي"

قال خلف وهو غارق في تفكير عميق:

"همومك أعرفها يا شيخ عواد ولا داعي لن بشها. أنت تتصرف بعقلانية وتعرف مصلحتك. وأما سبب مجئي إلى هنا فله عدة أسباب، سأشرحها لك بصراحة، ذلك إني عند قيامي بأول عملية ثورية، فتحت عيني عليك"

" وسلم عيونك يا سيدي الرئيس"

عندما حضر الحراس مع زوجته ورحبوا بالضيف وسائل الزوج ما إذا يعجبهما الشاي أم القهوة؟. بعد أن اختارا القهوة، سألت المرأة عن موعد تقديم طعام الغداء. أقترح خلف أبو السيف الساعة الثانية والنصف.

بعد أن أكد خلف بأن الكلام يجب أن يبقى بينهما، واصل حديثه قائلاً بأن الطبيب النفسي نصحه أن يذهب إلى الريف في منطقة نائية بيتعد عن الإخلاط بالناس ولا يدخل في مناقشات طويلة وعريضة. والسبب الثاني، وهو

الأهم، جرت محاولة إنقلابية راح ضحيتها عدد كبير من الضباط الصغار. وفي خضم هذه الأحداث، قدم الرئيس مرزوق إستقالته من كل من الرئيسين، رئاسة الجمهورية ورئيسة الهيئة الثورية العليا. والحقيقة إنه بعد تقديم الرئيس إستقالته من كل من الرئيسين، تكونان بصورة أوتوماتيكية من حصة مساعد الرئيس:

"ولكنني رغم إستحقاقى للرئيسين، عرضت الأمر للانتخاب، ولكنهم طلبوا تأجيل الطلب لغاية في بطن يعقوب. وكانت مجموعة من أعضاء الهيئة الثورية العليا كانت قد طرحت فكرة الانتخاب فيما بينها دون علمي. وتعتبر هذه العملية إنشقاقة على التنظيم. إن العملية الإنشقاقية التي ستكون نتائجها وخيمة عليهم، قد أثرت على نفسى تأثيراً كبيراً.

جئت الآن إلى هنا كي أقرر مصير هؤلاء الخونة. وأنت يا شيخ عواد بصفتك تحمل تجارب ثلاثة عقود من الزمن وكونك المستشار الريفي لرئيس الجمهورية، أحب أن أسمع رأيك بخصوص هذا الإنشقاق، علماً إتنا سنجا إلى الأسلوب الديمقراطي في حل هذه المشكلة. وسنحصل إلى أعمق أعماق الريف لمعرفة رأيهم في هذه العملية الإنشقاقية الخيانية.

قال عواد وهو يهز رأسه باستغراب للتطورات التي حدثت في العاصمة التي تخرج منها أنواع المفاجئات الغريبة:

"سيدي الرئيس، تريد الحقيقة؟ العتب عليك. إن هؤلاء الصبيان الذين يريدون أن يغدوا بك الآن، أنت جلبتهم ووضعتهم في الهيئة العليا. طلقة على رأس كل واحد منهم وابوك الله يرحمه"

تنفس الرئيس خلف أبو السيف الصعداء وقال بلهجة حقد دفين:

"برافو عليك يا شيخ عواد. هذا هو المناضل الثوري وهذا هو الحل الثوري"

قال عواد وقد بلغ به الحماس أوجه:

"سيدي الرئيس، تستريح يومين وبعد ذلك تقوم بجولات يومية في القرى، تفصح فيها هؤلاء الخونة. الحياة حركة وفي الحركة بركة. بعد ذلك تحل المشكلة مع الصبيان بالطريقة التي تجدها صائبة"

قال خلف بلهجة ندم:

"كان ينبغي أن أجعلك مستشاري منذ البداية، ولكن ما العمل مع هؤلاء الصبيان الذين يفكرون مثل البغال. يا شيخ عواد، هل تدري أن كلامك من ذهب وأنك بذلك قد ذكرتني بمسألة مهمة كنت قد نسيتها منذ مدة طويلة؟" لم يتمكن عواد من ضبط نفسه بسبب المديح الذي كسبه من الرئيس خلف أبو السيف، قال مندهشاً:

"أنا ذكرتك بمسألة مهمة يا سيدي الرئيس. من أنا حتى أذكرك بمسألة مهمة؟ ما هي هذه المسألة"

واصل خلف كلامه بحد:

"إن عبارتك (جولات يومية في القرى) هي أحد المبادئ التنظيمية التي نشأت بموجبها حركة الهيئة الثورية ومدت جذورها في أعماق الريف. اعتبر نفسك، من الآن فصاعداً، إلى جانب كونك مستشاري، عضواً في لجنة التنظيم المركزي. الراحة التي إقترحتها الطبيب ساؤجلها إلى ما بعد القضاء على المنشقين. والآن أعمل لي قائمة بأسماء كافة القرى التابعة وغير التابعة لمحافظكم مع عدد الأيام التي تحتاجها في جولتنا. إننا بزياراتنا لقواعدنا نرسخ العلاقة بين القيادة والقاعدة ونعرى في الوقت نفسه المنشقين المارقين ونرميهم إلى خارج صفوف حركتنا"

قال عواد بإصرار:

"سيدي الرئيس، زيارتك لنا فيها الخير والبركة"

قال خلف وقد أرتسست إبتسامة عريضة على وجهه:

"وأنا سعيد جداً لأنني أكتشفت من جديد يا ابن عمي الشيخ عواد"

ظلا جالسين في ركنهما يمتعان بالدفء ويتأملان الحديقة ويضعاً مختلفاً
الخطط لعملهما المشترك وكيفية القضاء على المنشقين الذين يشكلون خطراً
كبيراً، ليس على كيان الهيئة الثورية فحسب، بل على كيان الدولة أيضاً. أراد
عواد أن يعرف ما إذا كان المنشقون يعرفون بأن أوراقهم مكشوفة لدى السيد
الرئيس خلف أبو السيف. وخطورة بقائهم حتى الآن طلقاء. قال خلف أنه لو لا
معرفته التامة به، لما أجاب عن هذا السؤال الخطر. ولكنه يعرف الشيخ عواد
الذي عاصر الحركة منذ صباه. ويعرف أن السر عنده باب ضاعت مفاتيحه،
أجاب خلف متهدماً:

"إذا كان المنشقون أغبياءً، فنحن لسنا أغبياءً. إننا تغدينا بهم، قبل أن
يتعشوا بنا. وهم إلى الآن لا يعرفون بهذه الحقيقة. وتأتينا أخبارهم يوماً بعد
يوم. وهم ليسوا طلقاء كما تظن يا شيخ عواد. إن حركاتهم مراقبة مراقبة
تمامة. إذا أرادوا أن يطيروا، فأجذحتنا أطول من أجذحتهم. إذا أرادوا أن
يعبروا الحدود البرية، فنحن نستقبلهم هناك. نحن سنشكل محكمة خاصة
عادلة باسم (محكمة الهيئة الثورية العليا)، سنضع أمام المحكمة الأدلة الدامغة
التي ستثبت خيانتهم وإنشقاقهم الذي لو توسمى له النجاح لانتشر الخراب في
كل مكان"

قاطعه عواد بحماس قائلًا:

" تكون أنت تحاكمهم يا سيدي الرئيس"

"بهذا الخصوص سيصدر قرار من الهيئة الثورية العليا. مع ذلك يمكنك أن
تقترح من تشاء ويمكن للمنتمي أن يرشح نفسه أيضاً"

إتصل الرئيس خلف أبو السيف بصورة سرية بمسؤول منظمة الهيئة الثورية وأعلم بوجوده في المنطقة لأسباب خاصة تتعلق بالهيئة الثورية العليا. وأكد بأن زيارته سرية للغاية. وأن من ضمن زيارته، الإشراف على الهيئات القاعدية وإعلامها بسياسة الهيئة الثورية الجديدة والتغييرات المحتملة في تاكتيكاتها. كل رفيق ملزم بالحضور، ولذلك يطلب منه أن يزوده بسيارة جيب، يفضل أن تكون يابانية الصنع مع سائق ماهر في السيادة والتصليح.

الحماية تناط بالرفاقي أنفسهم وتكون تحت إشرافك.

لا يجوز الغياب إلا بإجازة مرضية.

أوكِّد مرة أخرى بأن زيارتي سرية للغاية.

إستغرقت عملية زيارة الهيئات القاعدية ثلاثة أيام بكمالها. وكان الزمن المخصص لكل زيارة نصف الساعة، حيث بلغهم الرئيس خلف أبو السيف بضرورة الاحتفاظ بسرية الإجتماعات وعدم الترثية بها. وأن العلاقة التنظيمية من الآن فصاعداً ستكون مباشرة به ولا يجري الإتصال بأي رفيق آخر مهما كانت درجة التنظيمية. أكد خلف بأن هناك محاولات من عناصر مخربة لشق التنظيم، ولكن القيادة حذرة جداً. في الحالات الإضطرارية يجري الإتصال بالرفيق شيخ عواد. نبذ الحاضرون بالإجماع المحاولات الإنشقاقية التي تقوم بها العناصر المخربة وهتفوا بحياة الرفيق الرئيس البطل خلف مراراً وتكراراً. وطالبوا بالحكم بالإعدام حتى الموت على المنشقين الخونة.

تمكن الرئيس خلف أبو السيف أن يتصل خلال ثلاثة أسابيع بكل منظمات القاعدة في البلد وتمكن من زيارة أغلبها. وفي تنقلاته التي قام بها بمنتهى السرية، رافقه عواد والزبانية الخمسة الذين سبق أن صدرت بحقهم أحكام الإعدام. وكان واجب الزبانية الخمسة الذين تمزقوا على القيام بمختلف أنواع

الحركات البهلوانية والقتل والتعذيب، هو التصفيية الفورية للعناصر التي لها علاقة ولو بسيطة برؤوس المنشقين الذين، كانوا يريدون السيطرة، كما يقول خلف أبو السيف، على مقدرات الهيئة الثورية.

كان خلف وينادونه عادة بالرفيق خلف، يحمل في جيده دفتراً صغيراً يحتوي على أسماء وعناوين وأرقام تلفونات مسؤولي جميع اللجان القاعدية. وكان أغلب هؤلاء متفرغين للعمل الحزبي، لا يحق لهم دخول مقرات (الهيئة الثورية) العلنية، ذلك لأن التنظيم، رغم كونه يقود الحكم، سري للغاية.

في عمليات الأسبوع الثالث، بدأوا بأول عملية كما يأتي:

سيارة النقل (ترانسبورتر) التي تحتوي على ثمانية ركاب من ضمنهم الزبانية الخمسة، السائق، الشيخ عواد وجندي حماية، ترافقها سيارة خلف المتواضعة مع حمايته، تصلان مدينة ب وتتفان في مكان خال. خلف يتصل تلفونيا بالرفيق المسؤول عن تنظيم المدينة، من داخل سيارته. متلقى الخبرة يعرف بأن الشخص الذي يخبره، هو الرفيق خلف، ذلك أنه تسلم قبل يومين إشعاراً بالإستعداد لوصوله، قال بلهجة إحترام:

"نعم سيدي، أمرك"

قال خلف بصوت هاديء:

"سيارتتا القديمة واقفة تحت شجرة توت مقابل مطعم الوفاء. لا تؤخرنا بالشكليات. وقتنا محدود جداً"

قال مسؤول تنظيم المدينة بصوت منفعل:

"خلال خمس دقائق عندكم رفيق"

قال خلف بإرتياح:

"بارك الله فيك. نحن في إنتظارك"

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف. كانوا قد أخذوا أماكنهم

في الباص الصغير يراقبون الشارع الفارغ، سألهم خلف ما إذا كانوا جياعاً أو يريدون تحديد موعد معين لتناول طعام الغداء، اتفقوا بالإجماع على أن يكون الموعد، الثانية بعد الظهر. أراد أحدهم أن يذهب إلى المطعم المقابل لقضاء حاجة، بيد أن خلف أبو السيف سأله ما إذا كان بإمكانه ضبط نفسه لحين الوصول إلى المكان المحدد:

"طبعاً سيدي، بإمكانني أن أنتظر أكثر من ساعة"

قال خلف بزهو:

"بارك الله فيك"

عندما أقبلت سيارة نجدة تابعة للشرطة بسرعة فائقة من جهة مركز المدينة ووقفت هنالك أمام المطعم ثم أستدارت لتوقف جنب السيارات. وفي أثناء هذا الوقت أنتقل خلف أبو السيف إلى سيارته دون أن يحس به أحد من الجالسين في سيارة النجدة. أشار سائق السيارة، التي تقل خلف، إلى سيارة النجدة أن لا يقترب منها. وحين وقفت، ترجل منها المسؤول الحزبي وهو يلوح بجريدة الجمهورية، وهي الإشارة التي تم الاتفاق عليها قبل يومين. عندما اقترب المسؤول من سيارة خلف، قال له هذا:

"بارك الله فيك يا رفيق، إنها بالضبط ثلاثة دقائق. قل للنجدة إننا لا نحتاجها بعد"

بإشارة من المسؤول، تحركت سيارة النجدة باتجاه المدينة. ظل المسؤول واقفاً أمام الباب من جهة السائق بانتظار ما يأتي من داخل السيارة. كان الرئيس خلف جالساً في المؤخرة، يحيط به ضابطان مسلحان، بكمال التجهيزات العسكرية وثمة ضابط آخر يحتل المقعد الأمامي جنب السائق. فتح الضابط الجالس وراء السائق الباب وطلب منه أن يقترب. عندها قال خلف بصوت فيه شكوى وعتاب:

"سمعة منظمتكم سيئة يا رفيق. إنها لا تلائم تقاليد مدینتکم الثورية ولا
تقاليد حركة الهيئة الثورية. تالي ويأكلكم؟ ما العمل معكم؟"
قال المسؤول وهو يتنفس الصعداء:

"سيدي الرفيق، أسمح لي أن أقول بأن العتب للقيادة. إنهم يحتاجون إلى
عين قوية تلقنهم درساً لن ينسوه، وإلا فإنهم سوف يأكلوننا. نحن نستطيع أن
نتقدّهم ونفضحهم، أما العقاب الذي يستحقونه فيبقي القيادة. أعملوا شيئاً من
أجل تنقية الحركة من هؤلاء المنافقين، أيها الرفيق"
أخرج خلف من جيشه، دفتراً صغيراً وراح يكتب فيه بعض الملاحظات. رفع
رأسه، وقال:

"أحس في كلامك بحرقة قلب مناضل ثوري. ستعاقب من يستحق العقاب
أيها الرفيق. يوم لك ويوم عليك"

قال المسؤول بلهجة قناعة:

"نحن ثقتنا عالية بكم أيها الرفيق"

قال خلف أبو السيف بلهجة تهديد مبطن:

"هل سيحضر الأواباش الأبطال هذا اليوم؟"

"طبعاً رفيق، وبلهفة شديدة. إنهم يهددون القيادة باسم الديمقراطية. إنهم
وبحرون وستراهم اليوم بأم عينك"

هز خلف رأسه بإستغراب ممزوج بسخرية:

"أنا مشتاق إليهم جميعاً. هل يكون اللقاء في نفس المكان الذي التقينا فيه
في المرة السابقة؟ كان ذلك مكاناً جيداً"

أجاب المسؤول وهو يتمنى أن يكون الرفيق خلف أبو السيف قد فهم كلامه
وما يريد منه بصورة جيدة:

"نعم سيدى، في المكان نفسه"

قال خلف وهو ينظر في ساعته:

"أنظر رفيق، إننا الآن تحت ضغط الوقت. أما ماما عدة مواعيد مهمة وسوف
نبقى عندكم أقصى شيء نصف ساعة ثم نسافر، لذلك لا تفكروا في أمر
الغداء"

"ولكن كل شيء جاهز يا رفيق"

"الوقت غير جاهز. حصلنا أعلاه لأحسن الملزمين بخط الهيئة الثورية
العليا. والآن ينتظرك سائق الباص. ونحن وداعكم"

و قبل أن يقول المسؤول شيئاً، تم تشغيل المحرك الذي دفع السيارة إلى
الأمام. وأخذ المسؤول مكانه جنب السائق الذي شغل هو الآخر المحرك.
وتحركت السيارات بإتجاه خارج المدينة.

بعد نحو ربع الساعة وصلت السيارات إلى منطقة سكنية راقية تحيط بها
مجموعة كثيفة من بساتين النخيل. كان البيت الذي قصدته السيارات يبعد
مسافة لا تقل عن كيلو متر واحد من المجمع. ما أن أقتربت السيارات من
سور البيت، إلا وأنفتحت بوابة كبيرة تؤدي إلى كراج واسع تحت الأرض،
يحتوي على مجموعة من السيارات الفاخرة. ترجل الركاب بعد أن أخذت
السيارات مكانهما في ركن خاص. وبدون ضجة أحتل الزبانية الخمسة منفذ
الكراج، بيد أن الرئيس خلف أبو السيف أعطى إشارة بأن يتبعوه إلى قاعة
الإجتماع.

كانت القاعة مبنية على أحدث الأسس العصرية بمقاعد مريحة وميكروفونات
دقيقة الصنع، تنقل حتى الهمسات إلى أذني المتلقى. كانت القاعة تحتوي على
خمسين كادراً محترفاً، جاءوا ليتابعوا في الشؤون التنظيمية وليرحبوا
برئيسهم الجديد الذي تولى في الوقت نفسه منصب السكرتير العام للهيئة

الثورية العليا. وما أن أتخد الرئيس خلف أبو السيف مكانه على الكرسي الخاص به، إلا وبدأ التصفيق الحاد والهتافات بحياة القائد المحبوب. وفي أثناء ذلك تم إحتلال القاعة ومنافذها من قبل الزبانية الخمسة والحمامية الخاصة بالرئيس خلف أبو السيف. حاول إثنان من الجالسين في مؤخرة القاعة، الخروج من الباب الخلفي بيد أن أحد أفراد الزبانية أعادهما إلى مكانهما.

إفتتح الحفلاً المسؤول الأول الذي رافق الضيوف منذ البداية، ووصف اللقاء بالتاريخي الذي ينعقد لأول مرة بين القيادة والقاعدة. وقال أنه لا يريد أن يطيل الكلام الذي سيتركه للقائد التاريخي، المناضل، والأب، السكرتير العام للهيئة الثورية العليا ورئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة. وبعد وقفة قصيرة واصل عريف الحفل بصوت جهوري عال:

والآن الرفيق القائد خلف أبو السيف حفظه الله. قام خلف من مكانه الذي يبعد ثلاث خطوات من منصة الخطابة المعدة لوضعه على الكرسي والوقوف، وأتخد مكانه على الكرسي المخصص له. كانت علائم وجهه متجمهة، تتطاير منه الشرر. تناول جرعة من الماء وأعتدل في جلسته متذمزاً وضعية مريحة. خيم صمت مطبق على جو القاعة:

"رفاق: إنني جئتكم بتخوين من قيادة الحركة بعد أن تسللت هذه سيلان من الشكاوى من قواعد الحركة المخلصة لخطنا الثابت الذي لن ننحرف عنه قيد شعرة. إنهم يريدون منا أن تكون ليبراليين أو نكون ديمقراطيين ليبراليين. لا فرق بين الاثنين: الليبرالية، حسب فهمنا تعني أمور تائهة. وإذا دمجنا الكلمتين وصنعنا منها جملة مفيدة سنحصل على ما يلي:

أمور الديمقراطية التائهة. وإذا ترجمنا الجملة بكمالها إلى اللغة العربية، سنحصل على ما يلي:

أمور حكم الشعب التائهة،

بشرفكم وشرفكم الحركي، هل هذه جملة مفيدة، رفاق؟

صدرت موجة إحتجاج شديدة من القاعة:

(كلا يا رفيق كلا... إنها ضحك على الذقون")

قال خلف بلهجة مبشرحة:

"بارك الله فيكم لإحساسكم الثوري. إن هؤلاء أذًى يريدون أن يضحكوا ليس على ذقن الهيئة الثورية العليا فحسب، بل على ذقن حركتنا الثورية برمتها. ما هو موقفنا تجاه مثل هذا الوضع؟ لكن ديمقراطيين، بل وأكثر ديمقراطية من الأغريق القدماء. ونعامل رفاقنا جميعاً معاملة ديمقراطية، يعبرون عن آرائهم بمنتهى الديمقراطية والحرية.

إنني جئت إلى هنا بالدرجة الأولى من أجل الاستماع إلى الآراء الجديدة التي لا شك تدفع حركتنا إلى الأمام، بشرط أن لا يجري التبشير بها في خارج صفوف تنظيمات الحركة أو تؤدي إلى التكتلات والإنشقاق عن التنظيم الأم، علماً إتنا سبق وأن وضعنا اليد على تحركات إنشقاقية سواء في القيادة أو في القاعدة. وسوف تكون محاسبتهم عسيرة.

والآن أريد أن يسجل الرفاق الذين يريدون التكلم أسماءهم. وأريد منهم أن لا يخفوا عنّا أي شيء. إتنا لا نريد أن نلعب لعبة القطة والفارأة"

رفع عدة حاضرين من المقاعد الخلفية أياديهم بغية التسجيل للكلام. وراح المسؤول الأول يسجل الأسماء التي بلغت السبعة. عندها طلب خلف من المسؤول الأول أن يرافقه إلى الحمام لقضاء حاجة. عندما أصبحا خارج القاعة، قال المسؤول الأول لخلف، أنه بعد قضاء حاجته، يجب أن يأخذ من وقته عشر دقائق لأمور مهمة تتعلق بهؤلاء السبعة وغيرهم، قال خلف:

"أنا خرجت أيضاً للسبب نفسه، هيا تكلم"

قال المسؤول الأول بصوت خافت:

"من المستحسن أن نواصل كلامنا في الغرفة الخالية"
قال خلف بزهو وهو يخطو عتبة باب الغرفة الخالية:
"أموركم الصيانية جيدة"
"سوف تتحسن أكثر بفضلكم رفيق، الآن أريد أن أبدي بعض الملاحظات
على السبعة الذين طلبو الكلام
قاطعه خلف قائلاً بإستعمال:
"إختصر رفيق"
"هؤلاء السبعة أيها الرفيق أغتصبوا تنظيماتهم ولا يعترفون بالقيادة بتاتاً،
لذلك لا يفيد معهم سوى القوة. اليوم يجب أن تحسموا الأمور معهم. إنهم
أسوأ من أعدائنا الحقيقيين"
قال خلف وهو في إستعمال من أمره:
"الآن يجب أن ترجع إلى القاعة، قل لي هل تريد أن نرميهم هنا في الغرفة
الملحقة بالقاعة، أم نصفيهم بعد الخطف في مكان مجهول؟"
قال المسؤول الأول وهو يتنفس الصعداء:
"الخيار الثاني أعقل يا رفيق"
"تدلل رفيق"
وتوجهها إلى القاعة، حيث أخذ كل واحد منهم مكانه على الكرسي
المخصص له. أخذ خلف الورقة من المسؤول الأول وراح ينظر إليها بدقة. سأل
موجهاً كلامه إلى القاعة:
"هل هناك من يحب أن نسجل أسمه؟"
أنتظر هنيئة دون أن يطلب أحد تسجيل أسمه للمناقشة. قال خلف:
"هناك مجال لتسجيل الأسماء خلال المناقشة أيضاً، حتى لا يتهمنا أحد

بالدكتatorية أو الإنفراد بالرأي

قبل أن ينادي خلف أبو السيف على الأسم الأول، أخرج من جيبه دفتراً صغيراً خاصاً بالعنانيين وراح يبحث عن الأسم تحت حروف الألفباء بشكل غير ملتف للإنتباه. وجد الأسم وبجانبه ملاحظة بين قوسين تقول: (منشق، خطير جداً. إتصال مباشر بالرؤوس). وضع الدفتر مفتوحاً على المنصة ونادي على الأسم. حين وقف في مكانه بنوع من التحدي، قال خلف:

"الآن، الكلام لك. تفضل خذ حريتك"

قال الأسم الأول:

"قبل كل شيء نرحب بكم أيها الرفيق ونرجو أن تنقلوا حياتنا إلى قيادة الهيئة الثورية العليا، راجين أن تتذدوا ملاحظاتنا أساساً موضوعياً لتخليص البلد من التفكك والحرمان والإنهيار والإتيان بقيادة مثقفة، غير متخلفة، تتماشى مع روح العصر التي تتطلب ثقافة واسعة لبناء البلد وعدم زجه في الحروب العدوانية التي لا تجلب لنا سوى الخراب والأطلال. ولا تتحقق هذه الأماني إلا بتطبيق النظام الديمقراطي وذلك بفسح المجال أمام الأحزاب والكتل الأخرى وتوحيد عملها ضمن جبهة وطنية تقدمية، تقود البلد من خلال حكومة تمثل كافة الأطياف والفئات والطبقات"

تصفيق حاد من نصف الحاضرين.

قال خلف وهو يهز رأسه:

"كملت كلامك رفيق؟"

"نعم رفيق"

قال خلف بحدة:

"هل هذا رأيك الشخصي أم وراءك جماعة؟"

أجاب الأسم الأول بتحذ:

"هذا هو رأي أغلبية قواعد الحزب"

"هل قمت بعمل إحصائية"

"لا داعي لعمل أي إحصائية. قواعد المنظمة كلها متذمرة من تصرفات
القيادة"

قال خلف أبو السيف وهو يحاول التغاب على غضبه:

"هل أنت مصر على آرائك؟ أم لك إستعداد للتنازل عنها وتقديم اعتذار
شخصي للحاضرين في هذا اللقاء مع تقديم نسخة منه إلى قيادة الهيئة
الثورية العليا. هذه آخر فرصة أمامك وأعلم أن أفكارك مستوردة من بعض
الجهات العمilla والأجنبية التي تريد أن تسيء إلى وحدة بلدنا. أنت تمثل رأي
الرتل الخامس ولك علاقة تامة بالمشقين الخونة"

أراد الأسم الأول أن يتكلم، بيد أن خلف أبو السيف قام بيده اليسرى
بحركة، هجم على أثرها ثلاثة من أزلام الزبانية، عليه ودفعوه إلى الغرفنة
الملحقة بالمسرح. ولم تمض هنيئة، إلا وأهتزت القاعة على دوي صلية نار من
بندقية رشاشة، خرج بعدها أفراد الزبانية الثلاثة بهدوء كأن شيئاً لم يكن. قال
أقدمهم موجهاً كلامه إلى الرئيس خلف أبو السيف:

"سيدي، الميت هجم على صاحبنا ليتنزع منه سلاحه، يبدو أنه أراد أن
ينتحر، فسهلت أنا له العملية"

قال خلف بلهجة منتصر في معركة حاسمة:

"برافو رفيق، حسناً فعلت"

ثم إلتفت إلى مسؤول المنظمة سائلاً:

"هل كان صاحبكم مصاباً بمرض نفسي؟"

أجاب المسؤول وهو يتنفس الصعداء:

"قل أمراض نفسية يا سيدي الرئيس. إنه إنسان غير طبيعي. حاول أن

ينتحر أكثر من مرة ولكنه نجا في كل مرة بأعجوبة"

"خذوا الجثة إلى الطب العدلي. أفهموهم بمسألة الأمراض التي كان يعاني منها. وقولوا لهم أن يصدروا شهادة الوفاة في أسرع وقت ممكن. ورغم كل شيء، يجب على منظمتكم أن تقوم بالمساهمة في تأبين الفقيد، وأكدوا على مسألة هجومه على ضابط حماية الرئيس ومحاولة تجريده من السلاح"

أعلن عريف الحفل عن وقوع حادث مؤسف أدى إلى مقتل الطالب (....) الذي هجم على أحد أفراد حماية الرئيس لزع سلاحه، الأمر الذي أدى إلى أن يطلق عليه الرصاص الذي أرداه قتيلاً إتنا إذ ننعي الفقيد بمزيد الأسى والأسف، لابد أن نشير إلى أن الفقيد كان يعاني من مرض المطاردة النفسي إلى جانب الشيزوفراانيا (إنفصام الشخصية) رحمة الله وأسكنه فسيح جنانه. والآن أيها الرفاق نواصل نقاشنا ضمن اللقاء التاريخي. ولি�تفضل السيد الرئيس. قال خلف:

"إذا جاء القضاء والقدر، فإن أي قوة في العالم لا تستطيع صده. وينبغي أن لا يكون الموت عائقاً أمامنا أبداً. والآن نبدأ بالأسم الثاني"

قام الأسم الثاني في مكانه وهو يرتجف من الخوف. قال والكلمات ترتعش في فمه:

"سأتكلم بصراحة. وأقول بأنني كنت مخدوعاً بكلمات الفقيد. لقد أستيقظ ضميري. أنا سأبقى مخلصاً للرفيق القائد خلف أبو السيفين والهيئة الثورية العليا. وإنني مستعد كل الإستعداد للدلاء بشهادتي والإستماع لشهادات الشهدود أمام الهيئة التحقيقية والإعتراف على كل ما أعرفه"

صحح أحدهم قائلاً:

"أبو السيف وليس سيفين"

قال خلف وهو يبتسم:

"لا تقاطع كلامه، إنه حر في تسمية قائدك. وإنني أسمح لنفسي أن أنهن لإستيقاظ ضميره وشجاعته في إنتقاد نفسه. هذه صفة تتسم بالشجاعة، ولكن عليك أن تتصف بالشجاعة نفسها أمام الهيئة التحقيقية التي ستزوركم قريباً" الخمسة الآخرون. من ينتمون إلى المنشقين المعارضين، أستغنووا عن المساهمة في النقاش على أن يحضروا في الموعد الذي سيحدد للتحقيق مع المعارضين بخصوص علاقتهم بالمنشقين في داخل القيادة.

نظر الرئيس خلف أبو السيف إلى ساعته، قائلاً بدهشة:

"الوقت أخذنا. كان من المفروض أن نبقى عندكم نصف الساعة فقط" عندما همّوا بترك القاعة، حاول بعض الحاضرين للقاء، مصافحة الرئيس خلف وأخذ الصور معه، بيد أن أفراد الحماية، ولاسيما الزبانية الخمسة، منعوهم من أي إحتكاك به بحجة ضيق الوقت. وحين نزلوا السلالم إلى السرداد، وضع خلف سعاده على رقبة عواد وهو مترشح الأسارير قائلاً: "ما رأيك يا شيخ عواد في مجل مجمل العملية؟"

أجاب عواد بحماس:

"رائعة، رائعة جداً. هكذا تكون القيادة وإلا فلا. إنها طريقة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه. العصا لمن عصى. إن لم تكن ذئباً أفترستك بنات آوى إذاً أنت موافق على كل شيء"

قال عواد بقناعة:

"طبعاً بالتأكيد. إن الوضع يجبرك على إستعمال القوة. هو يريد أن ينتزع منك السلطة بالقوة، فماذا يكون موقفك منه؟ هل تبقى تتفرج عليه بإنتظار كيفية ذبحه لك، وتستسلم السلطة منه؟"

علق خلف بإرتياح لكلام عواد:

"لا تساهل بعد الآن. اللقاء القادم سيكون أكثر دموية. كان من المفروض أن

نهيهم اليوم سبعتهم بصلية واحدة، ولكننا راعينا تحذيرات ما يسمى
بمنظمات حقوق الإنسان ولا سيما بما يتعلق بالطلاب

قال عواد بلهجة أبوية:

"المبالغة في إستعمال القوة قد تؤدي إلى نتائج فردية وخيمة، يجب تجنبها
إن أمكن. ولكن لا يجوز الاستغناء عن قوة السلاح"

"سوف تستفيد منك القيادة يا شيخ عواد"

"وسأستفيد أنا أكثر"

عندما أخذوا أماكنهم في السياراتين، اللتين لا يبدو على إحداهما أنها نقل
رئيس دولة. بعد أن تركوا المجمع السكني وبساتين النخيل المحطة به، أمر
الرئيس خلف أبو السيف الوقوف في مكان منبسط لقضاء إستراحة أمدها
عشر دقائق، للتحدث عن بعض الأمور المتعلقة بإدارة سفرتهم وتقييم اللقاء
الأخير. ووضع خطة للقاء القادم الذي من المفروض أن يبدأ بعد تناول طعام
الغداء في مطعم يقع على الشارع العام. وقف السيارات، بناء على أمر
الرئيس خلف في مكان خاص بوقوف السيارات. ورغم عدم وجود أي سيارة
أخرى، تم إحتلال المكان الذي كانت تقع تحت ظلال أشجار كالبتوس، زرعت
بلا عناء. قال عواد وهو يراقب الأشجار:

"هل هناك ضرورة لإحتلال المكان؟"

أجاب خلف الذي كان واقفاً بالقرب منه:

"نعم يا شيخ عواد. السلاح يعني الحماية والحماية تعني السلاح، وكلاهما
يعني الهيبة. والسلطة التي ليست لها هيبة لا نفع فيها. بينما حلت الدولة،
يجب أن تكون هناك حماية، وإلا فإن أبسط راج يمكن أن يتحداها بكسريته"

قال عواد بإعجاب:

"هذا كلام معقول، سيد الرئيس. خلال أيام قليلة أستفدت منك الكثير"

قال الرئيس خلف بزهو:

"والآن لنتعلم من الشعب ولنر إنطباعاتهم حول اللقاء"

وراحوا يعبرون عن إنطباعاتهم بسرعة. وتم الإجماع على أن اللقاء كان جيداً وكان موقف الحماية جيداً جداً. شيء واحد يؤخذ عليه وهو الإكتفاء برمي معارض واحد فقط، إذ كان من المفروض رمي الأشخاص السبعة جميعاً. أنهى خلف المناقشة قائلاً:

"القاعة ليست مكاناً للرمي وتنفيذ حكم الإعدام، بل مكاناً خاصاً للمناقشات العلمية والندوات، مع ذلك وافقنا على إنهاء العدو المفضوح، الذي كان صلفاً جداً أما البقية الباقيه، عدا الذي إنهار، فتقرر مصائرهم من قبل الهيئة التحقيقية الخاصة التي ستزور كافة التنظيمات. والآن، هيا إلى مقاعدكم"

٢١

خلال فترة غيابه عن الظهور أمام الرأي العام، التي استغرقت أكثر من شهر ونصف الشهر، تمكن خلف أن يطلع على كثير من الأمور التي يمكن لها أن تقرر مصير إنسان وضعه القدر على دفة الحكم. لقد تمكن أن يتغلب على أحد نواديه، ألا وهو القراءة. فقد عثر في مكتبة مكتب رئاسة الجمهورية على كتاب بعنوان (الأمير) للكاتب الإيطالي ماكيافيلي، ظنه في باديء الأمر رواية للأحداث. وببدأ يقرأ فيه. آنذاك تبين له أن الكتاب لا علاقة له بالرواية، ولكنه شيق ومفيد، بل ضروري لرجل السياسة الذي يريد أن ينجح في عمله مهما كان الثمن وبائي وسيلة كانت. وكان أن تعلق بالقراءة عن طريق هذا الباب. ووجد أن الكتاب يلائم نهجه في الحياة ولا سيما مقولته التي أعجب بها أشد العجب (الغاية تبرر الوسيلة).

ومما استفاد منه، فائدة كبيرة إكتشافه لعناصر ملخصة للتنظيم، أهملت وأبعدت عن أجواء الحركة لأسباب شخصية بحتة غير مبدئية من أمثال عواد.

قبل أن يلتقي برفاقه في قيادة الهيئة الثورية العليا، أصدر بعض المراسيم الجمهورية الضرورية، منها: تعيين الشيخ عواد جدوع مديرًا للأمن ومستشاراً خاصاً لشؤون الريف لدى رئيس الجمهورية. إلغاء حماية الرئيس السابق وتعيين الزيانية الخمسة لحماية الرئيس الجديد. إنطة وزارات الداخلية والأمن القومي والمالية والدفاع إلى رئيس الجمهورية بالوكالة.

كان مكتب قيادة الهيئة الثورية العليا في زمن الرئيس السابق مرزوق يحتوي على أحد عشر عضواً، ولكن بعد تخلي رئيس الجمهورية السابق عن واجباته لأسباب مرضية، تقلص العدد إلى عشرة أعضاء. وفي حالة إضافة رفيق جديد لقيادة، يجب أن يوافق عليه ثلثا عدد الأعضاء. كانت الهيئة لم تجتمع منذ ثلاثة أشهر في حين أنها يجب أن تجتمع مرة في الأسبوع.

بعد أن تجمعت النقاط ضد خلف منها نصب نفسه رئيساً للجمهورية. كتب الحريات الديمقراطية في البلد وتحريك الإعلام بإتجاه تقوية سياسة العسكرية وتطوير الجيش بسياسة المليون جندي وعقد صفقات لبناء السلاح النووي. إيقاف المشاريع الإنتاجية التي أدت إلى إنتشار البطالة وتغفل الفساد في مفاصل الدولة والتصرف بتحديد أسعار النفط. إنتهاج سياسة عدوانية في المنطقة بعد هذه النقاط وغيرها قررت الهيئة القيادية عقد الاجتماع خلال أسبوع مهما كان الأمر. وتم تبليغ خلف بالموعد وبالنقاط التي يجري بحثها في الاجتماع بما فيها إنتخاب رئيس للجمهورية.

كان خلف عند إسلام الدعوة للجتماع، قد إنتهى من تأسيس تشكيلاً عسكرياً جديدة من جماعته بدلاً من الحرس الجمهوري القديم الذي وزع أفراده إلى وحدات مختلفة متباينة وأضاف إلى حمايته الشخصية خمسة أفراد آخرين سبق أن تم تدريبهم مع الزيانية الخمسة على يد ضابط فرنسي ساهم في حرب فيتنام.

نظر إلى ورقة الدعوة الرسمية التي جلبها مراسلها وأبتسם بسخرية وهو

يتذكر مقولته: (أتغدى بكم قبل أن تتعشوا بي). وبعد أن صرف مراسله، خابر سكرتيرة المكتب وأعلمها بإسلام الدعوة مع الشكر وأكد أنه سيحضر حتماً. وتم الاتفاق على أن يكون الإجتماع في مكتب رئاسة الجمهورية في تمام الساعة العاشرة صباحاً.

تنفس أعضاء الهيئة القيادية الصعداء عندما علموا بأن رفيقهم خلف سيحضر غداً في الإجتماع، الذي أجمعوا كلهم على أنه سيكون مصيرياً. كانوا قد إلتقاو في منزل أحدهم للتشاور حول مصير البلد والتنظيم. أرسلوا محتوى سياستهم الجديدة ضمن نقاط البحث إلى خلف الذي كان يراقب حركاتهم وإتصالاتهم ويتهمهم بالإنشقاق على الخط الذي يقوده هو. كانت الأكثريّة المطلقة تقف إلى جانب السياسة الجديدة. وتركوا مسألة التصويت للهيئة القيادية. وكانوا متاكدين من فوز كتلتهم المكونة من ثمانية أعضاء من مجموع عشرة (الأرقام من واحد إلى ثمانية + الرقم تسعة + الرقم عشرة "خلف" + الرقم أحد عشر "مرزوق" رئيس الجمهورية السابق والأمين العام للتنظيم سابقاً - لا يحضر - . وعلمت مجموعة الثمانية بأن الرقم تسعة، سيحتفظ بصوته دون أن يصوت بلا أو نعم.

عرف خلف باللعبة التي اعتبرها سانحة. وعلق بعض الأوساط أكثر من مرة على كون سياستهم الجديدة لا تلائم أوضاع البلد. وإن الحضارة الشرقية لا يمكن مقارنتها مع الحضارة الغربية التي هي صناعية بحثة. وإن الديمقراطية التي يتشق بها الأوروبيون لا يمكن تطبيقها في بلد مثل السودان أو اليمن، ذلك أن الأصوات موزعة مقدماً بين العشائر أو المذاهب. ولذلك صرخ قبل أعوام طوال بأن مثل هذه السياسة فيها إعوجاج لا يستقيم إلا سيفه. ومنذ ذلك اليوم يطلق عليه لقب (أبو السيف). وهو فخور جداً بهذا اللقب.

بعد إنتهاء الدوام الرسمي في الساعة الرابعة بعد الظهر، تم تبديل الحراس، بحراس ليليين يداومون حتى العاشرة ليلاً، على أن تستلم المناوبة بعده فرقة

كوماندو ترتبط بخلف. وقسم القصر الجمهوري إلى أربعة قواطع وزع على كل قاطع وحدة مزودة ب_EQ_ كامل جاهز للقتال، واجبه الرئيسي إلقاء القبض على كل من يدخل القصر مهما كان. تم إنجاز العملية بمنتهى السرية. وربض هو عواد في غرفة صغيرة لا يعرف بها سوى رؤساء الوحدات الأربع. وأما الزبانية الخمسة فسلمت مهمة حمايته الشخصية.

كان كل إجراء يقوم به خلف في توزيع الوحدات والتشكيلات العسكرية وعلاقتها بالتنظيمات المدنية يعتبر نافذ المفعول ولا يعرض للمناقشة. كانت له سلطة مطلقة يستمدها من كونه مسؤولاً عن الخط العسكري الذي لا يمكن تغييره إلا من قبل المؤتمر الوطني العام للتنظيم.

في حوالي الساعة العاشرة مساءً اتصل تلفونياً برفيقه عضو الهيئة القيادية (الرقم تسعة) عارضاً عليه رغبته الكبيرة وإشتياقه لقاء به في كل الأحوال. قال رفيقه من الطرف الثاني وهو يستغرب من هذه المفاجأة التي تصور أن لها علاقة بإجتماع يوم غد:

"ألم تجد وقتاً أفضل من هذا الوقت يا رفيق؟ إننا سنلتقي غداً في كل الأحوال"

قال خلف بإصرار:

"لا حجة ولا هم يحزنون. إننا قررنا أن نلتقي بك هذا اليوم في كل الأحوال. وهنا صديق قديم يفتقدك منذ ربع قرن. ألا تريد أن تراه؟"
سلم سماعة التلفون إلى عواد. وراح يتبادلان التحيات والعتاب. وعندما طال الحديث، أخذ خلف السماعة من يد عواد وهو يقول:

"سوالفكم ما تنتهي"

ثم وجه كلامه إلى الطرف الآخر:

"والآن، ماذا قررت؟"

"يجب أن نلتقي"

"تأتوننا أم نأتيكم؟"

"طبعاً تأتوننا أنتم. عواد يبقى عندي. أعرف أنت مشغول هذه الليلة"

"تقدر ظروفي إذاً"

"هل هذا يحتاج إلى سؤال؟"

"أنت حبيبي لم تخذلني أبداً. على فكرة، أحتاجك يوم غد"

"ولا يهمك، حاضر بالخدمة. نحن بإنتظاركم"

"خلال نصف ساعة عندكم. ماذا نجلب معنا، كباب أم دجاج مشوي أم أي

شيء آخر؟"

"كل شيء موجود. المهم تصلون بسلامة"

تأكد خلف من أن الواجبات قد وزعت بشكل تام لا نقص فيها. وكان قد سبق له أن درس النقاط التي يفترض بحثها في إجتماع يوم غد مع عواد. ووجدا أنها كلها هراء لا يمكن تطبيقها في البلد ناهيك عن مناقشتها مع هؤلاء المنشقين الذين لا هم لهم سوى السيطرة على دفة الحكم. وناقشا مسألة إنعقاد إجتماع يوم غد والجداول منه. وقررا إلغاءه وإلقاء القبض على الأعضاء الثمانية بتهمة الإنشقاق والقيام بمحاولة إنقلابية ومن ثم تحويلهم إلى محكمة الثورة لينالوا عقابهم العادل. وبعد أن درسا الموقف الترددية المتذبذبة لصاحبهم (الرقم تسعه)، قررا مفاتحته بكل صراحة لتحديد موقفه الذي يتوقف عليه مصيره النهائي. وعندما توفر خلف هذه النقطة وأبدى تحفظه تجاه (الرقم تسعه)، طمأنه عواد وطلب منه أن يتركه له. ولما كان خلف شكوكاً بطبيعته، لذا طلب من عواد أن يكون حذراً مع (الرقم تسعه) ولا يفتح أمامه أوراقهما. قال عواد بثقة الواثق من كلامه:

"سيدي الرئيس. إنك لا تعرف صاحبنا. إنك إذا أردت كسبه نهائياً إلى

جانبك، فافتتح أوراقك كلها أمامه، آنذاك يمنحك ثقته المطلقة. قلت لك أن أترك
موضوع صاحبنا لي أنا. يكفي أن يراني معك
قال خلف بلهجة من زال تحفظه:

"إذاً يمكن اعتباره واحداً منا"
"بالضبط يا سيدي الرئيس"
"انا أحتج له فعلاً، أمامه واجبات كثيرة جداً"
"إنه عضيدك"

أخذ خلف نفرین من حمایته مع سائقه الخاص وسيارة نجدة. وحين بلغوا
الهدف، طلب منهم أن ينصرفوا على أن يرجعوا إليه بعد ساعتين. عواد و
(الرقم تسعة) دخل في عناق طويل، دل على عمق صداقتهما التي تعود إلى
عملهما المشترك في مد جذور حركتهما التنظيمية بين الفلاحين وفقراء الريف
بنكران ذات وإخلاص وقناعة ذاتية، حيث كان العمل في تلك الظروف القاسية
اختيارياً، صادراً عن الغيرة والحماسة الوطنية دون النظر إلى المصلحة
الشخصية والأنانية.

بعد تناول طعام العشاء قال (الرقم تسعة) بمسحة عتاب أنه كان قلقاً جداً
لإنقطاع أخبار الرفيق خلف الذي أحتجى بشكل غريب. وظل يسأل هنا وهناك
وكل من يعرفه، ولكن دون جدوى. والمشكلة هي أنه لم يترك خبراً، يدل على أنه
ما زال يعيش. وراحـتـ أنـواعـ الشـائـعـاتـ تـتسـابـقـ فيـ الـظـهـورـ،ـ والـآنـ الـحمدـ لـهـ
لـالـسـلـامـةـ.ـ إـعـتـذرـ خـلـفـ لـمـوقـفـهـ الـذـيـ كـانـ خـارـجـ إـرـادـتـهـ بـسـبـبـ مـرـضـهـ النـفـسيـ
الـذـيـ إـكـتـشـفـهـ الطـبـيبـ وـطـلـبـ مـنـهـ أـنـ يـتـرـكـ صـخـبـ الـمـدـيـنـةـ وـالـرـكـونـ إـلـىـ الـرـيفـ
بعـيـداـًـ عـنـ النـاسـ وـمـنـاقـشـاتـهـ الصـاخـرـةـ.ـ وـهـاـ إـنـهـ بـعـدـ خـرـوجـهـ مـنـ عـزـلـتـهـ يـتـوـجـهـ
إـلـيـهـ،ـ دـوـنـ أـيـ صـدـيقـ آخرـ.ـ قـالـ خـلـفـ وـهـوـ يـرـتـشـفـ الشـايـ:

"كلمات الغزل والمحبة لا تنتهي ونحن أمامنا كومة من المسائل التي ستتحدد

مصارئنا، كما إتنا نجلس تحت ضيق الوقت. أمامنا ساعة ونصف، ولذلك أرى
أن ندخل الموضوع دون أي تأخير"

سأـ الرفيق (الرقم تسعـة) بفضول:

"هل يمكنني أن أفهم، بأن الرفيق عواد قد عاد إلى نشاطه السابق في
المنظمة ومن هو الرفيق الذي عثر عليه؟"

قال خلف بزهو:

"أنا عثرت عليه أيها الرفيق. وجلبته لك كي تقول لي رأيك فيه. إتنا أمام
تغيرات جذرية في التنظيم. هل تعتقد أنه بإمكانه إستيعاب التطورات المنظرة"

قال الرفيق (الرقم تسعـة) بلهجة إعتزان:

"إن عرضك لتقديم الكادر بهذا الشكل هو بحد ذاته ثورة. ومبعد هذه الثورة
هو أنت. وكل شيء جديد يأتي منك. إن معدن الرفيق عواد من ذهب ولهذا
السبب أزاحته العناصر الإنتهازية بكل وقاحة من صفوف التنظيم. مرحباً بك
في صفوفنا رفيق عواد.."

قاطعه خلف مبتسمـاً:

"الشيخ عواد رجاءً. غيرنا اللقب لأسباب تاكتيكية، والآن أريد أن أعرف
رأيك بخصوص إجتماع يوم غد. هل تحضر؟ وما هي تصوراتك بخصوص
نقاط البحث"

قال (الرقم تسعـة) بحيرة:

"الحقيقة يا رفيق أنا في حيرة من أمري، حتى هذه اللحظة لم أتوصل بعد
إلى قرار نهائي بهذا الخصوص. إن مجمل الأوضاع في التنظيم لا يعجبني.
بدأنا ندخل مرحلة صراعات شخصية على السلطة. وأما بخصوص سؤالك
حول نقاط البحث، فأسمح لي أن أقول بأنها تشبه نقاط بحث محضر خلية
شيوعية"

قال خلف:

"هل تتصحنا بالحضور أم المقاطعة؟"

"كلاهما مشكلة تجلب المخاطر"

إلتفت خلف إلى عواد قائلاً:

"شيخ عواد، لديك تجارب كافية مع المنظمة. ماذا تقول أنت؟ هل حضر

"الإجتماع أم المقاطعة؟"

قال وهو ينظر إلى الأرض، كما لو أنه يستمد أفكاره منها:

"هذا السؤال يحتاج إلى جواب طويل، ولكننا يمكننا أن نقول باختصار بأن الحضور يعقد المشكلة، ذلك لأننا سنكون في داخل عملية إنفجار قد تحرقنا جميعاً. هناك، من حيث نريد أو لا نريد عملية إنشقاق واضحة، يجب على كل واحد منا أن يحدد موقفه منها. إما مع أو ضد لا ثالث بينهما"

توقف عواد عن الحديث وبدا كما لو أنه أنهى كلامه. هكذا تصور خلف الأمر وقال:

"شيخ عواد، بينك وبين الحقيقة خطوة واحدة، لماذا وقفت في مكانك"

قال عواد:

"لا أستطيع أن أدخل بدون أن تتم تزكيتي، فهل أنتما موافقان على دخولي؟"

أجاب خلف فوراً:

"أنا موافق والباب مفتوح أمامك كما سبق وأكذت لك. بقي أن نسمع رأي رفيقنا (الرقم تسعة). هل أنت مع أم ضد عودة الرفيق عواد إلى التنظيم؟"

أجاب فرحاً ومبتهجاً:

"أنا أوقع بعشرة أصابع والباب مفتوح أمامك أيها الرفيق"

قال خلف والنشوة تغمره:

"الآن أصبحنا جبهتين، نحن الأقلية وعددنا ثلاثة رفاق وهم الأكثريه وعددهم
ثمانية إمدادات، فما هو رأيكم الآن، حضر الإجتماع أم ننسفه؟"
قال الرفيق (الرقم تسعه):

"إذا كانت ثمة إمكانية مضمونه للنفس، فلينسف في أقرب وقت ممكن
لنتخلص من دوحة الرأس التي بدأت تتلف أعصابنا"
وشب كل من خلف وعواد من مكانيهما وراح يعاقن الرفيق (الرقم تسعه)
بشدة ويكران:

"برافو رفيق برافو.. هذا ما كنا نتوقعه منك.. إنك قلبت الموازين لصالح
الحركة. غداً ينسف الإجتماع الإنسقافي الانتهاري إن شاء الله"

٢٢

حضر الأعضاء الثمانية (العضو رقم ١ إلى العضو رقم ٨) إلى القصر الجمهوري في تمام الساعة السابعة والنصف على أمل عقد الإجتماع الإعتيادي للهيئة الثورية العليا والذي تم الإتفاق عليه مع خلف أبو السيف، وذلك لوضع استراتيجية جديدة للأوضاع الجديدة ويتماشى مع تطوراتها، على أن تجري محاسبة الرفيق خلف أبو السيف للتصرفات الفردية الخطيرة التي وضعت التنظيم على حافة هاوية الإنشقاق. وكان المبدأ الذي تم الإتفاق عليه لحل الأزمة التي يمر بها التنظيم، هو اللجوء إلى إجراء انتخاب ديمقراطي للإتيان بقيادة جديدة تقوم بتهيئة الأجواء لعقد المؤتمر الوطني الموسع.

كانت البوابة الرئيسية للقصر مفتوحة، يحرسها خمسة أفراد من شرطة القصر كالعادة. كان الأعضاء الثمانية قد جاءوا بسياراتهم الشخصية. تم أداء مراسيم التحية كالعادة. كانت العادة الجارية من قبل هي أن تدخل السيارة إلى الكراج الواقع في السردار لإتخاذ مكانها المخصص الذي يحمل رقم السيارة. وبعد أن يترجل صاحبها، يتوجه إلى المصعد الذي يؤدي إلى

الأروقة الفوقية. كانت ثمة مفرزة صغيرة تحرس مدخل الكراج. أوقفت المفرزة السيارات التي بلغ عددها النهائي الثمانية. وطلبت من ركابها أن يتربّلوا عن سياراتهم ويستعملوا الباب المؤدي إلى السالالم العادي والتوجه إلى غرفهم. ظن الثمانية أن هناك خللاً في المصعد. ظلوا واقفين في أماكنهم يستطاعون من يخبرهم بما حصل. جاء شرطي من المفرزة بإتجاههم وطلب منهم أن يتربّلوا في المكان قبل أن يأتي مسؤول المفرزة ويهينهم. قال العضو رقم ١ وهو ينهر الشرطي:

"أنتم تزدادون وقاحة يوماً بعد يوم. من أنت كي تتكلّم معنا بهذه اللهجة؟"

قال الشرطي بأدب:

"العفو أستاذني، أنا حذرتك من وصول رئيس المفرزة لا أكثر"

وفجأة ظهر عريف المفرزة فعلاً، كما لو أنه خرج من باطن الأرض، وهو يلوح بهراوة غليظة ما لبث أن هجم عليهم، يوزع عليهم الضربات بهراوته ورجليه شاتماً إياهم بمختلف الشتائم البذيئة، دون أن يأخذ بنظر الإعتبار تأكيدهم بأنهم الأعضاء الشرعيون في الهيئة الثورية العليا. عندما إجتاز آخر واحد منهم، الباب المؤدي إلى السالالم، أغلقه العريف وهو يكلّم نفسه:

"روحوا، ضرب الدونكيات هناك"

أستلمتهم مفرزة أخرى، كانت تنتظرهم في مدخل السلم. قادوهم بالضرب المبرح عبر السالالم الضيق، إلى أن أوصلوهم إلى الطابق الثالث، حيث الغرف الإنفرادية الضيقة. وتم توزيعهم هناك على ثمانى غرف.

وجهت إليهم تهمة خيانة التنظيم والوطن. ولما كان القضاء مستقلّاً في جمهورية خلف أبو السيف، لذا أستدعي رئيس الجمهورية المدعى العام للدولة لأنّه اتّخاذ الإجراءات اللازمة لتوقيف هؤلاء الخونة إلى إشعار آخر. وعندما اعتراض المدعى العام على جملة "التوقيف إلى إشعار آخر"، كونها غير قانونية، طلب خلف تغيير القانون. ولما كان القانون لا يمكن تغييره إلا بتغيير الدستور،

كما تفضل المدعي العام، طلب خلف تغيير الدستور، طالباً جلبه إليه. ولعدم تطويل المسألة والإكتفاء بحلها بطريقة غير ب Bürocratique، تم الإتفاق على إضافة عبارة: "التوفيق إلى إشعار آخر...". قال حاكم التحقيق الذي كان يراقب سير العملية بعدم إرتياح:

"هذا يعني إننا نحكم على هؤلاء بالسجن من الآن وإلى الأبد"

نظر إليه المدعي العام بغضب، قائلاً:

"أُسكت، لا تتدخل فيما لا يعنيك"

و قبل أن يترك المدعي العام مع شملته مكتب رئيس الجمهورية، سأله هذا عن رأيه في كيفية التعامل مع هؤلاء وإستدراجهم للتعاون والتخلص من مبادئهم الهدامة. قال المدعي العام أنه من خلال تجربته الطويلة في القضاء، يرى ضرورة تقديم اعتذار للإعتداء الذي تعرضوا له. وبعد تخلصهم من الصدمة والحالة النفسية المضطربة، يمكن التحدث معهم بإتجاه إعطائهم فرصة لتصحيح أفكارهم والانسجام مع الخط الذي تتطلبه الثورة. وبعد هذه الإجراءات بأيام، يمكن توزيع أوراق وأقلام عليهم ومطالبتهم بكتابة نص يتضمن رأيهم في مجلد العملية وتبيان موقفهم من التعاون أو عدمه.

كان خلف يحاول بكل إمكاناته كسب الثمانية أو على الأقل بعضهم إلى جانبه وذلك للإستفادة من شعبيتهم وتجاربهم، بيد أنهم لم يستجيبوا له وظلوا متمسكين بآرائهم وموافقهم. ورغم عدم إستجابتهم لعرضه، وزع عليهم الأوراق والأقلام، طالباً منهم تسجيل ما يدور في أذهانهم من الخواطر والأمنيات على الورق بكل حرية ودون ذكر الأسم. كما ويمكن لكل فرد إرجاع ورقته البيضاء خالية من الكتابة. على أن تكون هذه آخر فرصة تعطى لهم لإعلان ندمهم.

عادت الأوراق الثمانية خلال يومين وهي تحمل النصوص الآتية:

* أنتم خونة التنظيم والوطن.

- * أنتم لصوص، سرقتم ثورتنا وأحلامنا.
- * لن ننتازل أمام المارقين.
- * سوف يبعثكم التاريخ إلى مزبلته.
- * عملكم الجبان هو بداية نهايتكم.
- * عصابة مثلكم، لا يمكنها بناء دولة.
- * مزقتם وحدة الوطن وستحولونه إلى أطلال.
- * خلقتم من مجرم تافه، مسؤولاً عسكرياً، أدى بدوره إلى صنع دكتاتور رخيص يناسب عقليتكم. إليكم:

الدكتاتور

كلما مات دكتاتور

خرج من بين ضلوعه

دكتاتور آخر

لا تمدح الدكتاتور

فهو يزداد طيشاً

وضراوة

وزهواً

لا تقل للدكتاتور (نعم)

لأنه سيظل

يطالبك

ب (نعم)

إلى الأبد

إذا أردت أن تهين دكتاتوراً
قل له (لا)

الدكتاتور يعرف بأنه تافه
لذلك لا تقل إنه إنسان تافه
لأنك بذلك تضعه
في مصاف البشر
الأمر الذي
ليس جديراً به

الدكتاتور مخلوق جبان
لذلك لا تتوقع منه
أموراً عظام

أتفه دكتاتور
هو ذلك الذي يأمر
بإقامة تماثيله وهو في الحياة

إن أتعس دكتاتور
هو من تهدم تماثيله
وهو في الحياة، ولكن
بإنتظار الموت

قرأ الرئيس خلف أبو السيف النصوص الثمانية عشر مرات. وفي كل مرة
كانت تزداد حدة غضبه وحقده على هؤلاء الذين يرى إنهم ركبوا روؤسهم

وراحوا يتصدقون بجمل ثورية وكأنهم أبطال التاريخ، خرجوا من عهود سحرية، جاعوا ليعلموه المبادئ الأولية لحب الوطن. وكيفية إراقة الدماء في سبيله. ولكن صبرا، يقول في نفسه، ستعرفون معنى البطولة. كان وحيداً في مكتبه، ينتظر إنهايار ولو واحد منهم، ولكن عبثاً لم يتمكن الوحدة. أتصل بصاحب عواد هاتفياً وطلب منه أن يمر عليه. وسرعان ما حضر عواد الذي عرف أن رئيسه مصاب بالحنين ويفتقد هدوء الريف الذي تمنع به أيام قلائل قضاهما بزيارة مكاتب وندوات التنظيم السري. قال عواد وهو يتأمل ملامح الرئيس:

"سيدي الرئيس، أنت متعب جداً وفوق ذلك قمت بإختصار المدة التي حددتها الطبيب للبقاء في الريف"

قدم خلف الملف المحتوي على النصوص الثمانية إلى عواد قائلاً:
"إسترراحة الريف ستنتحدث عنه في وقت آخر. والآن هاك إقرأ تصريحات أبطال آخر زمان وقل لي ماذا نفعل بهم؟"
وراح خلف يقرأ بإهتمام وهو مقطب الجبين. ثم أعاد الكرة وتوقف عند النص النثري المركز وهو يقول:

"إن هؤلاءهم أكثر الناس خطرا علينا، حذار من وقوع هذه الأدبيات بيد الناشئة والشباب. إنهم ما زالوا يملكون نفس الحماس القديم الذي كنا نملكه أيام زمان. إننا لو وقعنا تحت أيديهم لمزقونا إرباً"

قال خلف بحده:
"يا شيخ عواد أنا سألك: ماذا نفعل بهم قبل أن يمزقونا إرباً؟"
"هل أن رأيي مهم؟"
"طبعاً، إنه حاسم بالنسبة لي"
"إذا كان الأمر كذلك فسبق أن بيّنت رأيي بخصوص هؤلاء، إنهم يريدون

إنزعاع السلطة منك بأي ثمن كان ذلك لا يبقى أمامك سوى أن تزيحهم عن طريقك

قال خلف كما لو أنه يكلم نفسه:

"أن تزيحهم عن طريقك، ولكن إلى أين؟"

"إلى جهنم وأسفل السافلين، هل هناك مكان آخر؟"

تفتحت أسارير خلف وأنطاحت على وجهه إبتسامة عريضة وقال:

"هذا هو الكلام الملموس والواضح. ظننت أنك تتردد في إبداء رأيك. أقل تردد منك، كان يلغى علاقتنا. إن هؤلاء يجب أن يسحقوا كما تسحق حية سامة. عليك أن تعلم يا شيخ عواد بأنني بعد إنهاء هؤلاء المجرمين، سأبدأ بمرحلة جديدة في سياسي وهي تغيير شعار (سياسة الرعب الدائم) إلى شعار حيوي جديد هو: (سياسة العنف الدائم). ومحتوى هذه السياسة، هو (القتل، القتل، ثم القتل). وعملية القتل لا تأتي بشكل مباشر بحيث أن الجرم يرتاح بموته. إنه قبل أن يموت يمر بسلسلة من التعذيب، بحيث أن الموت يتحول إلى أمنية، يتمناها في كل لحظة. إنك لا تستطيع قيادة هذا البلد إلا بهذه الطريقة"

قال عواد وهو يفكر في العادات العربية ولا سيما الشار الذي لا يمكن أن يسكت عنه أهل الميت:

"ولكننا يا سيدي الرئيس، قبل أن نبدأ بإعلان الحرب على الناس المعارضين لنا، يجب أن نفك في كل جوانب المسألة كي لا نقع في مأزق، لأننا نتمكن الخروج منه"

"أي مأزق تقصد؟"

"مأزق الشار يا سيدي. هل تسكت أنت مثلاً عن قاتل أحد أفراد أهلك؟ ألا ترد عليه قتيلًا؟ وبالتالي يتحول أهل القتيل إلى أعداء لك
ضحك خلف قائلاً:

"إن التفكير في جوانب المسألة شيء جيد وأحب أن أحبطك علماً بأنني قد فكرت في هذا الجانب وأعطي تفكيري شماره. نحن لا ندنس أيديينا بدمائهم القرفة. إذا أردنا أن نتخلص من شخص ما، نتصل بأحد أولاد عمومته ممن لا يرتابون إليه ونقنعه بمبلغ من المال. وتنتهي المسألة التي تحال عملياً إلى داخل عشيرتهم"

"هذا إذا كان عدد المرشحين لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة"

قال خلف بلهجة فيها عناد وتصميم:

"أنظر يا شيخ عواد، إنني بصدق بناء دولة لم يسبق لها مثيل. دولة تسيطر عليها ليس على أبناء البلد نفسه فحسب، بل على كافة أنحاء المنطقة ومن أجل إتمام بناء هذه الدولة العملاقة، أقوم بوضع كافة الامكانيات البشرية والمادية في خدمة إنجازها. ولاشك أن مجموعة جاهلة أو مجاميع جاهلة لا ترتاح للفكرة وتبدأ بالعصيان والتمرد بحجة صرف أموال الدولة على البذخ والكماليات، أنداك تبدأ الطامة الكبرى، حيث ستتجري إبادة الآلاف من أبناء شعب ميدستان وتهجير البقية الباقيه إلى الجنوب ونقل أهل الراضاة من الجنوب إلى الشمال. وهكذا تتم السيطرة على منابع القلاقل والفوضى ويسود السلم والرخاء"

"وماذا تفعل بآلاف الجثث التي ستسقط في هذه العملية؟"

"الحل، عند المقابر الجماعية. لدينا فرق كاملة لها حفارات خاصة تعمل في الليل مثل الذئاب. لها إمكانية دفن مئات الجثث في دفعة واحدة وتعمل بالخرائط، حيث أن العثور على المكان مستحيل. إنك كمدير عام للأمن والمخابرات، ستكون لك علاقة عمل مع فرق المقابر الجماعية".

قال عواد بصوت متهدج، فيه مسحة من الخوف:

"سيدي الرئيس، إنك دللتني إلى أقصى درجات الدلال والثقة المطلقة التي لا

أعرف كيف أوفيها وعinetني مستشارك لشؤون الريف، الأمر الذي أسعدي جداً. ثم مالبثت أن وجدت نفسى مديرأً عاماً للأمن. وقبل أن أبدى رأيي في عملي بهذه المديرية، أجد نفسي مشاركاً مباشراً في أعمال المقابر الجماعية. إنني في الوقت الذي أشكرك فيه على هذه الثقة المطلقة، أؤكد بأنّي غير جدير للعمل في مجال مديرية الأمن وملحقة المقابر الجماعية. وسأكون شاكراً جداً إذا تم تشييقي كمستشار للرئيس فقط"

قال خلف بلهجة فيها كبراء:

"بارك الله فيك يا ابن عمي شيخ عواد. لقد أثبتت إنك لا تتهافت على المنصب. وهذه خصلة حميدونادرة، قلما نجدها في صفوفنا. أنا سأترك أمر المنصبين لرفيقنا (الشيخ عواد)، يتصرف بها كما يشاء"

قال عواد بفرح:

"أناأشكر شعور السيد الرئيس وأرجو منح المنصبين إلى (الرفيق الرقم تسعة).

سأل الرئيس خلف ما إذا كان ثمة إعتراض على عملية التوزيع. وكان أن أبدوا رأيهم، بـ (لا إعتراض).

٢٣

كتب أحد رفاق خلف أبو السيف تقريراً، قدم نسخة منه لمسؤوله بمناسبة إستقالته من التنظيم وهروبه إلى خارج البلد، جاء فيه:

"أعدم خلف أبو السيف رفقاء الثمانية الأبطال بطريقه بربريه بشعة ثم أعقبها بعملية إلقاء قبض جماعية لأتباع الرئيس السابق مرزوق، التي أنتهت بإعدامهم جميعاً. ولم ينج بجلده حتى أقرب المقربين إليه. علماً أن رقبة كل رفيق يفتح فمه قائلة (لا) معرض للقطع. وبذلك تمكن من تمدید فترة حكمه إلى ربع قرن من الزمن، أباد خلاله المعارضة بجميع أنواعها في داخل وخارج

البلد. وأعلن حرباً كيمياوية ضد شعب ميدستان وأحتل دولة المرجان وعاش فيها الفساد. وتورط في حرب طويلة الأمد ضد دولة خراسان، دون أن يحقق أي نصر، رغم إمتلاكه جيشاً تعداده مليون شخص مزود بالأسلحة الكيمياوية. وأدعى أنه يمتلك السلاح النووي. وتلاعب بسعر النفط الذي كان يبيعه للمعسكر الإشتراكي بسعر ثلاثة دولارات للبرميل الواحد.

لم يترك خلف أبو السيف بيته في بلده دون أن يخطف منه على الأقل أبناً واحداً. إن قوات الدولة العظمى بدأت تطرق الأبواب.

"إن خلف يتحمل مسؤولية إحتلال الدولة العظمى لبلدنا"

إلى هنا يتنتهي النص الذي كتبه أحد رفاق خلف أبو السيف الذي حاول أحتجاز الحدود بجواز سفر مزور، بيد أن شرطة الحدود أقتلت عليه القبض ولم ترجعه إلى بلده. وبعد إجراء تحقيقات مفصلة معه، صادروا خلالها الجواز المزور والورقة الوحيدة عنده. تبين أنه كان من أحد كبار كوادر تنظيم الهيئة الثورية العليا، وكان قد سبق أن أصدرت المحكمة بحقه حكماً غيابياً يقضى بإعدامه شنقاً حتى الموت. وبعد إجراء محاكمة سريعة، منحته دائرة الأجانب حق الإقامة الدائمة.

قرر هذا الشخص الذي يحمل أسماءً مستعاراً "أبو قاهر" أن يعتزل السياسة ويبدأ حياته الخاصة بفتح مخبز صغير يعيش من ورائه، وكان سياسيو بلده يعرفونه، دون أن يعرفهم هو. وكانوا يتعمدون شراء الخبز من عنده وجره إلى أحاديث تتعلق بمصير بلدتهم. كان ذلك في الفترة الواقعة بنهاية ربع القرن الذي مدده خلف أبو السيف بإعدام القياديين الثمانية بصورة ببريرية بشعة.

تمكن السياسيون العائشون في هذا البلد المجاور أن يوطدوا علاقتهم بهذا الخباز المثقف، دون أن يتأنّكوا ما إذا كان خبازاً حقيقياً يمارس مهنته أم سياسياً هارباً من جحيم خلف أبو السيف. وبعد أن تردد عدة مرات على المقهى الذي يلتقي فيه أبناء بلده، اعتاد على الجو الذي يوحى إليه أنه عائش

في بلده. كانت المناقشات تدور حول مختلف المواقيع التي تنتهي يومياً عند نقطة واحدة هي:

متى يسقط نظام خلف أبو السيف؟

هل يسقط النظام نتيجة لثورة شعبية؟

أم نتيجة لإنقلاب عسكري؟

هل هناك إمكانية لإسقاطه من قبل الشعب؟

أربعون عاماً وهذه السلالة البدائية تحكم هذا البلد. من أين لها هذه القوة؟

ألا يجوز الخلاص من هذه الطغمة بأية وسيلة كانت؟

تدخل خارجي مثلاً.

أو تدخل الدولة العظمى؟

من هو البديل القادر؟

هل الدولة العظمى ستتحرر البلد أم تحتها؟

مسألة أقليم ميدستان

هل من الضرورة أن تتدخل دولة أجنبية لحل مشكلتنا؟

الديمقراطية: هل تحل مشكلتنا أم تعقدنا أكثر؟

وجهت هذه الأسئلة كلها دفعة واحدة إلى الخباز أبو قاهر الذي استغرب من هذا التحول والإهتمام ببلدهم الذي دخل في طي النسيان. وعلم أن وضع الأسئلة لم يتم بواسطة هؤلاء الصغار في السياسة، بل الكبار الذين سيصلون بعد نصف الساعة ببياناتهم الأنثقة. وغايتها من ذلك هي أن يتمكن من التغلب على خجله وينطلق في الإجابة على هواه. وقرر أبو قاهر الخباز أن لا يتكلم إلا بحضور السياسيين الكبار. بعد إنقضاء نصف الساعة، ظهر الرجال المتألقون. سائل أحدهم مستغرباً:

"ألم تبدأ المناقشة؟ كنا نتصور أنكم الآن في ذروة حرارتكم"

قال أبو قاهر الخباز:

"أنا سبب التأخير. إن جوابي يجب أن يصل إلى المكان الصحيح. إن هؤلاء، لا يسمع أحد كلامهم، في حين أن كلامكم هو نافذ المفعول، لذا لا أريد أن يبقى كلامنا محبوساً في هذا المقهى"
أخذ الأفندية أماكنهم وهم ينظرون بعضهم ببعض بنظرات إنتقادية. قال أحدهم:

"لنبدأ إذاً"

اعتل أبو قاهر الخباز في جلسته قائلاً:

"أنتم وضعتم كومة من الأسئلة التي يمكن أن تختصر بسؤال واحد فقط، وهو: كيف يمكن إسقاط طغمة خلف أبو السيف؟ الجواب: بعد تحليл أربعة عقود من الحكم الدكتاتوري، نتوصل إلى الجواب التالي: إن طغمة الدكتاتور خلف لن تسقط، إلا بتدخل الدولة العظمى فقط. أوصلوا هذا الكلام إلى من يهمه الأمر"

٢٤

زار قادة المعارضة العائشة خارج البلد رئيس جمهورية الدولة العظمى، الذي كان يضع الخطط لإسقاط جمهورية خلف أبو السيف الذي لم يضحك على ذقون سفرائه فحسب، بل تجاوز حده الذي سبق أن رسموه معاً، حيث بدأ بتهديد مصالحهم وذلك بتلويح الشعار القديم (النفط سلاح في المعركة ضد الإستعمار) وتحويل جيشه إلى قوة ضاربة بلغ تعدادها مليون مقاتل. هذا إلى جانب محاولاته المحمومة لصنع السلاح النووي. إن برلن جمهورية الدولة العظمى قد صوت بالأغلبية الساحقة على كون جمهورية خلف أبو السيف تشكل خطراً على السلم والأمن في المنطقة. وعليه كلف رئيس الجمهورية للقيام بإجراء اللازم بهذا الخصوص ومنحه السلطة المطلقة في تنفيذ القرار والعمل

المشترك مع المعارضة بكل أطيافها.

جرت هذه الإجراءات ولا سيما إتصال المعارضة بجماعة الدولة الكبرى، بمنتهى السرية، إذ ثمة حساسية في بلدان المنطقة لا تحبذ الاحتلال بهذه الدولة التي كانت لها تجربة مريرة مع بلدان المنطقة. ومما زاد من مشاكل جمهورية خلف، فرض مقاطعة شاملة منذ أكثر من عشر سنوات على بلده الذي سبق وأن تورط بإحتلال الجارة دولة مرجان حيث قامت الدولة العظمى بطرد قوات خلف أبو السيف من هناك. ولعل أكبر ضربة وجهت إلى خلف هي المقاطعة التي عانى منها أبناء الشعب، حيث أدى إفلاس الدولة إلى أن يكون سعر النقد أرخص من سعر الورق الذي طبع عليه. أدت الكارثة الاقتصادية إلى تدخل هيئة الأمم المتحدة لإنقاذ حياة الناس من المجاعة بواسطة توزيع الغذاء على المواطنين مقابل النفط. كل هذه العوامل، أدت إلى أن يقوم بعض أقسام المعارضة بالإلحاح على رئيس الدولة العظمى بالتدخل العاجل لإسقاط خلف وعصابته.

وكان أن يستجاب رئيس الدولة الكبرى للأمر الواقع الذي ارتاح له، مشكوراً.

و قبل أن تجتاز قوات الدولة العظمى حدود دولة خلف في منطقة الشغر إلا وأختفى عن الأنظار ما يسمى بقوات خلف أبو السيف. وراحوا يمسكون قادة حكومة خلف مثل النعاج التي شردت من راعيها. وأما هو فتمكن أن يختفي عن الأنظار لعدة أشهر ويصل إلى مزرعة عواد البعيدة عن الأنظار، حيث سبق أن بنا له عواد قبل ربع قرن، مخبأً لمناسبة تسلمه رئاسة الجمهورية. كان عواد يعني نفسه بمكافأة قدرها لا يقل عن مليون دولار شمن مغامرة إنقاذه لحياة خلف، بيد أن خلفاً كان يقترب عليه، رغم إمتلاكه مئات الملايين التي جلبها معه عند هروبه، عنها أعلنت إدارة الدولة العظمى تخصيصها مبلغاً قدره خمسة وعشرون مليون دولار، لمن يدل على خلف أبو السيف حياً أو ميتاً.

لم يصدق عواد الخبر في بادئ الأمر، بيد أن إعادة بثه عدة مرات خلال الساعة الواحدة، جعلته أقرب إلى الصدق. مع ذلك ظل متربداً خائفاً من أن يلقى القبض عليه هو أيضاً بتهمة العمل المشترك معه. ما هو الضمآن بإلقاء القبض على خلف وتركه هو يتسلم مبلغ ٢٥ مليون دولار. ظل معتصماً بيته في المزرعة بعد أن أرسل الخادم وزوجته إلى إجازة طويلة المدى. أبي خلف إلا أن ينام ويعيش في المخبأ. وكان يأتى أن يتركه في النهار، مكتفياً بمعقارته ليلاً ولفترة قصيرة يقضيها بالمشي. وجه نداءً بالفيديو إلى شعبه، يدعوه إلى الثورة على الوضع الجديد، إعتقد أن الشعب إذا عرف أنه باق ويقود الثورة، فإنه سيثور ويقلب الوضع رأساً على عقب. تحول خطابه إلى عاصفة في فنجان، أستقبله الشعب بصفير الإستكار وتوجيه الأحذية نحو الراديو والتلفزيون وتشديد المطالبة بقطع رأسه.

كان عواد قد جلب له طعام الغداء المكون من مرق الفاصلية بلحm الأرنب والرز مع قرصة صغيرة من خبر الشعير، قال قبل أن يبدأ بالأكل بتهمك: "هل تصدق يا شيخ عواد بأن الجماهير ترمي خطابي في التلفزيون بالأحذية؟"

"كل شيء جائز في هذا البلد يا أبن عمي ولا يهمك. هذه ثالث كبوة.
سنختارها أيضاً إن شاء الله"

قال خلف بجبين مقطب وملامح غاضبة:

"إذا إجتنزناها هذه المرة، ساحرق الكائنات"

قال عواد بلهجة لا تخلو من التهكم:

"أنا ما زلت مستشارك أيها الرئيس، فهل تسمح لي أن أبدي رأيي بشأن تصريحك؟ أم أن صفتني كمستشار قد إنتهت؟"

قال وهو يمضغ لقمته:

"الصفة لن تزول إلا بعد إنتصارهم النهائي. وهذا لن يحصل، لذلك يمكنك أن تبدي رأيك بكل صراحة"

"أقول، إذا حرقت الكائنات فماذا يبقى لنا؟"

"تبقي لنا نخبة من الناس الطيبين لا يخالرونك، بل يطعونك كطاعتهم لله"

حاول عواد إقناع خلف بترك المخبأ لمدة ساعة، يقضيانها بالتمشي في المزرعة، بيد أن خلف لم يوافق بحجة أنها مفتوحة من جميع الجهات. بالإضافة إلى ذلك فإن وضعه الحالى: شعره الأشعث الطويل المنتصب ولحيته الطويلة، كل ذلك يجعل من يراه يعتقد إنه هارب من مستشفى الأمراض لعقلية أو أنه درويش ناسك، متفرغ للعبادة فقد طريقه إلى معبده. ويخرج عواد إلى الهواء النقي، تاركاً رائحة العفونة والهواء الرطب وراءه. ويتخذ مكانه في الشرفة المطلة على حوض النافورة وهو يفكر في مصيره الذي إرتبط بمصير قريبه خلف أبو السيف. وحين ربط مصيره بخلف، حذره أكثر من واحد من أقاربه بالإبعاد عن هذا البعض الذي يسمونه خلف أبو السيف المعروف بـأثنائه. ويردhem عواد بأنه حين فعل ذلك لم يكن هدفه الحصول على مكسب مادي، بل إلزاماً أخلاقياً يقتضيه العرف العشائري. ولكن العملية قد تجاوزت العرف وأستمرت أشهراً طوالاً مليئة بالخوف والرعب. وربما ستطول المسألة إلى أشهر عديدة وسنوات. إنه يحس بنفسه مقيداً ومكبلاً لا يمكنه أن يتحرك. إلا يحق له إذاً أن يفكر بثمن محترم لحرقة الأعصاب هذه؛ ولهذا السبب بالذات قدروا ثمن رأس خلف حياً أو ميتاً بمبلغ ٢٥ مليون دولار.

عندما قفز ذكر المبلغ إلى فكره، كان الظلام الدامس قد أطبق على الكون وأختفت المزرعة مثل الآفاق المحيطة بها، في طيات ستائر الظلام. ونزولاً لرغبة خلف في عدم إشغال المotor ليلاً، لذا جرى الإعتماد على الفوانيس اليدوية الموزعة في زوايا البيت. تناول فانوساً من زاوية الشرفة المظلمة وأشعلها ثم أخذ الراديو الصغير (ترانسستير) وتوجه إلى غرفة الجلوس، حيث أخذ مكانه

على أريكته المعهودة مقابل جهاز التلفزيون الذي لا يستغل بدون المотор الذي يزعج صوته جناب الرئيس المعزول خلف أبو السيف. وأحس أن خلف إلى جانب سلبه لحريرته، قد تجاوز حدوده كضيق. وإن عدم تمكنه من إستعمال التلفزيون هو إستغلال فض لحريرته الشخصية.

إنه معاقب وهارب من وجه العدالة، فلماذا يشركني أنا أيضا ويأخذني بجريدة جرائمه؟ أنا الذي لم أعتد على أحد؟

وراح يتكلم بصوته الطبيعي ويوشر بيديه كما لو أنه يتكلم مع شخص ما. هيمن عليه الخوف الذي تمتد جذوره إلى أعماقه، وعاتب نفسه بشدة لإنجراره هكذا ببساطة لأن يكون بين عشية وضحاها، حامياً لأخطر شخصية يبحث عنها رجال الدولة العملي. لماذا أنقاد إليه بهذه السهولة؟ إنهم سيعثرون عليه في كل الأحوال، وليس هذا فحسب، بل سيلقون القبض على مرافقه أيضاً. وسيعامل كشريك في الجريمة. وإذا تلقى خلف صفعة واحدة على وجهه وجلاق واحد على مؤخرته، آنذاك تكون حصة عواد ثالث صفعات على وجهه وخمسة جلاليق على مؤخرته مع كفحة محترمة على رأسه وذلك لأنه هو السبب في تأخير عملية إلقاء القبض عليه. هذا بالإضافة إلى صدور أمر الإعدام بحقه. وراح يكرهه، ولم يسبق له أن كان معجبًا به وببطولاته المزعومة من قبل. كل ما في الأمر أنهما، بعد إنقطاع دام نحو عشرة أعوام، التقى عند والدة خلف التي مدحت عواد قائلة، أنه من أخلص أبناء العشيرة ويساعدك في الضيم:

"يمكنك أن تعتمد عليه يابني"

"إذا أقتضى الأمر، فإن عواد يمكن أن يموت من أجلك"

وكانت تزكية الأم بالنسبة لخلف، مسألة في غاية الأهمية، ولكن هل من المعقول أن يموت عواد من أجل خلف. ولو إنقلبت الآية وحدث أن تطلب الأمر أن يموت خلف من أجل عواد، فهل كان خلف يضحى بحياته في سبيل عواد؟

كلا أبداً، فلماذا إذاً على عواد أن يموت من أجل خلف. أجاب عواد بصوت عال:

"عواد لن يموت من أجل خلف"

ورددت الغرفة صدى الكلام بأصوات مختلفة، عالية ومنخفضة:

"عواد لن يموت من أجل خلف..."

أحس عواد أن غفوة نوم سريعة قد تغلبت عليه، أخرجته منها أصوات الأصوات المختلفة التي كانت تنادي:

"عواد لن يموت من أجل خلف"

وأستفسر عواد وهو يكلم نفسه، ولكن كيف الخروج من هذا المأزق؟ ولن يسلم يا ترى هذا الرئيس الذي يعادل خمسة وعشرون مليون دولار. هل يسلمه لقوات الدولة العظمى ويقبض المبلغ ويقبل وصمة عار الخيانة إلى الأبد؟ ولكن، لماذا الخيانة؟ هل خلف يستحق أن يضحي الإنسان من أجله؟ هب إنه ضحى من أجله، آنذاك عليه أن يرحل، ولكن إلى أين؟ إنها ورطة نزلت عليه من السماء. وفي كل الأحوال فإن هذا الوضع لا يمكن أن يدوم إلى الأبد. وتصورات خلف بانتهاء هذا الوضع قريباً، مجرد وهم وخيال. إنه سيظل قابعاً في مخبئه إلى يوم القيمة. وسيظل عواد الشخص الوحيد الذي يعرف مكانه، يخدمه ليلاً ونهاراً، يطبح له ويغسل ملابسه ويساعده في تمشية أمور الثورة القادمة التي مهمتها هي تمديد حكم الرئيس خلف أبو السيف، من أجل بسط سيطرته على البلاد وتوسيع المقابر الجماعية، كل ذلك بمساعدة عواد الذي عليه أن يتحمل جريمة خلف بالمناصفة:

"كلا. لن أتحمل جريمة خلف، لا بالمناصفة ولا بالتمام. ولست مستعداً أن أخدمه مدى الحياة. وفي كل الأحوال، مهما فعلت تجاهه، يعتبر عملي خيانة. هل هناك قريب آخر من أقاربه المقربين له الإستعداد على إسلامه مني كي يبيعه لقوات الدولة العظمى التي تبحث عنه بهستيريا غير منقطعة؟ معظم أبناء

عشيرته نبذوه قبل أن يختفي في هذا الملجأ البائس. أي قدر تعس هذا الذي دفعني إلى أن أهرب إلى مسكن والدته في ذلك اليوم النحس كي أتورط بمصيره، هو الذي قتل بشكل ببرري ثمانية أعضاء قياديين من تنظيمه، لا ذنب لهم سوى مطالبتهم بالديمقراطية. فمن أجل هكذا مخلوق أضحي بحياتي؟ كلاماً أبداً. هل يستحق المساعدة، ناهيك عن التضحية بالحياة من أجله. إنه لا يستحق، لا هذا ولا ذاك. لقد إنخدعت به وبكلامه المعسول يا عواد. كنت في باديء الأمر تعتقد أنها قضية أيام لا تتجاوز أصافع اليدين وتنتهي. وأن الشعب ب مختلف فئاته سيحمل أكاليل الغار ويتجوّه لاستقباله عند خروجه من مخبئه الذي لا يزال يعيش فيه كأي جرذٍ قادر"

٢٥

لم يعد عواد يتتحمل الوضع الجديد الذي دخله منذ أسابيع. وراح يهيمن عليه الخوف واليأس والحساسية والقلق والأرق. كان فيما مضى يعد له الفطور والغداء والعشاء ويأخذها له في أوقاتها المعينة دون تأخير. وبعد له القهوة أو الشاي ويقدمه له مع الكيك في أوقات الظهيرة. وأما الأن فقد تغير كل شيء. الفطور الذي كان يتناوله في الساعة الثامنة، يائمه الآن في الساعة العاشرة والنصف كذلك الأمر مع الغداء والعشاء. وأما الكيك مع الشاي في أوقات الظهيرة، فقد مسح من قائمة الطعام. وحين كرر خلف سؤاله حول غياب الكيك، أجاب عواد بأن شراء الكيك من الدكان الوحيد في البلدة بصورة يومية يجلب الشك، إذ أن قوات الدولة العظمى المنتشرة هنا وهناك تتسلّط أخباره بشكل محموم، تساعدهم في ذلك عشرات الطامعين في الحصول على مبلغ ٢٥ مليون دولار. علق خلف بصوت متعجب:

"برافو.. سنتصر بفضل يقطلك يا شيخ عواد، أبن عمي. لقد شخصتني والدتي بشكل رائع. سأجعلك ساعدي الأيمن في جمهوريتي المقبلة"

أحس عواد بكلماته وكأنها إبر مسمومة توخر جسده العاري وأنه بضاعة
رخيصة تعرض في سوق النخاسة"

قال عواد وهو يلعنه في داخله وينعته بالإبليس الذي يرذح تحت ثقل الفخ:
"يا ابن عمي، أنا الآن لست مستشارك ولا أريد أن أكون ساعدك الأيمن في
جمهوريتك. كل ما في الأمر هو أن فارقا ليس صغيراً ينتصب بيننا. وإنني
أرافقك كي أوصلك إلى شاطئ الأمان. آنذاك أكون قد أديت واجبي وأرحت
ضميري"

أقتحمت كيان خلف أبو السيف قشعايرية برد، سرت من أخصص قدميه إلى
قمة رأسه الذي دوخت رائحته الكريهة عواد الذي ضغط على نفسه بتحمل
رائحة قذارته. وداهمته في الوقت نفسه موجة خوف مرت بعظامه لم تعد
تتحمل ثقل صاحبها. قال خلف بتملق وهو يحدق في عواد بعينيه الجاحظتين:
"برافو يا أخي وأبن عمي الشيخ عواد، إنك كنت دوماً صريحاً سواء مع
نفسك أم مع الآخرين. ولكنني أستنتاج من كلامك أننا في خطر. هل هم في
طريقهم إلى المزرعة؟"

قال عواد وهو يحاول أن يزيل عنه مخاوفه التي بدت واضحة على ملامحه:
"لا خوف علينا ولا يهمك. إنها تحريات روتينية لا تؤدي إلى نتيجة. إنهم لا
يمكنهم أن يتحرروا كل شبر من الأرض"

"كلامك مثل البلسم ياشيخ عواد. ياليتك كنت معنا في حربنا ضد دولة
الخراسان لعلتهم على الصبر والشجاعة. ستكون في جولتنا القادمة معنا إن
شاء الله"

قال عواد دون أن يقتنع بكلام صاحبه:

"إن شاء الله و الله أكبر"

درسا وضعية القوات المحتلة، نوعية المدرعات والدبابات، سيارات النقل،

البنادق الرشاشة والعادية. هل هي دفاعية أم هجومية. وكان الواجب الذي أنيط بعواد، هو أن يراقب تحركات القطعات القريبة من المزرعة والهدف الذي تتجه إليه. جمع عواد الأقداح والصحون ووضعوا الملجة تحت الإنذار على أن يبقى غطاء الفتحة الحديدي مسدوداً طوال فترة تواجد القطعات العدوة ووضع بعض الحاجات المهملة فوق الغطاء. وبneath عواد خلف أبو السيف بعدم إشغال الراديو الصغير (ترانسستر).

تنفس عواد الصعداء عندما أصبح خارج الملجة. وأحس بنفسه قد تخلصت من عبء ثقيل. شرب قدحاً من الشاي وهرع بخفة إلى الأصطبل. فك رباط الحصان الذي أستقبله بصمه المعهود وقاده إلى الباب الخارجي. عندما أراد أن يقفل الباب، تذكر شيئاً كدر مزاجه وأثار خوفه العميق. وعرف أن هذا الشيء الذي نساه قد يقرر، ليس مصير خلف أبو السيف فحسب، بل مصيره هو ومصير المبلغ ٢٥ مليون دولار. والشيء الحاسم الذي لم يكن في الباب هو البناء الذي بني الملجة والذي يدعى الأسطة هوي. إنه الشخص الوحيد الذي يعرف أين يقع الملجة وما هي وظيفته. وتكمن الخطورة في أن يهرع إلى أحد مخافر قوات الدولة العظمى ويلغ عن المكان ويبقى هو خالي الوفاض. ولكن عليه أن يتتأكد من وجود خلف هناك، وإلا ما فائدة الملجة الفارغ، إنهم سيعتبرون عمله ضحكاً على الذقون.

رأى عواد أن أحسن وسيلة لمعرفة الحقيقة هي أن يذهب إلى الأسطة هوي. قفز على ظهر حصانه الذي أطلق حوافره للريح وإتجه إلى البلدة، حيث مسكنه المتواضع البني بالطين. أستقبله رجل طاعن في السن، مقوس الظهر، لم يعرف عواد، ولكن هذا سرعان ما ذكره بالملجة. وكان أن عانقه وهو يقول:

"أهلاً بعواد، أبو الملجة. شنو أخبار الملجة ألم يتهدم؟"

قال عواد وهو يقترب منه، بصوت عال:

"يا ريت متهدم ولكن مليان مي. ما هو العلاج؟"

"المي خير وبركة يعني أرضكم كلها مياه جوفية. أنسق ببها المزرعة بالماطور"
"إن شاء الله أسطة هوبى"

رغم خروج الأسطة هوبى من دائرة الشبهة، فإن الأمر لم يتته بعد. في بلدة صغيرة مثل هذه لا يمكن إخفاء أي سر، ولكن حسب أهميته. ولا شك أن بعض أهالى البلدة يعرف بقصة بناء الملجأ، ولكن ليس لأن يختفي فيه خلف أبو السيف، بل ليكون عنبراً لخزن التبغ المهرب ومكاناً أميناً للحفاظ على حياة الأهالى من الغارات الجوية المحتملة. ويقول البعض من أهالى البلدة إنه بناء بدائي لا يصلح لاستعماله كملجأ حربى، بل يمكن تسميته سرداياً. المهم هو أن المكان مفتوح، ولا يمكن تأجيل المسألة، بيد أن الشيء الذى يمنحها الحيوية والأنسجة هو قيمة الجائزة المشجعة التى يرسيل لها اللعاب. ولهذا السبب بالذات ستتوجه الأنظار إلى الملجأ الوحيد في المنطقة.

قرر عواد أن ينهى الأمر بسرعة ورأى أن أي تأجيل يؤدى إلى إجهاضه وعاتب نفسه لإهماله هذا الموضوع الحياتى الخطر. إن إشارة واحدة لمجرد الملجأ أو مجرد ذكر المنطقة، سيؤدي إلى تطويق المزرعة والمناطق المحيطة بها. آنذاك يمكنهم كشف المكان بواسطة أجهزة الكترونية كاشفة. وبذلك تحترق حكاية الجائزة الأسطورية، ويقع عواد نفسه في الفخ أيضاً.

في اليوم الثاني من زيارته للأسطة هوبى في منزله، قرر عواد أن ينهى حكاية اسمها خلف أبو السيف. وليكن ما يكون. استيقظ في وقت مبكر. أعد الفطور. وبعد أن تناول وجبة خفيفة، أخذ وجبة كبيرة مع طعام إضافي لفترة الغداء ونزل إلى الملجأ. طمأن خلف بأن كل شيء هادئ في المنطقة. وأعلمه بأنه مستعجل ويحاول صرف الأنظار عن مزرعته. كان خلف يبدو هادئاً ولكن على نار هادئة ويشوبه قلق داخلي تجاه الملجأ الذي لا ضمان له في هذه المنطقة التي كان عليه أن لا يعتمد عليها، كونها قرية من أهله.

أمتطى عواد حصانه وقاده باتجاه هضبة مرتفعة، تبدو من ورائها مجموعة

من المزارع المنتشرة في الأفق الشمالي وهو يجبل بعينيه بينها بحثاً عن كتيبة عسكرية أو جنود. بعد بحث لم يدم طويلاً ظهرت من بين الأشجار عدة خيام منصوبة، يتخللها رجال شبه عراة، يعرضون أجسادهم لأشعة الشمس الساطعة وثمة مجموعة أخرى بكامل الأعتدة والملابس العسكرية. حين إقترب من المزرعة، أسرع إليه ثلاثة جنود، موجهين فوهات بنادقهم إليه. صاح أحدهم بصوت عالٍ:

"قف في مكانك. منطقة عسكرية"

سحب عواد زمام حسانه الذي ظل واقفاً في مكانه. هنا طلب منه الجندي الذي نادى عليه أن يترجل عن حسانه ويسلمه هويته وأوراقه. مسك أحد الجنود زمام الحсан. سأله العريف الذي أخذ الهوية، قائلاً:

"إلى أين أنت ذاهب؟ هذه منطقة عسكرية"

"أعرف ذلك، ولذلك جئت"

قال العريف بدهشة:

"من أنت؟ وماذا تريدين؟"

قال عواد وهو يؤشر إلى جهة الهضبة العالية:

"أنا صاحب المزرعة الواقعة وراء تلك الهضبة. أريد مقابلة المسؤول الأول عن

كتيبتكم"

استفسر العريف بلطف:

"هل عندك موعد معه؟"

"كلا."

"هل يمكنني أن أعرف ما هو طلبكم كي أعرضه عليه"

قال عواد بإصرار:

"كلا. يجب أن أقابلهم شخصياً"

سحب العريف تلفونه اليدوي وأتصل بأمر الكتبة وأبلغه بوجود شخص
يأبى إلا أن يتصل به شخصياً. أجاب قائد الكتبة:
"حسن، اجلبوه لي إذا"

عندما أصبح عواد مع مرافقه في منتصف الخيمة، قام قائد الكتبة من
مكانه متوجهاً نحو عواد الذي لم يتوقع أن يستقبل بهذا الشكل المؤدب، وقال له
وهو يؤشر بيده إلى الكرسي:

"أنا قائد الكتبة، تفضل أجلس. ماذا تحب، شاي أم قهوة؟"
"قهوة من فضلكم"

عندما سحب القائد كرسياً واتخذ مكانه جنب عواد، سأله ما إذا كان يوافق
أن يجلس معاونه معهما ويشارك في الحديث. قال عواد بأدب:

"البيت بيتك، تتصرفون فيه كما تشاءون. الأمر متترك لكم"
أشر القائد إلى العريف أن يبلغ المعاون بالحضور وأن يذهب هو إلى
واجبه. عندما أصبحا وحدهما في الخيمة، سأله قائد الكتبة:

"ما هي الخدمة التي يمكنني أن أسدلها لكم؟"
قبل أن يبدأ عواد بالجواب حضر المعاون. هنا أعاد القائد سؤاله الموجه إلى
عواد الذي تغلب على خجله وقال:

"أنا إسمى عواد جدوع صاحب المزرعة الواقعة وراء الهضبة الشمالية وأحد
أقارب خلف أبو السيف الذي يثق بي بشكل مطلق. لقد أخفيته منذ اليوم الأول
من إختفائه وكان من المفترض أن أرافقه عدة أسابيع فقط ثم ينصرف كل
واحد منا إلى طريقه، ولكن أصحابه تركوه وحدهم أختفوا عن الأنظار. وبقيت
هذه الورطة على عاتقي، دون أن يعاونني أحد. والآن أريد أن أتخلص منه ومن
بلاده"

بدا الأمر للضابطين كما لو أنهما يحلمان وأن الرجل يروي لهما قصة

خيالية من قصص ألف ليلة وليلة. وخطر ببالهما سؤال كبير يريد أن يعرف ما إذا كان هذا الرجل المدعو عواد في وضع طبيعي لا يحتاج إلى معاينة طبية نفسية، أم لا بد من فحص طبي دقيق؟

هز القائد رأسه باستغراب وهو يكرر:

"عجب، عجيب... يوم أمس جاعنا رجل من أقارب خلف وأدعى أنه يعرف مخبأه ومستعد أن يأخذنا إليه، ولكنه طلب تأجيل الأمر لبضعة أيام. قال عواد بهدوء وهو يضحك:

"إن هذا الرجل إما مجنون أو مبعوث من قبل أقارب خلف لتسقط أخباره"
قال معاون القائد:

"كان من المفروض أن يمر علينا هذا اليوم ويعطينا النتيجة النهائية"
قال القائد بفضول:

"دعنا الآن من هذا المجنون ولنرجع إلى موضوعنا. قل لي هل ترافقه شخصياً أم بشكل غير مباشر؟"

"إنه يعيش معي، أعد له الفطور والغداء والعشاء ولا يتصل به غيري. جئت اليوم إلى هنا كي أسلمه لكم. لم أعد أتحمله بعد"

"هل بإمكانه أن يخرج من المخبأ بدون مساعدتك؟"
"مستحيل، يجب أن يفتح الغطاء من الخارج"

"أين هو المخبأ؟"

"في مزرعتي"

"هل أنت متأكد من صحة هذه المعلومات"

"نعم، كل التأكيد"

"هل أنت مريض أم في صحة جيدة"

"أنا لست مريضاً، بل في صحة جيدة"

"هل تريد أن يعلن عن أسمك أم يبقى مستعاراً؟"

"لا أريد أن يعلن عن أسمي"

"هل ت يريد أن نخرج من المخبأ ليلاً أم نهاراً؟"

"أنا في كل الأحوال يجب أن أترك العشيرة والمنطقة وأختفي عن الأنظار،

لذلك لا يهمني كيف تتعاملون معه"

"هل تسمح أن يقوم الطبيب المختص بإجراء بعض الفحوصات عليك؟"

"إذا كان لابد من ذلك فليكن"

قام القائد من مكانه قائلاً:

"سيأخذك معاوني إلى خيمة الطبيب وبعد نصف الساعة سنلتقي هنا"

خلال هذه الفترة أتصل قائد الكتيبة بمسؤوله في القيادة العامة وأبلغه عما

حصل وأنه من المحتمل أن يتم هذا اليوم إقاء القبض على خلف أبو السيف.

أجاب المسؤول في القيادة العامة:

"إنتبهوا جيداً. إنكم مكلفون باداء مهمة في غاية المسؤولية والخطورة.

تأكدوا أولاً من وجود الملجأ ومن فيه. تصرفوا بشكل طبيعي. ولا تخذلوا أي

إجراء دون استشارةنا. ننتظر تواصلكم. تأكدوا من أن الشخص هو فعلًا

خلف أبو السيف"

قرروا وضع الكتيبة تحت الإنذار وإستقبال كل شخص مدنى يريد الوصول

إلى قائد الكتيبة باللطف والإحترام والإستماع الجدى لمشكلته أو شكواه.

ترك الطبيب عواد بعد إجراء الفحوصات العامة عليه في خيمته بصحبة

العريف. وذهب هو إلى خيمة قائد الكتيبة. وما أن رأاه الأخير، إلا وصاح:

"بشر يا صاحبي، هل أنه يهدي أم يقول الحقيقة؟"

قال الطبيب وعلامات الفرحة بادية على وجهه:

"أعتقد يا صديقي الكولونيل أن الحوت يتحرك داخل شبكتنا. إن الرجل طبيعي جداً ولا سيما من الناحية النفسية، ولكنه يعاني من صدمة خوف. ودون أن أسأله قال أنه يمكنه أن يأخذنا اليوم إلى المزرعة عند حلول الظلام، ولكنه لا يريد أن يراه خلف معنا"

صاحب أمر الكتيبة وهو يعانق الطبيب:
"عظيم.. عظيم.. عظيم.."

قال قائد الكتيبة وهو يهئ نفسه للاتصال بالقيادة العامة:

"أنا سأتصل بالقيادة العامة. يمكنني أن تعود إلى خيمتك ودعه ينتظركي عندك. حاول أن تردد معه بإتجاه إلقاء القبض على خلف هذا اليوم مع حلول الظلام وأما إذا كان يريد الشخص على ذوقتنا، فسأريه نجوم الليل في عز النهار"

إتصل قائد الكتيبة بالقيادة العامة وأبلغهم بأخر التطورات بما فيها إستعداد الرجل بأخذهم إلى المكان القريب لإلقاء القبض عليه.

وافقت القيادة العامة على التحرك بإتجاه المزرعة ليلاً في جنح الظلام، على أن تساهم الكتيبة كلها في الحملة التي يجب الحفاظ على سريتها. وينبغي التأكد من أن الرجل هو خلف أبو السيف فعلاً وليس شبيهه. لا يجوز نشر أو بث أي شيء بخصوص الحملة:

"توقع منكم أخباراً سارة وبانتظار مخبرتكم"

مع هبوط الظلام الدامس، تحركت الكتيبة بكمالها بإتجاه مزرعة عواد التي ما لبثت أن طوقتها من جميع الجهات. كانت المسافة بين المزرعتين لا تتجاوز عشرين كيلو متراً، قطعواها عواد على ظهر حصانه. التقى قائد الكتيبة وعواد أمام باب المزرعة الرئيسي. بعد أن فتح جميع الأبواب، اقترح عواد على قائد الكتيبة أن يستعملوا غرف البيت لإدارة شؤونهم بدلاً من الخيام. قال قائد

الكتيبة:

"شكراً للفكرة الجيدة، ولكنني قبل كل شيء أريد أن أرى المخبأ"
كانوا خمسة ضباط يتقدمهم قائدتهم. قال عواد موجهاً كلامه إلى القائد:
"تعال معي، إنه يملك مسدساً، ولكنه لن يستعمله، لا خوف من ذلك. يمكن
النزول إليه لترروا كيف يعيش. حاله حال الكلب. ويمكنكم أن تنادوا عليه،
فيخرج إليكم"

وقف القائد هنيئة وهو يقول بلهجة صارمة، موجهاً كلامه إلى عواد:

"هل أنت متأكد ١٠٠٪ بأنك فعلاً خلف أبو السيف وليس شبيهه؟"

"إنه خلف أبو السيف سيدى ١٠٠٪. رقبي تحت أيديكم"

وأصلوا سيرهم وراء عواد تحيط بهم كوكبة من الجنود المسلحون برشاشات
أوتوماتيكية ومجهزين بمختلف أجهزة القتال. مشوا إلى نهاية الحديقة ومرروا
بالخيمة السوداء ثم مرروا بقطعة أرض قاحلة تنتهي بمجموعة غرف طينية
 تستعمل كزريبة حيوانات. وراء إحدى هذه الغرف وأمام كومة من المهملات
وقف عواد وهو يقول بصوت منخفض:

"هذا هو المخبأ"

ثم بدأ يرفع المهملات ويرميها جانباً إلى أن ظهر غطاء حديدي بمقبضين،
 هنا توقف عواد عن العمل وقال بهمس ورجاء:

"لا أريد أن يسمع صوتي ولا أن يراني"

أشعر القائد، الذي كان لا يصدق حتى هذه اللحظة مجمل القصة، إلى أحد
الضباط أن يرافق عواد إلى أبعد مكان ثم طلب من جندي ضخم أن يرفع
الغطاء. عندما تم له ما أراد، قال موجهاً كلامه إلى داخل النفق بصوت عالٍ:
"أيها السيد خلف أبو السيف، أنا الكولونيال (م) أمر الكتيبة (د) أطالبك
باسم القوات المسلحة التابعة للدولة العظمى أن ترمي سلاحك وتسليم نفسك

فوراً

"أنا خلف أبو السيف، رئيس الجمهورية أريد أن أجري معكم مفاوضات"

"أول خطوة هي أن تخرج من النفق"

حين أطل بشعر رأسه الأشعث الطويل المنتصب القذر ولحيته الطويلة،
أحسوا أنه يعاني صعوبة في الخروج من النفق، فساعدوه للخروج إلى الهواء
النقى.

٢٦

الأعوام تمر بسرعة،

ولكنها تختلف في سرعتها من إنسان لآخر ومن جيل لآخر ومن مكان لأخر
أيضاً. مر عقد من الزمن، تحجر فيه التقويم بكل مفرداته. الثانية الواحدة
تحولت إلى ساعة والساعة الواحدة تحولت إلى نهار كامل. والنهار تحول إلى
عام كامل. والعام تحول إلى قرن.

وفي الوقت نفسه جرى العكس في العملية. القرن الواحد تحول إلى عام،
والعام الواحد تحول إلى نهار والنهار تحول إلى ساعة والساعة تحولت إلى
ثانية. وهكذا لعب التقويم دوراً حاسماً في تسيير حياة الناس وأوضاعهم
ومزاجهم. لقد إنقلبت الآية وتداخلت الأمور. واختلط الحابل بالنابل، كما
يقولون. وتغيرت الأشياء بشكل غريب. وراحت فئات من الناس تعاني الأمرين
من هذه التحولات الغريبة، ولا سيما أولئك الذين كانوا يحملون التقاويم
الصغريرة في جيوبهم والتي يسمونها (المفكرة) والمفكرة، في الحقيقة، هي
المفردة الصحيحة التي حل محل مفردة التقويم. وبدلًا من أن يفكر الإنسان
بنفسه، راحت المفكرة تفكر له وتربّي أمرره. وأما الذين كانوا لا يملكون التقويم
أي المفكرة أصلًا، فإنهم ظلوا تائدين.

وجاء بعض الوعاظ من هنا وهناك، ممن درسوا في أكاديميات أشرفوا عليها (المفكرة الغربية) للبحث عن العمل، ولكن عبثاً، إذ أنهم لم يتمكنوا من إثبات إمتلاكهم للمفكرة، ناهيك أنهم لم يعرفوا أصلاً ما هي المفكرة.

كان هؤلاء (العلماء) الذين بقوا خارج طاحونة الزمن، يريدون أن يعيشوا كالآخرين ويعيلوا عوائلهم ويساعدوا أقاربهم القراء. وراحوا يشكلون فيما بينهم مجتمعاً علمياً يقوم بدراسة ظاهرة عدم إمتلاكهم للمفكرة (التقويم) المطلوب. وإذا كانوا يحتاجون إلى معونات مالية لتمشية أعمالهم، اتصلوا بأصحاب المال ممن انحدروا من العوائل التي صعدت في حينها بدون المفكرة. وأعلموهم بأن هناك ٨٠٪ من الجماهير لا تملك أيمفكرة وإنهم بصدق تجمّع هؤلاء المنسيين وتتوirهم لأسباب عدم إمتلاكهم لهذه الوثيقة التي يمكن للإنسان أن يعيش مرافقاً من دونها. أو أن يحصل عليها بطريقة ما. ولما كان المنسيون يشكلون قوة حاسمة في المجتمع، ولكن جاهلة بأمور الحياة، لذا أستقبلوا مطلب العلماء برحابة صدر ووضعوا أنفسهم تحت إمرتهم، على أن يضعوا حياتهم وأموالهم أيضاً في خدمة الحركة التي تمكنت في وقت قصير جداً كسب العلماء و ٨٠٪ من الجهلة المسحوقين.

وبدأت الحركة الجديدة تطرح برامجها وتنافس القوى والحركات التقليدية في توطيد العلاقة مع الجماهير والبحث عن أسباب بؤسها وفقرها وإيجاد العلاج اللازم لها. وبدأ المجتمع يتصل بشكل منظم بمراكز الدراسات الاستراتيجية وتبادل معها الآراء حول تفسير الزمن وماهيته ودوره في خلق مجتمع عادل يؤدي إلى فردوس أرضي، يقدم للمؤمن مثلاً مصغراً للجنة.

وتقرر أن تكون الوسيلة في البداية عن طريق الإقناع السلمي. وحين يشتند عود الحركة فيجب الإعتماد على القوة التي يفرضها السيف، حيث سيكون نهب وسلب مال غير المؤمن حلالاً.

كان خلف أبو السيف من الفئة التي لا تملك المفكرة، ولكن بعد أن تبنته

مخابرات الدولة العظمى وعقدت عليه الآمال، منحته مفكرة جديدة يمكنه من خلالها أن يحكم بلده الغني إلى الأبد، بيد أنه رغم إمتلاكه للمفكرة المطلوبة، لم يستعملها ولذلك لم يتمكن من فهم حقيقة ماذا يعني تجاوز الخط الأحمر. كما أنه لم يفهم خطورة الحرب مع دولة خراسان أو إعلان حرب الإبادة ضد شعب ميدستان أو إحتلال دولة مرجان.

كان الزمن الذي يتمتع به خلف أبو السيف حين كان رئيساً للجمهورية من النوع الذي لا ينتهي، ولكنه ما أن تم إلقاء القبض عليه، إنقلبت الآية. عندما كان في المخبأ، تحجر الزمن وتحول العام إلى قرن. وأما فترة العقود الثلاثة في الحكم، فتحولت إلى ثالث ساعات فقط بتوقيت المخبأ. أحياناً يحتمل الأمر وتتحول الدقيقة الواحدة في المخبأ إلى شهر.

وأما الآن فهو في سجن غريب عليه، لا يدري أين. يتذكر فترة العقود الثلاثة التي قضتها في الحكم، فتبعدوا كما لو أنها لم تكن.

مرعلى إنتهاء عهد خلف أبو السيف، الذي استغرق نحو ثلاثة عقود ونصف العقد، عشر سنوات، جرت فيها من الأحداث ما يعادل دهراً من الزمن: تم القبض فيه على خلف أبو السيف، الذي سماه بعض كتاب بلده بـ(خلف أبو السيف الخشبي). وظل اللقب ملتصقاً به إلى ما بعد موته شنقاً حتى الموت. لقد تحول خلف يوم إعدامه إلى مهرلة لا مثيل لها.

الزبانية الخمسة الذين كان يعتمد عليهم خلف أبو السيف، نزلوا إلى الشوارع يقودون حملات السرقة والنهب ويلقون القبض على أعوان النظام السابق ويسلمونهم إلى قوات الدولة العظمى ويكسرن أبواب السجون ويطلقون السجناء أو يشكرون منهم عصابات للسطو على البنوك والمحال التجارية.

وأنتشرت أزياء رجال الدين أنتشروا في كل مكان، يبيعون شهادات تقر بذلك مؤمن فعلاً، وأن إحدى رجليك في الجنة، ولكن ينبغي عليك أن تحدد

مذهبك، كي يسجله في الإستماراة: سلفي أم خلفي. وراح الكثير من المواطنين يؤكدون بأن الخلفيين هم أتباع خلف أبو السيف. وتمكنوا في فترة وجيزة أن يحولوا قبره إلى مرقد فمزار علني يؤمه الخلفيون وأتباعهم في كل أيام الأسبوع وطيلة العام.

عواد أختفى عن الأنبار في الليلة نفسها التي قاد فيها قوات الدولة العظمى إلى مخبأ خلف أبو السيف.

بعد أن تم وضع دستور جديد وتشكيل حكومة طوائف، أنسحبت قوات الدولة العظمى لتوالى مهامها في مكان آخر من الأرض.

كان عواد يعيش في إحدى الدول المجاورة ويعمل كمقاول معترف به رسمياً، إذ أنه تمكن أن يحصل على جزء من المكافأة المخصصة لمن دلّ على مكان إختفاء خلف. وتمكن أن يستثمر حصته في المقاولات التي نجحت بفضل جهود مهندس من بلده. وكان المهندس يزور أهله الساكن في العاصمة بانتظام. وكلما عاد من سفرته وتحدث عن أجواء العاصمة وذكرياتها، هاج به الحنين إلى الوطن وتمنى لو تمت له الفرصة لزيارة.

ذات يوم تمكن المهندس من إقناعه للزيارة وتعهد أن يتحمل كامل المسؤولية التي قد تترتب من وراء السفر وقال له أن الدولة كلها مبنية على أساس الرشوة.

وصلت الطائرة إلى المطار الدولي في الوقت المحدد دون تأخير. وجرى تفتيش روبيني سريع على الحقائب اليدوية ثم ودعهم الضابط، قائلاً:

"أهلاً بكم في وطنكم"

قال المهندس منتصراً:

"هذا هو كل ما في الأمر"

قال عواد وهو لا يصدق عينيه:

"نحن الآن في وطننا إذاً"

أتفقاً أن يبقيا في البلد ثلاثة أيام فقط. وأبدى عواد رغبته بعدم ترك العاصمة ولا زيارة مدینته. إنه لا يريد أن يعرفوا بأنه هنا. أمنيته الوحيدة هي أن يطلع على المعالم القديمة في العاصمة. ويريد أن يتمشى في شارع السلاطين من بدايته في باب العظماء إلى نهايته في باب الحرية. قال المهندس بإستغراب:

"ألم تجد مكاناً يعجبك في هذه المدينة الكبيرة غير هذا الشارع؟"

"لماذا؟ ما به؟"

"إنه مجموعة خراب وأكوام من التراب، لا تستفيد منه"

قال عواد بإصرار:

"هذا الكلام كله لا ينفع. أنا سأنفذ قراري"

"أنت تحتاج لتنفيذ قرارك على الأقل إلى ست ساعات. إذا كنت مصرًا على رأيك فيجب أن تتفق على موعد"

كان عواد يعرف أن صاحبه مربوط بكومة من المواعيد، بالإضافة إلى أنه كان يريد أن يتمشى هناك وحده، لذلك تمكّن من إقناعه بأنه غداً في وقت مبكر من يوم الجمعة سيبدأ وحده بمشروعه مع شارع السلاطين.

استيقظت العائلة في الساعة السادسة والنصف. في السابعة تم تناول الفطور وتم الاتفاق على تناول طعام الغداء في الساعة الثانية والنصف في البيت. استقل عواد سيارة تاكسي إلى مدخل شارع السلاطين. لاحظ من خلال زجاج السيارة الجديدة، أن المدينة قد تغيرت وتحولت إلى قرية واسعة لا نهاية لها. لم يتمكن من ضبط سكته، إلتفت إلى السائق قائلاً:

"هاي العاصمة قد تغيرت.."

تنهد السائق بحسنة قائلاً:

"هذه ليست عاصمة يا سيدي، إنها خرابٌ:

وأطبق عليهم الصمت. بعد نحو نصف الساعة توقفت السيارة أمام تل من التراب والطابوق وبقایا بيت مهدم مع مجموعة من الشبابيك والأبواب المحطمة. قال السائق وهو يكاد يبكي:

"هذا هو مدخل شارع السلاطين أستاذ"

لم يتكلم عواد، ولكنه ظل حالاً. مد يده إلى جيئه، هنا قال السائق:

"واصل أستاذ، صديقك دفع الحساب"

وشق الأنفاس التي قطعت الشارع المهجور الذي أوقف حركة المرور في هذا الذي كان يسمى أيام زمان، شارع السلاطين.

مر بمكتبة السلاطين وراح يلتقط الكتب التي كان يبحث عنها. وبعد خطوات قف أمام حانوت وطلب كأساً من عصير العنب البارد الذي سبق له أن كان يتمتع بشريبه قبل عشرين عاماً. إنها النكهة نفسها ما قبل عقدين من الزمن. وقف أمام عمود رخامي، يتأمل الأشياء ويستعيد في مخيلته ماضيها المزدهر ومقارنها مع الحاضر المتهرب. مر بجامع متزو في ركن مطل على الشارع، أدركه الشيخوخة، يبدو كما لو أنه يخفى نفسه من عابري السبيل. فكر عواد: أهكذا يغير الزمن الأشياء؟ ويتحول شارع السلاطين، أجمل شارع في العاصمة، إلى شارع البائسين؟ إن هؤلاء الذين يريدون أن يفسروا فكرة الزمن والمفكرة لهم الحق إذاً. إنهم لا شك سيبلغون هدفهم.

تبين له أن الشارع مفتوح إلى نهايته، ولكن فقط للمشاة والدراجات الهوائية. وجد نفسه بحاجة إلى أن يركن إلى زاوية، يحتسي فيها الشاي ويراقب المارة ويستعيد ذكرياته التي أثارها شارع السلاطين. وأما فكرته بشأن قطع الشارع إلى نهايته، فوجدها غير عملية. رأى أن الأسواق الفرعية والحوانيت ما زالت باقية، ولكنها تغيرت دون أن يدرك معالم وكنه التغيير. ها هي القهوة المعروفة التي كان يرتادها عند زياراته إلى العاصمة. كان الزحام

آنذاك شديداً، ومن هنا كان يراقب المارة.

كان المقهى فارغاً، كسابق عهده، حيث أن الزبائن يأتون عادة بعد الساعة العاشرة صباحاً ويجلسون هناك إلى أن يحل موعد حلول صلاة الظهر. المقهى لم يتغير سوى في ديكوره الداخلي: كراسي وتخوٍ ومناضد جديدة بعض الشيء، وصور تاريخية مختلفة على الجدران.

سحب من حمالة الجرائد نسخة من جريدة الأهالي وراح ينشغل بتنقلب صفحاتها وهو يقرأها بعناية وفضول. ثم أجال عينيه في عناوين المحليات البارزة:

إرهابي يفجر نفسه في جامع سلفي. الحصيلة ٢٣ قتيلاً.

الإرهابيون يخطفون طبيباً، يطابونه لقاء إطلاقه مبلغ ٧٥٠٠٠ دولار.

إرهابي يعترف أنه ذبح ١٥ شخصاً من جنود الله.

الإرهابيون يفجرن أنبوب نفط رئيسي. حريق في المنطقة.

أحس بالقنابل تمطر عليه من كل الجهات وأنه جالس في فخ جاهز للإنفجار في كل لحظة. هل يترك المكان ويرجع إلى بيت أهل صديقه؟ وماذا يفيده الهروب؟ كلا. لن يرجع إلا في الموعد المتفق عليه. وجاء رجل جلس قبالتة. يبدو أنه إمام جامع بكامل ملابسه وعمامته وحذائه ولحيته ونورانيته وعباعته. في أول وهلة بدا لعواد أنه يعرفه. وكان إمام الجامع أو الخطيب ينظر إليه بعين الشك والريبة وفي الوقت نفسه كان يخفي وجهه كي لا يتعرف عليه ثم راح يبالغ في إخفاء نفسه. وجد عواد إنه شديد الشبه بشخص يعرفه حق المعرفة. ثم راح هو الآخر يدقق في ملامح عواد. آنذاك تأكد هذا أنه لا محال هو بالذات. وفكّر مرة أخرى:

إنه هو بلحمه ودمه، يا إلهي من أين جاء هذا الشبه؟

هل هو مجرد شبيه؟ أخوه؟ قريبه؟ إنه هو بالذات.

وقف الرجل في مكانه وهو يهم بترك المقهى. قطع عواد عليه الطريق قائلاً
بفضول:

"هل نحن نعرف بعضنا بعضاً؟"

قال الامام بحدة:

"كلا أبداً، لا أنت تعرفني ولا أنا أعرفك"

"ألا تقول لي من أنت؟ لقد رأيتكم اليوم في كل مكان. أنت لست غريباً عليّ.
أنا أعرفك، حق المعرفة"

قال الرجل بإعتداد:

"أنت لا تعرفني يابني، أنا إمام وخطيب جامع السلاطين، أنا:
خلف أبو السيف..!"

ماركليبيرك: ٢٠١٣/٩/١١ - ٢٠١٢/٢/٢٢

